سلسلة اعلام الفكر العالمي



امبو

تأليف: سمير الحاج شاهين

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

رامبو

سلسلة اعلام الفكر العالمي

رامبو

تأليف: سمير الحاج شاهين

الطبعة الاولى

تموز (يوليو) ١٩٧٧

١ ــ طفولة

« العبقرية هي الطفولة المستعادة قصداً »

بودلير

ليست النزعة الشعرية عند الانسان سوى القدرة على التعبير عن روح الطفولة الكامنة فيه · فمن خلال بعض لحظات خاطفة من الفرح هي التي تجـــدد نضارة القلب ، وتحيي خصوبة الروح ، وتبعث الطفل الهاجع في اعماق كل منــا ، يتبدى لنا العالم تحت نور جديد ، وننظر اليه بدهشة وحماسة الاطوار الاولى من العمر · اذ اننا ، باجتيازنا نظام الزمان الذي يعيش فيه الانسان البالغ ، نصل الى النظام الآخر الذي يحيا فيه الطفل وهو نوع مـــن الابدية المسحورة ، التي هي العدســة الوحيدة القادرة على التقــاط الجمــال وتسجيل انعكاساته · كما انه مناخ فردوسي عامر بالثقة والطمانينة ، مملوء بالحب والتعاطف البشري ، حافل بالسر والفضول ، غني بالامل والاحلام · وما العبقرية الغنية الا الطاقة عـلى اصطياد كل ما يمر على شاشة وعينا في مثل هذه اللحظات المباركة ، حين يسفر الكون عن كنوزه الدفينة ، ويكشف عما يزخر به من مادة شعرية كانت محجوبة عن عيوننا من قبل · يتساءل بودلير :

ـ « ٠٠٠ ليس من السهل علينا ان نبرهن ، بفضل مقارنة فلسفية بين اعمال فنان ناجح وحالة روحه حين كان طفلا ، على ان العبقرية ليست سوى الطفولة وقد افصح عنها بوضوح ، وزودت الآن لتعبر عن نفسها باعضاء رجولية وقوية ؟ ٠٠٠ »

وهو يدعو الفنان الى العثور على :

ـ « ٠٠٠ رؤية طفولية ، يعني رؤية حادة ، سحرية ، لفرط ما هي بريئة ٠٠٠ »

ان الكثير من المفكرين ، اليوم ، يؤيدون رأي بودلير هذا دون تحفظ ٠ الم يقل فرنسوا مورياك بأن القدر الرائع والمخيف بذات الوقت ، الذي عرفه شعراء من امثال بودلير وفرلين ورامبو ، يكمن في هذه الموهبة الفذة والفظيعة التي تجعلهم عاجزين عن ان يشيخوا ؟ الم يعلن اندريه بريتون بأن الروح التي تغوص في السيريالية يتاح لها الفرصة كي تعيش ، من جديد ، بحماس ، افضل جانب من طفولتها ، وتستعيد بأقل من لحظة كل مجرى حياتها الماضية ، كما يحصل لانسان موشك على الغرق ٠ وان ذكريات الطفولة تولد فينا شعورا منزها عن الانانية هو اخصب المشاعر على الاطلاق ؟ الم يصرح :

ـ « ٠٠٠ ربما كانت الطفولة هي التي تدنينا اكثر ما يكون من الحياة الحقيقية ، الطفولة التي لا يملك الانسان ،

فيما وراءها ، بالاضافة الى تأشيرة مروره ، سوى بعض بطاقات الحظ ، الطفولة التي يتضافر كل ما فيها ، مع ذلك ، على جعلنا نمتلك ذاتنا بفعالية وبدون مواربة ٠٠٠ »

وان هذه الحقيقة لتنطبق اكثر ما يكون على فنان كرامبو استأثر دون معظم الشعراء بامتياز فريد،هو المحافظة علىحالته الطفولية البريئة المدهوشة حيال الاشياء ، ونضج فكريـا وشعريا قبل ان يخرج من هذه المرحلة المهنوءة من العمر ، وانجز كل انتاجه تقريبا وهو لم يكد يبلغ سن الرشد ٠ كما انه ثابر دائما علىرفض المفاهيم والمعلومـــات التي لقنوه اياها ، وكل العادات والتقاليد المفروضة عليه من خارج ٠ ان اغلبية الكتاب يحتاجون كي يستعيدوا فردوس الطفولـة المفقود ، وينتقلوا الى عالمها المسحور ، ويبثوا في نتاجهم شيئا من روحها الالهية ، الى ان يبذلوا مجهودا اراديا ، وان يلجأوا الى الذاكرة ٠ بينما رامبو لا يحتاج الى تكليف نفسه مثل هذا العناء : انه طفل من حيث النظرة الدهشة المسحورة المفتونة التي يلقيها على الكون ، وانسان ناضج من حيث القدرة على التعبير عن هذه الرؤيا ٠ وهنا يكمن سر الاعجاز في شعره ، الذي يتميز بكل صفات الطفولـة : الطهارة ، البراءة ، السذاجة ٠ وبكل مقومات النضوج الفني : البراعة، المهارة ، العمق ٠ وهذا مما يسمح له ، وهـــو امـر نادر للغاية ، ان ينقل تجاربه بكل نضارتها ، وشبابها الفكري في اللحظة ذاتها التي يعيشها فيها ٠ مما حدا بالناقدة اميلي نوليه الى ان تقول عنه :

ـ « ... ان كل مجهوده يتلخص في تمديـــد زمن الطفولة ، المطلق ، العبقري ، زمن الخلق هذا ، عندما يكون الخلق متصلا وطبيعيا . بأية طــرق يمكننا ايقاظ ، اثــارة الاختراعات والتقنيات الطفولية، عندما تأتي اللحظة الاخرى، حين ، وهي نضرة بعد ، وهي حاضرة بعد ، نكون بالمقابل قد اصبحنا قادرين على التعبير عنها ؟ هنا ، في التحالف بين مزايا عمر خلاق ومزايا عمر التعبير ، اللذين لا يتوافقان ابدا ، في الواقـــــع ، يكمن بحث رامبو ومهمته ، فشله وسعادته ...» .

نعم ان رامبو هــو ذلك الطفل العاجز عن بلوغ مرحلة النضج والرجولة دون ان يفقد في الطريق خير جزء مــن نفسه ، وافضل ناحية من مواهبه . ان النعمة التي اغدقتها عليه الطبيعة بسخاء هي اسطورة الطفولة ، نعمة الاستغراق كلية في نشوة الاحساس التي يذوب فيها بشهوانية وصوفية، ويعثر فيها للحظة خاطفة ، على الوهم بغبطة خالدة خارج نطاق الزمان والمكان . نعم :

ـ « ... لقد خلق رامبو ليستمر طفلا خلال الحياة ، طفلا بقلبه الطاهر والشرير ، ببراءته وطغيانه ... »

على حد تعبير جاك بريفيير .

بهذا المعنى نجد ان الاصالة الفنية والصفاء الفكري يكون موجودا في كل الشعراء في مستهل حياتهم الادبية ، لكن اللهجة تخف حدة وبكارة مع مضي السنين . انها تربح من

العمق ما تخسره من العفوية ٠ حتى اذا ماتت روح الطفولة في الكاتب كف الفن عن ان يكون بالنسبة له تعبيرا فذا عن ذاته في مواجهة النظام القائم ٠ وهكذا الفى رامبو نفسه عاجزا حين بلوغه سن الرشد عن الاحتفاظ بسر الطفولة ، وقدرتها العجيبة على رفض كل امر والقاء نظرة جديدة كلية على الكون والاشياء ٠ فمر في ازمة روحية حادة مبعثها اكتشافه لعالم الرجال الواقعي مع ما يستتبع ذلك من التخلي عن كل القيم العليا والمثاليات والحقائق المطلقة التي كان يؤمن بها ٠ ان الانتقال من فردوس الطفولة الآمن الحالم حيث الحقيقة السامية والقدرة الفائقة والخصوبة والطهارة الاصلية ، الى ارض النضوج المضطربة القلقة حيث الواقع المبتذل والعجز الجذري والنضوب والانحلال والتفسخ ، مؤلم جدا بالنسبة لانسان مرهف الحساسية كرامبو ظل الطفل حيا فيه ، ولم يكن قط مؤهلا لان يصبح رجلا ، انسان مفطور على حياة الشعر والحلم والخيال ولا قابلية له على خوض غمار الحياة الواقعية العملية العادية ٠

ان عبقرية رامبو مرتبطة بطفولته التي ما ان اجتاز عبثها حتى ماتت شاعريته ٠ ان رامبو لم يهجر الشعر ، ان الشعر هو الذي هجره ٠ تقول سوزان برنار بهذا المعنى :

ــ « ٠٠٠ لان المراهق الذي اراد ان يخلق عالما جديدا بفضل سحر الكلمة الشعرية قد بلغ الآن طور الرجال ٠ كل البشر تقريبا شعراء عندما يكونون اطفالا ، لكن قليلون هم الذين تعيش فيهم المقدرة العجيبة على اعادة خلق الواقع ،

بعد سن العاشرة . عند رامبو ايضا الينبوع نضب معينه ذات يوم ... » .

ان سر رامبو هو انه رفض بعد ان ماتت روح الطفولة فيه ان يستمر في الكتابة ، وان ينتج قصائد فكرية جافة كتلك التي ينظمها الشعراء بعد خروجهم من مرحلة الشباب الروحي والنضارة الفكرية ، والتي يصرون بواسطتها على مواصلة العطاء والعيش بعد انطفاء الجذوة الشعرية في صدورهم . هو كان امينا مع نفسه وآثر الصمت . وكما يعتقد ايف بونغواي :

— « ... من المحتمل جدا ان فرصة اعادة اختراع الحب قد اختفت الى الابد مع السذاجة الطفولية ... ان رامبو يكف عن الكتابة عندما تحرمه نهاية الطفولة ، الملزمة اكثر من اي قرار فكري ، من الامل في تغيير الحياة ... ».

وهكذا نرى ان الكثير من قصائد رامبو الاخيرة تدور حول موضوع حالة اللاوحي والجفاف الروحي والفقر الشعري ، التي يعاني منها بعد خروجه من مرحلة الطفولة وقابليتها الهائلة على الدهشة والحماس ، وهذا خاصة في « الاشراقات » حيث نجد قصيدة « صبا — ٤ » . مثلا تصور هبوط الاندفاع الداخلي وفتور الهمة ، همود الحتمية والاغواءات الجنسية العديدة التي تراود الشاعر في عزلة غرفته الموحشة المضجرة ، نوبات الغرور والكبرياء الخطرة التي تنتابه ، وحالات الضعف والخوف التي يمر بها لكنه

يؤمل ان يستعيد روح الطفولة الخصبة بالوحـــي والالهام ٠ وعندئذ يصبح حساسا لما يحتوي عليه الكون من جمـــال مدهش وانسجام رائع ٠ وتبدو لـــه الكائنات محاطة بهالة نورانية عجيبة ، رافلة في حلة سنية من الكمال والطرافــة والاثارة والتشويق ٠ وعندئذ تستيقظ غريزة احلامه وحاسة فضوله ، وتغريه بالنفاذ الى اسرار البشر ، الذي لم يكن ليعيرهم اهتماما من قبل ، واكتناه جوهر المشاهد الساحرة التي تمر امام ناظريه ٠ وتصير ذاكرته وحواســه ، وقـــد ارهفت وانتعشت ، بمثابة وقود تغذي طاقته الابداعية ٠ فاذا ما خرج من غرفته بعد هذا الانخطاف الروحي العميق وبعد هذا الاشراق الفكري الخصب ، وجد ان العالم قد تغير في نظرة ، واكتسى بوشاح اخاذ من الجلال والروعة ، ولم يعد محتفظا باي من مظاهره المألوفة السابقة ٠

وهذه قصيدة « صبا ــ ٣ » المعنونة « عشرون عاما » يصف فيها رامبو نفسه وقد بلغ العشرين من العمر ٠ لقد زال الان سحر الحياة القديم ٠ ان الحماس والنضارة الروحية ، ان الخفة والرشاقة والحيوية الجسدية التي كان يتمتع بها في عهد الحداثة والصبا الباكر ، يكبح جماحها وتتحول في مثل هذه السن الى بلادة ومرارة وخيبة ٠ سقى الله ايـام الطفولة بتفاؤلها الدائب ، وانانيتها اللامتناهية ، وتخففها من المسؤوليات والاعباء والواجبات ٠ كم كانت الحياة تبدو جميلة في مثل هذه الفترة من العمر ، غنية بالوعود ، ومليئة بالامكانات :

ـ « ··· كم كـــان العــالم مليئــا بالزهــور ذلــك الصيف ··· » ·

كانت الاجواء متحررة من جاذبية وكثافـــة الارض ، والاشياء والاشكال متجردة من ثقالتها المادية · كنا اقـل شعورا بالزمان والمكان · وكان القلب ، العامر بفائض من الفرح يكفي لتغطية اي نقص او عيب في الوجود ، ولتهدئـة كل الحسرات والاوجاع ، جوقة مسحورة تعزف اناشيد الامل والاماني ، وتخلق سببا للسعادة من لا شيء · ولـــم تكـن الاعصاب لتتوتر وتضطرب كما تفعل الان ، بل سرعان مـا كانت تهدأ وترتاح ·

اما في قصيدة « حرب » من « الاشراقات » فان رامبو يصرح بأن حاسة الجمال كانت مرهفة جدا عنده وهو طفل ، حين كان يملك حساسية حادة بالتغير والجدة والدهشة وسرعة الوقت ، غنية بالانفعالات تهتز كالقصبة لاقل نسمة هواء · اما الان بعد ان شب وكبر ، فلقد صارت الدقائق تتعاقب على منوال واحد بآلية ورتابة وبطء ، حتى لقد بات يشعر بغربـة عن العالم ويعاني من كل ضغوط المعيشة واعبائها البغيضة · هذا مع انه لا يزال يملك قابلية على الوجد والانفعال والحياة الزاخرة الغنية ، اذ ان روح الطفولة لم تمت فيه كلية ، وهو يفكر بالكفاح من اجل استعادتهـــا واسترجـاع امتيازاتها الضائعة وفردوسها المفقود ، وكنوزها التي لا تقدر بثمن ·

كما انه يعلن في مطلع « فصل في الجحيم » انه فيمـا

مضى ، ربما في ايام الصغر ، كانت الحياة تتراءى في عينيه عيدا مسحورا • كان يحب الناس وكان الجميع يبادلونه الود • وكانت النشوة تسكب خمورها المتعددة في قلبه الجذلان • لكن ها هو يستيقظ فجأة من احلام هذه المرحلة الهنيئة فاذا به عاجز عن الاستمتاع بالجمال ، ثائر على ظلم هذه الحياة متمرد على قوانينها ، معاد لانظمتها ، واذا بنزعته الى الهرب تشتد ، فيسلم امره لشياطين الغواية والبؤس والحقد ، ويتوصل الى ان يخنق بكلتا يديه وبملء ارادته كل اشعاع امل في نفسه ، ويقضي بتهور ووحشية على كل امكانية وسعادة • انه يستدعي اللعنة ويستجلبها على رأسه كي يتاح له وهو يغني ان يصرف هذه الثورة التي يجيش بها صدره ، وان يفجر براكين النقمة المتأججة في داخله • انه يستثير الاوبئة والكوارث والمصائب كي يطفىء في لججها هذه الحمى المسعورة المضطربة في اعماقه الدفينة • انه واقع تحت سطوة اله الشر ، خاضع لسلطانه ، ولقد تمرغ في حمأة الرذيلة ، ارتاد آفاق الجريمة وترنح على شفير الجنون • وكان يتفق له ، عندما يتخلص من احدى هذه الكوابيس ، ويخرج من احد هذه الاجواء الجهنمية ان يهزأ من نفسه بضحكة بلهاء مخيفة • حتى اذا ما وصل الى قعر الهاوية ، وسبر غور الالم باصبعه ، اذا ما انحدر الى الدرك الاسفل وشارف على الموت ، فكر في البحث عن المفتاح الذي يلج بواسطته الى وليمة السعادة القديمة حيث يستعيد قابليته للحياة ، ويشق في وجهه منفذا للخلاص • فوجد ان المحبة هي هذا المفتاح • انها تلك الناحية الروحية الالهية من الانسان التي ينتقل من

يعبر اليها الى ضفة النور والخير ، حيث يغمره الفـــرح ويتراءى له كل شيء جميلا • فيتصالح مع الكون ويعصف الامل بشراعه ويغمره الايمان والطمانينة من كل جهة • انها الفضيلة التي اوصى بها الله كل هالك تتوق نفسه الى النجاة • انها النعمة المنشودة ، والملاذ الاخير • لكن هل هو جـــاد • وهل بمقدوره بعد ان يعتمد على هذه العاطفة المقدسة ، ويطأ هذا الفردوس المفقود ام انه يهـــذي ؟ ان الشيطان الذي يستعبد روحه سرعان ما يصرخ في وجهــــه : ستبقى مــن اتباعي • لن تتمكن ابدا من استرجاع طهارتك المدنســـة ، والالتحاق بذلك الجانب الملائكي من كيانك ، والتفلت مــن اساري • فعبثا ما تخدر نفسك بهذه الاوهام الباطلة • لا امل لك بالخلاص ، وستنزل الى القبر مثقلا بكل شهواتك البهيمية، وانانيتك ، ورذائلك ، وخطاياك • لقد اخذ رامبو بما فيـــه الكفاية من جرعات هذه السموم • وهو يستعطف الشيطـان ويرجوه ان يترأف بحاله ويدعه يتنفس قليلا ، ويمن عليه بهدنة قصيرة يعود بعدها الى وضع النير على رقبته ، وتحمل كل الآلام التي تكون قد استحقت عليه اثناء هذه الاجـازة الخاطفة التي منحه اياها جلاده •

وها هو رامبو في « فصل في الجحيم » ايضا ، يعلن انــه كان محظوظا فيما مضى ، وانه عرف طفولة سعيدة بطولية جديرة بأن تروى اسطورتها في الكتب • لكنها لا تدوم طويلا للاسف ، وسرعان ما تتبدد كالوهم المسحور ، ومن السخافة اذن ان نعول عليها • وهو يتحسر على عهدها ، وعلى ايام

التشرد على الطرقات الكبيرة في كل الفصول ، عفيفا، طاهرا، متجردا من كل امور هذه الدنيا ، متخففا من كل اعبائها ، حرا ، خلي البال ، اكثر املاقا من افقر الشحاذين ، فخورا بانه لا ينتمي الى اي وطن ، ولا يملك اي بيت ولا يرتبط بأية صداقات او اية علائق عائلية او اجتماعية · فاية جريمة اقترفها ، واية اخطاء فادحة ارتكبها كي يستحق هذا الانحلال والانحطاط الذي وصل اليه حاليا ؟ ولرب قائل على سبيل التعزية بأن العذاب هو قسمة جميع المخلوقات : المرضى يتوجعون ويأسون · هناك اناس يموتون كل يوم · وحتى الحيوانات المفترض انها مجردة من الاحساس لا تنفك ترسل عويل الالم · نعم · ولكن هناك سببا ظاهرا بالنسبة لشقاء كل هؤلاء البائسين · بينما لا ينجح هو في العثور على علة لدائه ، وتبرير لمأساته ، وتفسير لسقوطه المريع ، وانهياره الداخلي ، وشلله الروحي · لا انه عاجز عن شرح وتسويغ الكابوس الذي يعاني منه · جل ما يستطيعه هو ان يهمهم بعض عبارات ، ان يئن ويتأوه كشحاذ جالس على قارعة الرصيف يستجدي ويتشكى ويستعطف بنغمة رتيبة وكلمات آلية ·

نعم ان رامبو لا يني يتحسر على فجر العمر الطاهر · فهو في قصيدة « صبا ــ ٢ » من « الاشراقات » يعترف بأنه انسان عادي ، ليس في تكوينه ثمة ما هو خارق للطبيعة · لكن بمجرد كونه طفلا فان جسده هو اشبه بثمرة شهية معلقة في بستان · يا لايام الطفولة السعيدة حين كان يشعر المرء

بنفسه كنزا برسم العطاء والاغداق من خيراته على الآخرين ، حين كان يملك طاقة هائلة على الحب ، والوجد في ذروة ما يصل اليه من زخم وتطرف في طلب المستحيل ، وروح المجازفة والمغامرة ، وما يثيره من اوهام جميلة واحلام عذبة · حين كانت الارض خصبة بالعطاء ، مليئة بالوجود ، غنية بالسحر ، زاخرة بالجمال سكانها امراء إسطوريون وفنانون عباقرة حين كان الدم الوحشي يضج في العروق التي تنبض بالقوة الفتية والحماس المتفجر حين كان الحظ يبتسم لنا ، وكانت الحياة مغامرة مثيرة · اما بعد خروج الفرد من مرحلة الطفولة فانه يصبح انسان التحسبات والحذر ، والمجهود والعذاب ، انسان الكد والتعب من اجل المحافظة على البقاء ، والصراع من اجل الوجود ، وانتشال اللقمة من فم الاسد ، والصراخ بصوت عال للمطالبة بحقوقه وسط غابة الذئاب المفترسة التي تنافسه عليها · انسان السعي المضطرب المحموم الذي لا مفر له منه ، والذي يقتضي منه المكر والدهاء وسرعة التكيف مع الظروف فالحاجة ام الاختراع ، والتكالب على النجاح ، والخضوع للعقد الجماعي ، والايمان بتقاليد الناس ، واعرافهم التي تحتمها قوانين المحافظة على الذات ، والتي تفترض التعاون بين كل طبقات الشعب وبنفس الوقت تجاهل كل هذه الفئات لبعضها، التعاون من اجل تسيير الامور المعيشية وبنفس الوقت الانانية والفردية المطلقة · فالحياة العصرية التي هي جماعية في اساسها هي الوحدة والوحشة بعينها ، والعالم الحديث الذي

يستيقظ عليه رامبو بعد خروجه من فردوس الغفلة والبراءة هو عالم « بدون صور » وبالتالي مضجر ، رتيب ، وخال من المعنى والجدة والطرافة والجمال ، يعتمد على القوة والدأب المسعور من اجل تحقيق المآرب الشخصية ، والتنازع على البقاء ومجموعة من الطاقات والصفات ، لم يكن بحاجة اليها قبل بلوغ سن الرشد ٠

الطفولة هي الفترة المعبودة من العمر (هذا ما يقوله لنا رامبو في قصيدة « طفولة ــ ١ » من « الاشراقات ») انها موسم الدهشة والفضول ، انها الماضي السعيد والجنة التي نفينا منها ٠ انها عهد الحرية والنبل والجلال ، وواقع الفطرة والطيبة ٠ انها تجري في اطار خرافي اسطوري ، وتستوعب كل جمالات الكون من اقصى الجنوب الى اقصى الشمال ، وتقدر ما يحتوي عليه من عجائب وغرائب ٠ ان اطارها هو خضرة الحقول الصارخة، وزرقة الآفاق المدهشة٠ ان دنياها هي مملكة الخيال والاحلام والمغامرة ٠ ان ايامها هي ورود الحلم التي تتبرعم ، تتفتق ، وتتضوع على حافة غابة المجهول حيث يتراءى لنا كل طيف حسناء ساحرة تتعرى في البراري في جو عابق بالفتون والسر والغرابة ٠ ان الطفل يستخرج مادة لاحلامه ومنطلقا لخياله من كل النساء اللواتي يقع عليهن نظره فيكبرهن الى اضخم الاحجام ، او يصغرهن الى اصغر قياس لانه عدسة متطرفة تحيل الاشكال الى عمالقة او اقزام ولا تعرف الحلول الوسط ٠ ان هذه الحوريات تتراءى له رائعة جليلة مهيبة كجواهر كريمة منثورة

في الحدائق المعلقة ، وتغدق عليه كل ما يحتاج اليه من العطف والحنان كامهات شابات وشقيقات كبريات · ان نظرة واحدة من عيونهن تكفيه كي يحج الى بلاد غريبة وقارات بعيدة ويسافر على اجنحة الخيال · انهن اميرات سائرات بخطى ملكية وذات سلطان ، والغاز مثيرة ، وشخصيات يشوبها مسحة من الحزن الحنون يتصور الطفل انه المنقذ الذي ارسلته الاقدار لتخليصهن من الكآبة ·

وهو ذا رامبو ايضا في قصيدة « طفولة ــ ٢ » يتذكر طفولته تلك الحبيبة الصغيرة الميتة التي يلوح له طيفها من خلف خمائل الزهر· تلك الام الصبية الرؤوم العزيزة الراحلة التي نزل شبحها الدرج · وانه ليكاد يسمع صرير عجلات عربة اليفة فوق الرمال · ويتمثل صورة اخيه (الذي هو حاليا مهاجر الى بلاد بعيدة) واقفا ساعة الغروب في مرج الزهور · ويحن الى هذا الشقيق الاثير الغائب · ويرى عجائز العائلة الذين كانوا يدفنونهم في المقبرة المحاطة بالورود · ويمر امام ناظريه شريط من الذكريات : اوراق الخريف الذهبية التي تحيط بمنزل الجنرال المهجور الذي نزح هو وعائلته الى الجنوب بعد انتهاء موسم الاصطياف ــ الدرب المتوهجة بتربتها الحمراء والمفضية الى الحانة المغلقة ــ القصر المصوح الارجاء الذي يبدو بدرفات شبابيكه المقتلعة وكأنه برسم البيع ــ الكنيسة المقفلة التي اخذ الخوري مفتاحها واختفى ــ الاكشاك التي يقعد فيها الحراس لم تعد مسكونة في الحديقة العامة التي رفعت حواجزها عاليا لدرجة

انه ليس بالمستطاع بعد رؤية شيء فيها سوى قمم الاشجار المرتفعة · على كل حال لم يبق هناك ثمة ما يستحق المشاهدة – الوحدة المطلقة تسود وسط جو من الهـــدوء والصمت لا يتردد فيه صياح ديك ، ولا يترجع صدى مطرقة على سندان : لقد بدأ فصل المطر وموســـم الطواحين · وكان ثمة ورود عجيبة تزهر في ذلك العهد المبارك من العمر · وكانت الطبيعة الرحيمة تهدهد قلب الطفل وتحنو عليه · وكان ثمة حيوانات مسحورة ذات جمال خرافي واناقة اسطورية تتجول حوله · حتى الغيوم وهي تتجمع فوق البحر كانت حنونة مؤثـــرة وكأنها دموع دافئة ·

اما في قصيدة « طفولة – ٣ » فان رامبو يتذكر ذلك العصر الذهبي الاول ، حين كانت ساعة العمر متوقفة وكان الزمان هو الابدية · يتذكر الغابة التي كان يسرح فيها ، صبيـا ، حيث كانت تستوقفه زقزقة عصفور تجعله يحمر ، موقظة في قلبه البكر اعذب الشهوات والرغبات · في ذلك العهد الميمون كانت حتى الحشرات التي تدب في شقوق الارض تبدو لــه حيوانات مسحورة ، وكان اقل مشهد يثير خياله ودهشته : كنيسة عند اسفل المنحدر – بحيرة عند طلعة التل – عربـة صغيرة متروكة في الدغل ، او هابطة نزلة الدرب راكضة وسط عاصفة من الغبار – فرقة من المهرجين الصغار بلباس التمثيل يلمحهم صدفة على الطريق من خلال سياج الغابة – فاذا ما حاول ان يسرق ثمرة لياكلها من احد البساتين اشباعا لجوعه ، او ان يتلصص على اسرار الاخرين ، عله يكشف ،

ارواء لفضوله وشهواته المتعطشة ، عن فضيحة او منظر مثير ما ، فانه كان يخرج له ثمة من يزجره ويطرده بعيدا ٠

ثم يصف لنا رامبو نفسه في قصيدة « طفولة ــ ٤ » وقد وصل الان الى عمر الهدوء والتعقل والرصانة ، ومرحلة الاتزان والاستقرار ، وبلغ سن الرشــد ، الــذي يعني الجد والعمــل والمثابرة وتحمــل المسؤولية والاتكال على النفس ٠ انه يسير الان وحده على درب الحياة الشاق الطويــل دون حماية او مساعدة احد ، دون اي حراسة او ملجأ اميــن يستطيع الركون اليه عند الشدائد ٠ لقد بات يشعر بعبء السنين ، ومرور الزمن ، والتقدم في السن مع كل خطــوة يخطوها ٠ وها هو يتأمل الان بأسى وحسرة شمس الطفولة التي هي زهرة العمر وجوهرته تغرد بوحشة وتتوارى بكآبة٠ انه اشبه بمنبوذ صغير مهجور على الشاطىء ، يمد يــده بتوسل وتضرع نحو السفينة المقلعة في البحر ، والتي ترفض ان تأخذه معها ، لان ركابها هم من الكبار الراشدين الاقوياء٠ بينما هو ، لئن بلغ طور الرجال فانه لا يزال طفلاً في تكوينه الجسدي والنفسي ٠ انه في حيرة من امره لا يستطيع البقاء على ارض الطفولة لانها زالت ، ولا يستطيع التعلق بمركب الرجولة والنضج المبحر امامه ٠ ومن هنا عدم تلاؤمه مــع الحياة ، واستحالة تكيفه مع ظروفها ٠ انه عبد ضعيف عاجز عن تحقيق اهدافه وآماله وطموحه كما يفعل السادة الاشداء٠ الدرب امامه وعرة مزروعة بالاشواك ٠ هواء العالم خانق تعجز رئته العليلة عن تنشقه ٠ انه لم يعد يسمع زقزقـــة

العصافير السكرى ، ولا خرير الينابيع العذب · لقد اصبحت بلاد الطفولة السعيدة البريئة نائية جدا ، تبعدنا عنها كل خطوة نخطوها على درب العمر ، وتقربنا من منطقة الشقاء والبشاعة :

ـ « ··· هذا لا يستطيع الا ان يكون نهاية العالم ونحن نتقدم ··· »

واخيرا نجد رامبو في قصيدة « طفولة ـ ٥ » يعبر عن ارادته في ان يموت عن اعراض هذه الدنيا الفانية ويتطهر من كل ادرانها · انه يبغي ملجأ امينا كرحم الام يختبىء وينعزل فيه ، ويحتمي داخله من شرور الحياة · انه يتوق الى حفرة عميقة عميقة في الارض تخفيه وتبقيه بعيدا عن هذه السخافة والابتذال والسطحية والتفاهة التي لا يرى حوله سواها · انه يود الهرب من اذى الاخرين وازعاجاتهم المتواصلة ، من الهموم المتشكلة حول راسه ، من محيط القذارة ، وروح الاجرام ، وجو الشؤم الحالك الذي يخيم عليه في هذه المدينة اللاانسانية ، الظالمة ، المتوحشة التي لا ينتهي ليلها ابدا ، وكل ضراوة هذا الواقع المثير للقرف والاشمئزاز ، الذي يحلم باختراق جداره واحراقه وتدميره ، واللجوء الى عالم الوهم والخرافة والمغامرة ، والتحرر من ايقاع الزمان البطيء · وهكذا هو دائما في لحظات الالم والمرارة يحلو له ان يتخيل كرة مسحورة وسميكة من المعدن يفزع اليها ، ويدفن نفسه في احشائها · انه يملك موهبة فذة في الانسحاب من

العالم ، وقدرة هائلة على الانفصال عن الارض التي ليس هو من سكانها اصلا ، انه :

ـ « ··· سيد الصمت ··· »

لكن رغم ذلك،ورغم طبيعته الشاعرية الحالمة،فان الواقع سرعان ما كان ينفذ اليه باحداثه شقا او ثقبا في هذه الكرة الوهمية التي لجأ اليها ·

وفي طفولة رامبو كانت امه فخورة به ، راضية عن اجتهاده وقيامه بواجباته على اكمل وجه·لكنها لم تكن ترى من خلال صفاء عيونه الزرقاء ، ووراء جبينه البارز ، تلك النقمة الداخلية ، والثورة المعتملة في صدره ، والبغض والاحتقار لكل ذلك الواقع المزيف المفروض عليه · لقد كان مثالا للطاعة والذكاء المبكر · لكن سلوكه المثالي كان مبنيا على الخبث والرياء · وكان في قرارة نفسه يسخر من كل هذا الجو البيتي العفن ويزدريه ، ويفجر غضبه المكبوت وتمرده العاجز بين جدران عزلته · وكان احيانا يغلق على نفسه باب المرحاض ويبقى حابسا نفسه هناك لمدة طويلة ، يفكر بعناد ، وحيدا ، مغلوبا على امره ، مستمتعا بشيء من الحرية والهدوء · ولقد كان يحب في الشتاء ان يتأمل حديقة بيتهم الصغيرة الغارقة في الوحل تصفر الريح في عرائشها المترمدة · وكان يشفق على هؤلاء الاطفال البؤســـاء الضامرين ، الذابلين ، المرتدين ملابسهم المنتنة الرثة ، المهلهلة الرقيقة التي لا تقيهم غائلة البرد ، الخجلين باظافرهم القذرة الصفراء والسوداء

من لطخات الطين ، المتحدثين بنعومة وذل الاغبياء . مع هؤلاء الفقراء المساكين فقط كان رامبو يتعاطف . لكن عندما كانت تفاجئه امه وهو يتحدث او يلعب معهم ، او يقدم لهم شيئا ، فانها كانت ترتاع وتزجره وتنهاه عن هذا الامر . فكان يكذب ويتظاهر بانه اخذ بحججها واقتنع بمبادئها ، وانه لن يعود الى التعاطي مع هؤلاء الساقطين في عرفها من حقوقهم الطبيعية والانسانية . وفي سن السابعة بدأ ينسج في فكره القصص والاساطير العجيبة حول حياة الصحراء الكبرى المسحورة حيث الحرية المطلقة ، حول الغابات والشموس والادغال البكر ، مستعينا لذلك بالمجلات المصورة التي كانت تقع تحت يده ، فيتأمل فيها ، مبهورا ، نساء اسبانيات وايطاليات يضحكن ويثرن في قلبه الشهوة والاحلام (تقول ايزابيل في احدى رسائلها مصداقا لما ورد في قصيدة رامبو « شعراء السابعة من العمر » ان شقيقها ارتو ، قبل ان يبلغ العاشرة من السن ، كان يسليهم طوال السهرات وهو يقرأ عليهم ما كتبه حول رحلات مدهشة قام بها نحو بلاد غريبة وسط الصحارى والبحار وعبر الجبال والانهار) .

ولقد استيقظت شهوانيته في وقت مبكر عندما دخلت بنت الجيران الصغيرة الشيطانة المتوحشة ، وقفزت على ظهره ، فعض لها ساقيها العاريتين . وكان يكره ايام الآحاد الشتائية الكالحة ، حين كان يجلس بثيابه الجديدة ممشطا مهندما ويروح يقرأ التوراة العائلية الغبراء . فلقد كانت

تمضه بعض الافكار ، وتراوده بعض الشكوك السوداء : لم يكن يحب الله بل الرجال الكادحين ، العائدين الى بيوتهم عند المساء محطمين ، متعبين من السعي وراء لقمتهم المغمسة بالدم · وكان يبحر على امواج الخيال منزويا في غرفتـــه العالية ، مغلقـا شبابيكه عـلى ضجة الحي التـي تتناهى اليــه من تحت برج صومعته ، ويقلع في مركب احلامه نحـو السهول الزاهية حيث تنبـــع السعادة والحب ، وتتعانق الاغصان ، ويفوح اريج الازهار ، نحو السماوات العميقـة المجهولة ، ونحو الغابات الخصبة بالورود العجيبة والاشجار النادرة ·

ولقد طلب ، ذات مرة ، من امه ان تشتري له معزفا يتعلم عليه الموسيقى ، فرفضت عن بخل واقتصاد · فما كان منه بعد خروجها سوى ان اعمل نجارة في طاولة موضوعة في غرفة الطعام بغية تحويلها الى بيـانو · وعندما عـادت والدته وثارت ثائرتها لما لحق قطعة الاثاث من اضرار، هددها بأنــه سيفعـل الشيء نفســه مع باقي عفش البيت ما لم تحقق رغبته ·

وان رامبو ليتذكر نهر « آل ميز »(La Meuse) التي جرت « طفولته » على ضفافه · حيث سكنت عائلته عام ١٨٦٤ في بيت على رصيف المادلين · يتذكر ماءه الصافية كدموع البراءة ، واجساد نساء عاريات تلتمع في الشمس بوهـج الحرير ، شفافة كرفيف اجنحة الملائكة وشمائل من الزنبق الطاهرة ، او ذؤابات وبيارق تخفق تحت اسوار يدافع عنها

الابطال • وبتياره الذهبي الـــذي يندفع محـــركا ذراعيه السوداوين الثقيلتين ، النديتين بالعشب وتنعكس السمـــاء على صفحته وتنسدل عليه ستائر الظل من الهضبة وقنطرة الجسر • انه ليتذكر النزهة العائلية التي كانوا يقومون بها الى النهر في عز الظهيرة : شقيقاته بفساتينهن الخضـــراء الحائلة اللون ــ والدته الزوجة المخلصة الغيورة المنتصبة بعنفوان واباء في المرج المجاور للنهر حاملة مظلة تقيها من الشمس تمعس بها الزهور بين رجليها ، وتحرس اولادهـــا الذين يقرأون متمددين على العشب الاخضر ملاحقة زوجها الذي يهرب منها ويبتعد عـــن عائلته ، متأسفة ، متحسرة لرحيله ، باكية لحظات السعادة الزوجية التي عرفتها بيـــن ذراعيه كانسان مهجور منبوذ يبكي تحت اسوار المدينة التي اغلقت ابوابها دونه • اذ من المعروف ان الكبتن رامبو هجر منزل الزوجية نهائيا حين كان ابنه الشاعر في السادسة من عمره • اما بالنسبة لأرتور فان الاثر الوحيد الذي تخلفه في نفسه هذه النزهة التقليدية فهو ذكرى لحظة مـــن البلادة والشقاء هي اشبه بحلم كئيب يلازمه اثناءها الشعور بالتفاهة والعجز عـــن القيـــام باي عمل ، لان كل المنافذ مسدودة في وجهه ، ولان كل ما حوله قبيح لا يترك مذاقه في الفم سوى طعم الرماد ، الشعور بانه آسن في مستنقع ، وانه قارب جامد يتخبط في الوحل دون ان يتمكن من التقدم بوصة واحدة •

ان شعر رامبو حافل بالكثير مـــن تلك الاشياء التي رافقت حداثته الاولى • فهو يصور في احدى قصائده خزانة

السفرة العائلية الواسعة القديمة جدا ، المصنوعة من خشب السنديان الغامق المحفور ، الشبيهة بعجائز طاعنين فن السن، المحدثة ازيزا حادا عندما تفتح ابوابها الكبيرة الســوداء ، وعندئذ تفح منها روائح عابقة بالذكريات كفيض من النبيذ المعتق · انها مملوءة باغراض اكل الدهر عليها وشرب : ملابس جوانية عتيقة عطنة ، خرق نساء او اطفال ، قطع من المخرمات المتآكلة ، ثياب جدة بطل زيها ، ايقونات صدئة ، خصلات شعر شائبة احتفظ بها ذكرى من عزيزة عجوز راحلة، او شقراء بقيت ذخرا من طفولة ولد حبيب ، صور عائلية ، ورود مجففة يمتزج عبيرها بفوح الفاكهة · ان هذه الخزانة زاخرة بالذكريات والقصص · ان كل تاريخ العائلة يظـل منقوشا على جنباتها ، وهي تواقة دائمـــا الــى ان تروي حكاياتها ، عندها دائما ثمة ما تقوله لافراد الاسرة عــن ماضيهم ·

كما ان رامبو يحب ان يصف الكثير من الامور الاخرى المتعلقة بمسقط راسه شارلفيل ، ككنيسة القرية مثلا ، التي ينشد فيها اولاد الجوقة باشراف الكاهن ، وتنعكس الشمس على زجاجها الملون ، ويتضوع من حجارتها عبير الوطن الام وتراب المنبت الاصلي، ويحيط بها الريف حيث يتكوم الحصى، وتموج حقول القمح ، وتتعرج الدروب الفخارية ، وتهتـز شجيرات التوت وخمائل الورد · ان هذه الكنيسة يتم طرشها وترميمها كل مئة سنة ، ويفح حول شموعها الذباب متضوعا برائحة الحانات والاسطبلات ، حائما حول صور القديسين ،

ويؤم دربها الصبايا سعيدات اذا تحرش بهن الشباب ، الذين يتمخطرون ويتغاوون بعد القداس ، هم المؤهلون والمرشحون لان يرتدوا في المستقبل ثوب الجندية الانيق · ثم يستقر بهم المطاف في المقهى ، حيث يروحون يغنون بمـــرح وصخب · وان الخوري ليرغب في الانضمام الى حلقات الرقص المعقودة في البعيد ، حين يسمع اصداءها القصية تتناهى اليـه في عزلتـــه · وان الفقراء ليتوافدون الى الكنيسة وينصتون خاشعين الى تراتيل الجوقة ، سعداء متناسين همومهم ، اذلاء مهانين ككلاب مضروبة ، وكقطع من الخبـز اليابس تمتص عبق البخور ، وذوب الشموع · ترتاح النساء على المقاعد بعد ستة ايام من العمل المضني ، مهدهدات اطفالهن الذين يملأون المكان بالعويل والصراخ ، مخرجات نهودهن لترضيع فلذات اكبادهن ، ناظرات بذهول ، بعيون خاشعـة وشفـاه جامدة لا تتمتم اية صلاة · بينما تهمدر مجموعة من العجائز ترتعش بلغماتهم ، يدمدمون ، يوشوشون، يتنهدون، ويقرعون الصدور · وهناك ايضا كل اؤلئك الممسوسين المصابين بداء الصرع ، الذين كان المرء ينفر منهم ويدير وجهه عنهم عندما كان يقابلهم في الازقة والطرقات وكل العميان الذين تهديهم الكلاب الى سواء السبيل وتقود خطاهم المتعثرة ، يزجون انوفهم دون جدوى في كتب الصلاة · وفي الخارج لا ينتظر هؤلاء المصلين سوى الليل والبرد والجوع والظلم ، وهـم يستمرئون الجلوس آمنين في الكنيسة ، ليعودوا بعد قليل الى حمل اعبائهم المعتادة · والمسيح يصغي عن صليبه الى كل

هذه التضرعات الذليلة والغبية ، بمعزل عن الجميع ، بعيدا عن زنخة اللحم ، وعطن الثياب ، والابتهالات ونوبات التقوى والورع · في هذه الاثناء تدخل بعض السيدات الغنيات من الطبقة الراقية في شارلفيل بثياب حريرية ، وابتسامات صفراوية ووجوه من هم مصابون بداء الكبد ، ويغمسن اصابعهن الطويلة الشاحبة في جرن الماء المقدس ·

وهكذا نرى ان رامبو يلذ له دائما ان يصور نماذج من سكان بلدته ، وخاصة في قصائده الاولى · فها هو في احداها يتعاطف مع خمسة اطفال فقراء في يوم ضبابي مثلج يتأملون من شق الباب الخباز وهو يضع الرغيف الابيض الشهي في الفرن ، مبتسما ، مغنيا بمرح ، ويبقون مسمرين هنا ، يستدفئون قليلا بوهج النار حتى اذا ما خرجت الارغفة الشهية المسيلة للعاب ، المتضوعة بالاريج العذب ، من الاتون، استشعروا نشوة كبيرة وخفقت قلوبهم بشدة تحت اسمالهم المرتعشة في زمهرير الشتاء ، وراحوا ينظرون الى فوهة الفرن وهي تقذف الحياة الى الخارج ، واضعين انوفهم المحمرة بين شقوق الحاجز الخشبي ، مهمدرين في سرهم ، مدمدمين فيما بينهم وكأنهم يركعون للصلاة خشوعا للرغيف· او يحلو له في قصيدة اخرى ان يصف البورجوازيين وهم يتنزهون في اماسي الخميس بقيافتهم المعهودة وهيأتهم الغبية في ساحة شارلفيل وجادتها الرئيسية المحاطة بالعشب والازهار · بينما تتمركز فرقة الموسيقى العسكرية في الحديقة العامة وتعزف الحانها المألوفة التي يصغي اليها كاتب العدل ،

والملاكون العقاريون ، وموظفون وكتبة ممتلئو الاجسام ، يجرون معهم زوجاتهم الحاملات وبناتهم اللابسات ازهى الفساتين ، وسمانون متقاعدون ينكثون التراب بعصاهم العاجية ، ويتباحثون فيما بينهم ، ومدخن غليون ، ومراهقون مستلقون على العشب يضحكون ويصخبون ، يبث صدى الطبول الحب في قلوبهم ، والدم في عروقهم ، فيداعبون ، واضعين وردة بين اسنانهم ، الاطفال تملقا وتقربا من الخادمات · وفي مثل هذه الاماسي كان رامبو يتنزه احيانا بثيابه المهملة الفوضوية ويلاحق الصبايا الرشيقات المتنزهات تحت اشجار الكستناء الخضراء ، المدركات انه يطاردهن ، المتلفتات نحوه بعيون مليئة بالاغراء، راغبة البوح بأسرارها · انه لم يكن ليقول شيئا بل كان يكتفي بالنظر الى هذه الاعناق البيضاء الشهية ، التي تتبعثر فوقها خصلات الشعر ويتغلغل بالفكر تحت الصدرية ، وعلى الظهر المرمري والزنود الصلبة وفي كل مكامن من الفتنة · وسرعان ما كان يعريهن بالخيال ، ويخلع من ارجلهن الجوارب والحذاء ويروح يبني في احلامه تمثالا اباحيا لاجسادهن البديعة تتحرقه حمى داخلية لذيذة · وكان منظره الغريب المضحك يسترعي انتباه الفتيات فيتوشوشن عليه بصوت خافت فيما تكون رغباته الوحشية تتعلق على شفاههن تمتص عنها الشهد بالوهم · واحيانا كان هو الفتى ابن السابعة عشرة يتجرع بعض كؤوس من الجعة او الليموناضة في المقاهي الصاخبة المشعشعة بالانوار ، ويمضي تحت اشجار النزهة التي يتضوع اريجها العذب في امسيات حزيران الطرية ، حين يحمل الهواء المرء على

اغماض عيونه لتنشق نسائمه الهادئة ، المضمخة بشذا الكروم وعبير الكحول ، الحاملة على اجنحتها الرقيقة ضجة البلدة المتناهية من بعيد · فاذا ما رأى رامبو من خلال انفراجة بعض الاغصان قطعة من السماء مرصعة بالنجوم سكر بالعطر الزكي المنبعث من الاعشاب ونسغ الاشجار ، وداخ من النشوة شاعرا ان هناك قبلة ترتعش على شفاهه ، واذا ما لمح صبية صغيرة تمر في الشارع تحت ضوء المصباح الشاحب برفقة والدها وتجود عليه بلفتة رحيمة ، خفق قلبه بشدة وطار حماسا ، ووقع في غرام المارة الحسناء، ورهن قلبه عندها حتى نهاية شهر آب ، وراح يكتب لها القصائد ويتغزل بجمالها ، حتى ليشمت به اصدقاؤه ، وتهزأ به فتاته المعبودة التي تقرر اخيرا ان تكتب له رسالة ذات مساء فيفقد صوابه من شدة الفرح ، ويدخل المقاهي كقائد منتصر يطلب كؤوس الشراب ·

وها رامبو في قصيدة ثالثة يصور رجال الجمرك ، الذين كان يصادفهم على الحدود البلجيكية المتاخمة لمنطقة الآردين اثناء هروباته سيرا على الاقدام ، ونزهاته هو وصديقه ارنست دلاهاي لشراء بعض التبغ الرخيص من قرية بلجيكية قريبة ، والذين يضعون الغليون بين اسنانهم ، والعصا في يدهم ، ويزرعون الحدود بروح من المسؤولية والرصانة والعمق لا تعرف الضجر ولا الكلل · ولدى حلول المساء يربطون كلابهم وينصرفون الى سهرتهم المرحة · لكنهم يرتدون قناع الجد والوقار عندما يتحدثون مع الشباب ، ولا يرحمون

مخالفي النظام الذين يقعون تحت قبضتهم القوية ·

لقد عرف رامبو لذة الجلوس، مساء ، عند حلاق بلدته، ملقيا رأسه باطمئنان بين يديه محتسيا كأسا مـــن الجعة ، مدخنا غيلونه ، مستسلما للاحلام التي يضطر الى كبتها على مضض ، والعودة الى بيته في هدوء العشية · لكنه لم يحب قط حياة الرتابة والدعة والاستكانة · فهو يكتب قصيدة يهجو فيها موظفي المكتبة ، الذين كان يراهم في مسقط رأسه ، ويجسد من خلال وصفه لهم كل بغضه لبلادة الوظيفة · لقد كان رامبو المشاء الذي لا يكل ، والقارىء النهم ، يدخل مكتبة شارلفيل ، ويطلب بعض الكتب الغريبة من هؤلاء الموظفيـن الكسولين شبه المشلولين على كراسيهم · فكانوا يتضايقون لاضطرارهم الى النهوض لتلبية طلبات هذا المراهق الصغير، الذي كانوا يتأففون منه او يسدون اليه بعض النصائح حول الكتب الواجب قراءتها ، فانتقم منهم بقصيدة مقذعة عنوانها « القاعدون » يصورهم فيها على الشكل التالي : عيون سوداء كاحداق ذئاب بردانة محاطة بهالة خضراء ـ اصابع متيبسة ملتصقة بأفخاذهم ـ امزجة سوداوية ـ اجساد مشـــلولة مسمرة ليل نهار على الكراسي التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيانهم ، لا يفارقونها لا في الصيف حين يدفئون اجسامهم المهترئة في الشمس ، ولا في الشتاء حين يتأملون الثلـــج من خلف النافذة مرتعشين بألم كالضفادع ، حتى لقد تكيفت قلبا وقالبا مع شكل ابدانهم بقشها المتضوع تحت اشعة النهار برائحة اعواد الذرة ، واصبحت رفيقة بحالهم رحيمة بهم ،

غالبا ما يتقوقعون فيها ، مدمدمين بعض اغان حزينة من العهد الغابر السعيد ، وبعض اناشيد حب من عصر الشباب البعيد· واياك ان ترغم هؤلاء الخاملين على النهوض · انهم اذ ذاك يحاولون الانتصاب على ساقيهم كباخرة يغرق نصفها الاسفل غائصا في اليم ، وينحدر نصفها الاعلى مرتعشا ، مقاوما الوقوع ، ويرغون ويزبدون ، ويهمدرون كقطط مصفوعة · وتتفتح اوداجهم وترتطم صلعاتهم بالجدران ، وتتعثر اقدامهم الملتوية الكليلة ، وتلتمع ازرار ستراتهم كاحداق وحشية تتفرس بالقادم من اعماق الممرات · وانك لترتعب عندما تراهم يمدون لك يدا لم تكن تظنهم يملكونها ، ويجلسون من جديد بعيون مليئة بالضغينة والمرارة ككلاب تلقت الكثير من الضربات ، حتى لتشعر بضيق شديد وتتصبب عرقا باردا وكأنك في اتون خانق، وما ان يستووا في جلساتهم حتىيروحوا يفكرون بحقد بأولئك الذين ارغموهم على الوقوف ، وتروح غددهم ترتجف في اعناقهم من الصباح الى المساء · اما عندما ينامون فانهم لا يحلمون الا بالكراسي المريحة في المكتبة ، وبالمناصب العالية التي يتوقون الى احتلالها ، والترقيات التي يتمنون الحصول عليها · وتتراقص امام ناظريهم الكلمات والحروف التي يقطعون نهارهم في كتابتها برتابة وآلية وبلادة ·

ولقد تنبأ مدير المدرسة لرامبو بأنه لنيكون انسانا عاديا بل سيصبح اما عبقري الشر واما عبقري الخير · بينما كان يرى فيه استاذ اللاتينية تلميذا نجيبا الى اقصى درجة · لكنه

سينتهي نهاية سيئة ٠ ولم يكن يحب الرياضيات فبينما كان زميله في الصف ينهمك بشرح احدى المسائل الهندسية على اللوح الاسود ، كان هو ، ينصرف الى كتابة فروض رفاقه في اللغة اللاتينية ليوزع عليهم قصائد في هذه المادة مختلفة عن بعضها قلبا وقالبا انما حول نفس القضية ٠ وفي عام ١٨٦٩ نظمت مباراة باللغة اللاتينية بين مختلف مدارس الاقليم وكان الموضوع صعبا ٠ وعندما اقترب الناظر من رامبو ووجد انه لم يخط بعد كلمة واحدة على ورقته انتهره قائلا : وانت ايضا لست افضل من رفاقك ٠ وخاف ان يخذله هذا الطالب اللامع الذي عقد عليه الآمال ، والذي ابلغ استاذه بأنه جائع ولذلك فقد كل رغبته في الكتابة ٠ فاذا ما قدموا له كعكة صغيرة واكلها راح يصوغ الابيات بسرعة عجيبة وانهى فرض انشائه قبل الموعد المحدد بكثير ، وقدم مسابقته قبل الاوان وانصرف ٠ ولقد جاء ترتيبه الاول ٠

يقول رامبو في احدى رسائله الى استاذه جورج ازامبار :

ـ « ٠٠٠ ان بلدة مسقط رأسي هي غبية بتفوق بين مدن الريف الصغيرة ٠٠٠ » وانه يضيق ذرعا بالجنود الذين يجوبون طرقاتها ابان النزاع البروسي ـ الفرنسي ، والبقالين المتقاعدين الذين يرتدون البزة العسكرية ويهبون للدفاع عن الوطن المهدد ، وكتاب العدل ، والنجارين ، والحرفيين ، ومعلمي المدرسة الذين يظهرون عواطفهم القومية التي يسخر هو منها :

ـ « ٠٠٠ وطني ينهض ! ٠٠٠ انـــا احـب ان اراه قاعدا ٠٠٠ »

انه يشعر بشارلفيل بالوحشة ، بالمنفى ، بالمرض ، بالغضب بالغباء ، بالتمرد • انه يأمل بحمامات الشمس ، بالنزهات الطويلة ، بالراحة ، بالاسفار ، بالمغامرات ، بحياة التشرد والبوهيمية ، وفي اضعف الايمان في الحصول على بعض الكتب والجرائد • لكن لا شيء من هذا • ان باريس لا ترسل منشورات الى شارلفيل بسبب « الاحداث » الراهنة ، والصحيفة الوحيدة التي يمكنه الوقوع عليها هي « جريدة الآردين » المحلية التي تعبر عن عقلية ونزعات وآراء اهـل منطقته الضيقة المحدودة الافق • انه يموت في هذا الجو الخانق • انه يتحلل رويدا رويدا في هذه الرتابة والتفاهة في هذه البشاعة والظلام • انه يعشق الحرية ولا بد له من الهرب • ولقد راودته الفكرة بأن يبيع ساعته ، ويضع يديه في جيوبه ويرحل •

ولقد سمح ازامبار لرامبو بالمجيء الى غرفته كي يقرأ ما طاب له • لكن التلميذ النجيب سرعان ما يستنفد كـل المصنفات الموجودة عند استاذه • وها هو يوجه له رسالة يعلمه فيها بانه مدين بمبلغ من المال لصاحب مكتبة زوده ببعض المنشورات وبما انه لا يملك مالا يسدد به هذا الدين ، فهو يطلب من مراسله ان يتفضل ويعيد له بعض المجلدات التي جلبها معه ونسيها عنده كي يبيعها ايفاء للمبلغ المترتب في ذمته • كما يتوسل الى ازامبار ان يبعث له بكل تلك الكتب

الرخيصة التي يخجل معلم مدرسة ان يقتنيها علـى رفوف مكتبته كي يبيعها ايضا لتغطية القرض،الذي لو تناهت اخباره الى مسامع والدته لثارت ثائرتها ، ونكدت حياة ابنها المتعطش الى المعرفة ٠

وذات يـوم ، وفيما كانت فيتالي كويف تتنزه مــع اولادهـا في الغابة التي تفصل بين شارلفيل وميزيير ابتعد رامبو فجأة عن اخواته وامه التي سألته : الى اين تمضي ؟ فأجابها : اني ذاهب لآتي بكتاب من البيت ٠ فشيعته آمرة : لاتتأخر ٠ لكن الساعات انقضت وارتور لم يرجع ٠ فراحت الام وبناتها يبحثن عنه في شوارع شارلفيل وميزيير في حالة من القلق لا توصف ٠ ففي ذلك النهار ٢٩ آب ١٨٧٠ كان البروسيون يتقدمون لاحتلال « الاردين » ٠ لكن عبثا ما سأل عنه اهله في الحانات ، ومحطات القطار ، وعلى ضفاف نهر « آل ميز » عبثـا مـا استفسروا عنه جماعـات الشباب الذيـن كانوا يتهافتون على التطوع للحرب ، فان ارتور كان يحقق هربه الاول الى باريس ، بعد ان باع كل كتب الجوائز المدرسية التي فـاز بهـا في نهاية العـام الدراسي ٠ لكنهم اوقفوه في المحطة لانه لا يملك ثمن بطاقة القطار ، لانــه رفض التصريح باسمه وعنوانه ، ولانه يحمل دفترا يسطـر عليه ابياتا من الشعر لم يفهم منها رجال الدرك حرفا واحدا ٠ فاقتادوه الى المخفر ٠ ومن سجن مازاس حيث اعتقلوه كتب رسالة استنجاد الى استاذه ازامبار ، الذي امده بمعونـة مالية كافية لدفـع نفقات السفر ، وآواه عنـده في دواي

(Douai) ، قبل ان يعيده الـــى احضان والدته ، التـــي وجهت صفعتين الى وجه ابنها ، واتهمت الاستاذ بأنه افسد اخلاق تلميذه ، فما كان من ازامبار سوى ان انسحب صافقا الباب وراءه بغضب ، والتي لم يكد ارتور يستقر قربها في ٢٧ ايلول سنة ١٨٧٠ حتى هرب من جديد في ٧ تشرين الاول من نفس العام ، لكن في اتجاه بلجيكا هذه المرة ، حيث كان ينام في الحقول ، او في ظل الطواحين ، يشحذ من القرويين ، او يقاسم المزارعين صحنا من الحساء ، يشم الروائح الزكية المنبعثة من مطابخ شارلروا مساء ، او ينسى جوعه وهو يتأمل جمال القمر • ثم عاد الى قواعده في مطلع تشرين الثاني ، اي في نفس الفترة من الوقت تقريبا التي رجع فيها شقيقه الاكبر ، الذي كان قد سبقه الى الفرار من البيت كي يتطوع في الجيش ، ولم يتمالك الولدان الضالان الماثلان امـــام المحكمة العائلية نفسهما من الضحك ، فـــراح ارتور يمازح فردريك هازئا بمشاعره الوطنية •

وفي ٢٥ شباط عام ١٨٧١ باع رامبو ساعته الفضية ، وسافر مجددا الى باريس ، حيث تشرد خمسة عشر يومـــا تحت المطر دون مأكل ولا مأوى ، حيث تسكع مرتعشا من البرد امام واجهات المكتبات ، التي كان يدخلها احيانا ليسرق بعض كتب لا يملك ثمنها ، سادا رمقه من بقايا الاطعمـــة المطروحة ، صباحا ، على عتبات المنازل • وحيث نام تحت جسور نهر السين او في جوف القوارب المهجورة • ثم عاد في العاشر من آذار الى الآردين سيرا على الاقدام ، عابرا

المزارع التي كان يحاصرها الالمان ، والتي لم يجد احدا من سكانها يقبل بايوائه تحت سقفه ، واخيرا وصل الى البيت وقد تحولت ثيابه الى اسمال ، وتحكمت فيه نوبات حادة من السعال ٠

اما في ٢٦ نيسان فلقد استأنفت المدارس صفوفها ، التي رفض رامبو الالتحاق بها ، متحديا بذلك ارادة والدته واساتذته ٠ ولقد كان زملاؤه الطلبة يشاهدونه من نافذة غرفة الطعام وهو يروح ويجيء مدخنا غليونه ٠ انه لم يكن يقصد تحديهم واستفزازهم ٠ لكن المكتبة تقع في جوارهم وهو ينتظر ميعاد فتحها ٠ ولقد ابدى عن رغبته امام ارنست دلاهاي في ان ياوي الى مغارة يقضي فيها نهاره وينام ليله اذا تعذر سفره الى باريس ٠ كما انه طلب من صديقه الآنف الذكر ان يتعهد بجلب الخبز له يوميا في حال تحقيق مشروع الاعتكاف هذا ، الذي لم يدخل قط حيز التنفيذ ٠ ثم ها هو في ايار من ذلك العام يعجب بفتاة صغيرة ويطلب مقابلتها، حتى اذا جاءت الى الموعد المضروب برفقة خادمتها، ارتبك وتلعثم ، فضحكت منه الحسناء ، وتابعتها ، وتلقت والدته رسالة من والد الصبية ينصحها فيها ان تراقب ابنها وان تولي تربيته مزيدا من العناية ٠

٢ ـ دم فاسد

« الفنان يتجلى في الحالات الاستثنائية ، التي هـي كلها وثيقة الصلة بالظواهر المرضية ، او التي تؤلف معها عنصرا واحدا ، بنوع انه يستحيل على المرء ، فيما يبدو لي ، ان يكون فنانا دون ان يكون مريضا » ٠

نيتشه

في مستهل « فصل في الجحيم » يعلن رامبو انه خلال هذه الهدنة القصيرة التي يمنحه اياها الشيطان ، وبانتظار ان يعود سيده الرجيم الى لسعه بسياطه ، فهو يود ان يكتب الشعر وان يدلي باعترافاته بحرية وصراحة ، دونما خجل او حياء ، دونما مراعاة للحشمة والذوق ، دونما لجوء الى الوصف والاسهاب ٠ فالناشر روسو يكتب ربما الف صفحة لكي يعترف ، ويطلع الناس على دخيلة نفسه ، ويفتح لهـم قلبه كي يقراوا ما نقشته الطبيعة عليه من اسرار ٠ لكـن الشاعر رامبو لا يحتاج الى اكثر من بضع صفحات ليتوصل الى نفس النتيجة وربما بصورة افضل ايضا لان :

ـ « ٠٠٠ اكتشافه ، تاريخ مجيئه الحرائقي ، هـو السرعة ٠٠٠ » ٠

كما يقول عنه رينه شار الذي يستطرد :

ـ « ··· اننا ، في الشعر ، لا نسكن الا المكان الذي نغادره ، لا نخلق الا النتاج الذي ننسلخ عنه ، لا نحصل على الديمومة الا بتدمير الزمان ···» ·

ورامبو لن يتخـذ في اعترافاته اي مـوقف وعظـي اخلاقي ، وسيذيع الحقيقة عن ذاته مهما تنافت مع الفضائل الحميدة والتقاليد المكرسة · سيملك الجرأة في ان يطلعنا بكل اباحية ووقاحة على واقعه الداخلي مهما كان قذرا ومظلما · ولعلنا كلنا قذرون ومظلمون لكننا لا نجرؤ على المجاهـرة بذلك · لكنه هو سيفعل وسيهتك كل الحجب التي نتستر بها عادة ، ليظهر لنا جوهر الانسان الذي كان بكل عريه الباطني·

نعم ان « فصل في الجحيم » هو دراسة تحليلية دقيقة للحالات النفسية التي خبرها رامبو شخصيا ، وسيرة ذاتية مدهشة من بوح روح صادقة ، وقلب حميم يبيح لنا كنوزه الدفينة · انه صورة عن رامبو الانسان في تكوينه الجسدي والنفسي ومغامرته الحياتية ، وشهادة امينة عن نوع المخلوق الآدمي الذي كانه على هذه الارض والنموذج البشري الذي يمثله · كما انه صورة عن رامبو الفنان في تكوينه الفكري والروحي ، وبيان صريح عن نوع الشعر الذي يكتبه ·

ان رامبو في نظر الناقد البير تيبوديه هو اكثر العباقرة غرابة في جميع آداب العالم ، وهو لم يحب ولم يعرف الا نفسه · النشر بالنسبة له يعني الكتابة للآخرين الامر الذي

لم يخطر لهم ببال · وهكذا فان قصائده تلك المناجاة الذاتية التي كتبها للفرقـــة الخاصة ، واستعماله الشخصي دونما تفكير بأي جمهور واي قراء هي اكثر القصائد صدقا وطهرا وخلوا من العهر الفكري ·

قالت ايزابيل رامبو عن اخيها ارتور :

ــ « ··· انه يزدوج ، يتجرد من شخصيته حسب ما يحلو له · لئن اصبح امرأة ، لئن اصبح متعددا ، لئن توزع الى شخص او عدة اشخاص معا ، الى مشهد او عدة مشاهد ، لئن تكلم عن سيدته ، عن شريكته ، عن امرأته ، عن رفيقته ، فانه انما يعني ذاته وذاته وحدها ···»

ان كل فرد يخبىء في داخله مجموعـــة من الانــوات المتمايزة المتناقضة · ليس لاي منا طباع ثابتة محددة المعالم ، وسلوك واحد لا يتغير · ان الانسان يعيش بالفعل اكثر مـــن حياة ، ويتقمص اكثر من دور خلال مراحل عمره ، ويظهر بعدة اقنعة ووجوه · فرب شيطان يتحول الى ملاك بنــوع ان يحيرنا بسلوكه المتعارض مع كل ما نعرفه عنه · وبنوع ان يفاجأ هو نفسه بغرابة تصرفاته ومغايرتها للنمط السابق الذي كان يتبعه ·ورب شخص عهدناه رقيق الشمائل ، كريم الاخلاق ، حلو المعشر يمسخ في عيننا ، على حين غرة ، الى كلب لئيم · بنوع اننا نضطر عندما نخاطب رجلا الى توجيه الكلام الى كل الشخصيات المتباينة المتنوعة التي تلبسها في لحظات مختلفة ومتباعدة من عمره · وبنوع انه يتحتم علينا

اذا اردنا ان نعرف كائنا ما ان نسلط الضوء على كل الحيوات المتفرقة التي عاشها وان لا نكتفي بالوجه الواحد الذي يعرضه امام ناظرينا حاليا . لكأن الانسان يتناسخ من جسد الى جسد طوال حياته فنعجب لانفسنا كيف احببنا فيما مضى مخلوقا كنا نحترمه ونقدره ونستطيب عشرته . بينما يظهر لنا الان خنزيرا تعافه النفس .

بهذا المعنى يمكننا تفسير قصيدة «ورع»في «الاشراقات»: الانسان مكون من عدة شخصيات تموت وتبعث على التوالي على طول مساره الزمني . وهو يتقمص في كل حين واحدا معينا من انواته المختلفة . انه في طقس عاصف بارد ممطر غيره في طقس حار خانق محرق . وان رامبو ليعلم حق العلم انه يحتوي في داخله على عدة انوات . وانه يلعب ادوارا متنوعة على مسرح الحياة ، ويتضمن الكثير من الصفات المتناقضة ، والقابليات المتمايزة . انه يعرف انه رجل وامرأة بنفس الوقت . انه المراهق المتحمس المتهور النزق ، وبذات الحين العجوز المتزن الهادىء الرصين . انه في آن معا الناسك الثابت في نقطة واحدة لا يبرحها ، والرحالة المغامر الذي لا يستقر في مكان . ان في نفسيته شيئا من روح الذل والفقر والمسكنة والقلق على المستقبل وفقدان كل امان ، وفيها ايضا شيء من روح الكبرياء والعنفوان والتسامي والايمان بعلو المقام والاطمئنان الى الغد . انه يعرف ميوله وامزجته واهوائه ونزعاته المتغيرة على هوى اللحظات والظروف والصدف . كما انه يعرف دوافعه الدفينة وطباعه الفطرية

التي تمليها غرائزه العميقة الاصيلة · ان الشخص الذي يبعث فيه مثلا ، في هذا المساء الخاشع الصامت الموحي بالبطولة والعظمة ، هو صاحب قلب قـوي متفائـــل مليء بالدفء والحرارة ، عامر بالسمو الخلقي والطهارة والطيبة · اذن المرء يتغير لاتفه سبب ويخضع لتحولات دائمـــة في شتـى الاتجاهات وبمختلف الاشكال والالوان · ان المرء يتبدل في كل النواحي، وحتى في مواقفه الغيبية ، وربما يتقلب في افكاره الماورائية المطلقة اكثر مما يفعل في سواها من الامور ·

وهكذا يطلعنا رامبو في « فصل في الجحيم » على ان لون عينيه هو ازرق فاتح اسوة بأسلافه الفرنجة القدماء ، الذين يشبههم في محدودية الذهن وقلة البراعة في فن الصراع والقتال · لكن مع انه فوضوي في ملبسه ومأكله ومشربـه واسلوبه في الحياة ، فهو ليس ، على كل حال ، على نفس الدرجة من الوحشية التي كان عليها جدوده الغاليون ، الذين كانوا في زمانهـــم يقتلون الوحوش المفترسة ، ويضرمون الحرائق في الزروع ، والذين ورث عنهم عبادة الاصنام ، وحب المحرمات، وكل العيوب : الغضب ، حب الترف، الكذب، وخاصة الكسل ·

والان ماذا يعني رامبو بعبارة « دم فاسد » التي جعلها عنوانا للقسـم الاول من اعترافاته في « فصل في الجحيم » · انه يقصد بدون شـك انه بذرة عاطلة نبتت في تربة تلــك العائلات المنحلة المنهارة التي تجري القطرات الموبوءة في عروقها · وبالفعل اذا تتبعنا السلالة التي يتحدر منها لوجدنا

انه ينوء تحت عبء وراثة مثقلة بالامراض الخلقية والنفسية ، هذا من ناحية ارومة والده،الكابتن الذي هجر زوجته واولاده دونما رجعة عام ١٨٦٠ ، وانسحب عام ١٨٦٤ ، وهو في الخمسين من العمر ، الى ديجون ، مسقط رأس ابيه الخياط، حيث توفي عام ١٨٧٨ عن اربعة وستين عاما ٠ وان ارتور لن ينسى آخر مشاجرة جرت بين والديه واتيح له مشاهدتها : كان الاب يأخذ وعاء من الفضة موضوعا على خزانة السفرة، ويرميه بغضب على البلاط ، حيث كان يحدث دويا صاخبا ٠ ثم كان يعيـد الاناء الى مكانه ، من حيث كانت تتناوله الام بدورهـا وتقذفه ارضا تعبيرا عـن سخطها هي الاخرى ٠ كما من ناحية ارومة والدته ، التي تنتمي الى عائلة مـن المزارعين الميسورين الذين كونوا ثروتهم من جراء شرائهم املاكا وعقارات من الدولة في عهد الثورة الفرنسية ، ومن هنا قول ابنها الشاعر في « فصل في الجحيم » :

ـ « ٠٠٠ عائلات كعائلتي تدين بكل شيء للاعلان عن حقوق الانسان ٠٠٠ »

التي روجت عام ١٨٦٢ اشاعة انها ارملة لتقطع دابر الالسن ، التي كانت مستبدة متزمتة في تنشئة اولادهـا الاربعة المعهود بهم اليها وحدها بعد تخلي ابيهم عنهم ٠ فلقد كانت تحضر كل نهار احد قداس الساعة الحادية عشرة ، كما يروي عنها شاهد عيان ٠ وكانت تتوجه الى الكنيسة في مسيرة احتفالية : ابنتاها في المقدمة ممسكات بايدي بعضهن، وفي الصف الثاني ولداها اللذان يحمل كل منهما مظلة من

القطن الازرق ، الجميع بقبعات وازياء رسمية لائقة ونظيفة ، وقمصان بيضاء مكوية بعناية ، واحذية كبيرة ، وهي تحفز فريقها كضابط نظامي ، مستقيمة القوام ، مرتدية ملابسها السوداء وقفازيها الوقورين ، والتي تنعتها حفيدتها بأنها امرأة شريرة غالبا ما كانت تخرج ، مساء ، لتنقل علامة الحدود الفاصلة بين اراضيها وحقول جيرانها • وبأنها ردمت، ذات مرة ، نبعة ماء بالحجارة لتحرم بقية القرويين الافادة منها • وبأنها بصقت بين اقدام ولدها فردريك ، الذي كانت ربما على خلاف مالي معه ، وطردت بالمكنسة ابنة له في الخامسة من العمر ، حاول ان يعهد اليها بتربيتها • وهكذا اودعت حفيدتها الدير ، وكانت ترفض مقابلتهن ، معلنة انها لن تجتمع بهن الا امام الله اذا كن جديرات بذلك • وقد بلغ من قساوة الحياة على احداهن ، وسوء معاملة آل رامبو لها ، ان ذهبت الى خوري الرعية ، وتوسلت اليه ان يدبر لها عريسا حتى ولو احدب الظهر ينقذها من ظلم عمتها ايزابيل، التي باتت تعيش في كنفها بعد وفاة جدة كانت في شبابها متصلبة جدا في تربية ولديها فردريك وارتور ، لانها كانت تخشى عليهما ان ينتهيا الى مصير سيء كشقيقيها الفاشلين العاطلين ، اللذين ارتكب اكبرهما جناية غامضة عندما كان في السابعة عشرة من عمره ، فاضطر كي يتخلص من العقوبة الى التطوع في الجيش في الجزائر • ومن هنا انه اصبح معروفا في البلد باسم « الافريقي » • ولقد عاد الى الوطن بعد زواج شقيقته بقليل ، ومات دون ان يخلف وراءه اثرا • بينما كان اصغرهما سكيرا وكسولا ، هجر زوجته التي كان

يسيء معاملتها ، كما انه اهمل ادارة المزرعة التي تسلمها من والده ، فكفت شقيقته يده وتولت عنه الاشراف على املاك العائلة · وقضى عمره متشردا · ولقد كان يظهر من وقت الى آخر في « روش » · واذ كانت شقيقته تتظاهر بأنها لا تعرفه ، وتطلب منـــه ابراز اوراق هويته ، كان يتهددها ، ابتزازا للمال ، باثارة الفضائح · ثم دخل مأوى العجزة في الثانية والثمانين من العمر · ولم تمنعه حيـــاة العربـدة والتسكع التي امضاها ان يعمر حتى الرابعة والتسعين · ولقد رفض وهو على فراش الاحتضار ان يعترف ويتنـــاول القربان المقدس ، واكتفى بأن طلب قنينة من النبيذ الاحمر ظل يعب منها حتى مات ·

لقد كان خـــالا رامبو اذن من الخارجين على القوانين والتقاليـد والاعـراف المرعية بعنف ودون تحفظ · كما ان اسلافه مـن جهة ابيه لم يكونوا مثالا للفضيلة هم ايضا · ولا شقيقه فردريك الذي مرغ شرف الاسرة في الوحل ، حين جار عليه الدهر ، فأصبح بائع جرائد في شوارع شارلفيل ، ثم سائق حافلة ، وسقط بسبب فساده وانحلال اخلاقه ومرض ارادته عن مركزه الاجتماعي ، وانحط عن مستواه الطبقي ، والذي اراد ان يقترن بفتاة من عامة الشعب حملت منـــه سفاحا · فحاولت امه المستحيل دون زواجه ، الذي لم يتمكن من تحقيقه الا بعد ان استصدر امرا من محكمة نانسي ، عندما وضعت امرأته المولود الحرام ، برفع الحظر الـــذي فرضته عليه والدته ، التي كانت ترفض استلام الاغراض التي

كان يحملها اليها الى « روش » ، عندما اصبح موظفا في شركة للنقليات ، والتي اشترطت عليه كي ترضى بالانفاق على تعليم اطفاله ، ان يطلق زوجته عام ١٨٩٥ (مع انه الوحيد بين ابنائها الذي انجب ذرية ، والوحيد الذي يتمتع بصحة جيدة ، اذ انه عمر اكثر من كل اخوته ومات سنة ١٩١١ عن ثمانية وخمسين عاما) · ولقد تشكى في رسالة وجهها في ١٠ كانون الاول سنة ١٨٩١ الى فيليب دارزنز ، ناشر مؤلفات شقيقه ارتور بعد وفاته ، بانه من اسرة كريمة ، فوالده كابتن ، ووالدته غنية تملك ما يقارب الثلاثمئة الف فرنك · لكنه تزوج ضد مشيئة اهله فتاة فقيرة فقاطعوه · حتى انه لم يتلق منذ حوالى عشر سنوات اية اخبار منهم ، ولا من اخيه الشاعر ، الذي كان صديقا عزيزا الى قلبه ، والذي افسدت والدته علاقته به بتأثير الصورة البشعة التي كانت ترسمه بها هو ابنها البكر المقيم في فرنسا في عين شقيقه الاصغر المغترب · وبالفعل يعرب ارتور في خطاب له من عدن مؤرخ في ٧ تشرين الاول سنة ١٨٨٤ عن استيائه الشديد للانباء المكدرة التي تنقلها له رسائل والدته حول فردريك الذي يسيء بمسلكه الشائن ، وزواجه الاحمق الى سمعة العائلة ، وعن خجله بمثل هذا الاخ ، الذي طالما توقع له الفشل ، لانه عرفه دائما غبيا بليد الحس ، والذي يطمئن والدته الى انه لن يرسل له نقودا · فلا داعي لان تحذره بهذا الصدد · فهو يشقى كثيرا في جمع هذا المال في مجاهل افريقيا ، ولن يهدره بالتالي على اخ من هذا النوع يروج عنه

الاشاعات المغرضة في غيابه ، ويفتري عليه بلسانه ، كما تزعم الرسائل الواردة اليه من الوطن ، والتي يرد عليها ارتور بأن سيرته الحسنة هي فوق الشبهات · (فمن عادة العائلات المنهارة التكلم عن بعضهم بالسوء في حضرة الغرباء ونشر غسيلهم القذر امام الناس · ومن طبيعة افراد الاسرة المنحلة ان يشكي كل منهم همه للاخرين ليبرهن لهم انه مظلوم ، وان اهله مخطئون ، انه مثال للفضيلة بينما اخوته على ضلال · وهو مضطر ان يدفع ثمن الاخطاء التي يرتكبونها) ·

اما ايزابيل رامبو ، شقيقة ارتور ، فلطالما صرخت في وجه والدتها المتسلطة العنيدة الصارمة بما فحواه : ان امرأة مثلك لا تحب الاطفال يجب ان لا تتزوج ، وان فعلت فيجب ان يحرمها الله من البنين · لكن هل فيتالي كويف هي حقا علة شقاء اولادها ، ام هم بالعكس سبب بلواها ، كما تزعم هي في احدى رسائلها الى ابنتها ايزابيل ، حيث تصرح بانها لو لم ترزق باطفال كثيرين عذبوها الى هذا الحد لكانت عاشت حياة هنيئة مع زوجها · هل كانت حقا بلا قلب هي التي كتبت في رسالة موجهة الى ابنها ارتور : سعيدون من ليس عندهم اولاد ، او من لا يحبون اولادهم لانهم لا مبالون حيال كل ما يمكن ان يحدث لهم من مكروه ؟ ام ان الامر بكل بساطة هو كما تقول في رسالة ثالثة لها :

ـ « ··· يوجد مخلوقات منذورة لكل انواع العذاب في الحياة : انا واحدة منها ··· » مهما يكن من شيء فان ارتور

قد اخذ الكثير من خصال والدته · الم يقل ميشليه بأن الرجال العظام هم ابناء امهاتهم ·

وهكذا نشأ محروما من العطف والحنان اللذين يصور توقه اليهما في قصيدة « الباحثتان عن القمل » اذ انــــه عندمـــا هرب الى « دواي » (Douai) الى قرب استاذه جورج ازامبار وجد عمتي هذا الاخير بالتبني الانستين « جاندر »(Jindre) اللتين احاطتاه بالرعاية ، واغدقتا عليه من تلـــك العشـــرة المؤنسة والدفء البشري الذي كان بأمس الحاجة اليه · فعبر عن هذه التجربة الحياتية في قصيدته الآنفة الذكر ، حيث يصور لنا نفسه ولدا مضطرب النفس ، مبلبل الخواطر ، قلق الافكار ، يهرب من ضراوة الواقع الى خياله واحلامه التـــي لم تعد قادرة على ارواء عطشه الجنوني الى المطلق ، واشباع جوعه الداخلي الممض المضني ، فتقترب منه شقيقتان كبيرتان ساحرتان :

ـ « بأصابع هشة ذات اظافر فضية ···»

وتجلسانه امام النافذة المفتوحة على الهواء النقي المضمخ بعطر الازهار ، وتغذان اناملهما السحرية المروسة والمخيفـة في شعره الكثيف المبلل بالندى لتفليانه من القمـــل بمعنـــى تحريره من شكوكه المضطربة ، وهمومه واشجانه ، وتنظيفـه من اكداره الباطنة ، وتطهيره من ادرانــه النفسية · وانـــه ليقعد في فيئهما الوارف ،وظل اهدابهما التي ترف في الصمت يصغي الى تنهداتهما الحارة ، ويذوق في جوهما الاليـــف

الحميم طعم السعادة والحب الانساني الذي يفتقر اليه · حتى لتاخذه حاجة الى البكاء حنانا ، والاعفاء بأمان في مرفأ هذه الاحضان الرؤوفة ·

ان رامبو يدرك جيدا انه مخلوق غريب عجيب ليس له مثيل في اي بقعة من الارض ، ولا شبيه في اي فترة من التاريخ · وهو يدعنا نتابع مغامرته الطريفة في الحياة من خلال شعره · فنتساءل مثلا : هل امضى فترة من الوقت في ثكنة حربية اثناء كومونة باريس ، وهل قصيدة « القلب المسروق » هي تعبير عن هذه التجربة ، وعن علاقات جنسية مريبة قد يكون تورط فيها هناك ؟ انه يتحدث فيها عن مزحات الجنود الرعاع الافظاظ التقليدية التي تدور حول الجنس والبذاءة ، ويعرب فيها عن قرفه واشمئزازه من حالة الانحطاط والسوقية التي انحدر اليها من جراء عشرة السوء هذه ، التي لطخت قلبه فاصبح بحاجة الى الاغتسال بماء مطهرة ليستعيد نقاءه وصفاءه الاول ·

ونلاحق اخباره حين عرض عليه صاحبه « برتاني » (Bretagne) ان يقدمه الى بولفرلين ، الذي كان قد تعرف عليه عندما كان يعمل في معمل للسكر يملكه خال هذا الاخير ، الذي اهداه في حينه ، عربونا لصداقته ، المحبرة التي استخدمها في كتابة « قصائد زحلية » · وهكذا بعث رامبو بعضا من قصائده ، مشفوعة برسالة يشرح فيها نزعته الشعرية ، الى فرلين الذي دعاه بحرارة وحماس الى باريس متعهدا بان يتكفل بكل مصاريفه هناك ، مرفقا جوابه الذي

جاء فيه : « تعال ايتها الروح العظيمة العزيزة ، اننا ندعوك، اننا ننتظرك » بمبلغ من المال يكفي لدفع كل تكاليف السفرة ، وهو ثمرة تبرعات مجموعة من الشعراء البارناسيين ٠

ونتابعه عشية سفره الى باريس حين قابل مواطنه ارنست دلاهاي وقرأ عليه قصيدة « المركب السكران » التي حضرها خصيصا ليتلوها على شعراء العاصمة ليقنعهم بمواهبه ٠ وعندما راح صديقه ، وقد سحر بروعة القصيدة ، يبدي حماسه واعجابه الشديد بها ، اجابه رامبو بفخر واعتزاز :

— « ٠٠٠ نعم لم يكتب حتى الان شيء شبيه بها ، اعرف جيدا ٠٠٠ » ٠

لكنه كان يتخوف مما ينتظره في باريس ومن مقابلة شعرائها المتأنقين بسبب خجله وارتباكه في المجتمعات ، وقلة مهارته في التعامل مع الناس ، وسوء هندامه ٠ وقد اضاف مخاطبا رفيقه دلاهاي هذا :

— « ٠٠٠ ان كان بخصوص الفكر فاني لا اخشى احدا، لكن ٠٠٠ ماذا سافعل هناك؟ ٠٠٠ » ٠

اما حين وصل الى العاصمة الفرنسية فان اول سؤال طرحه على الشاعر البارناسي بانفيل هو عما اذا لم يكن قد حان الوقت بعد لالغاء بحر الشعر الاسكندري ٠ ولقد كتبت ماتيلد موتيه تصف الانطباع البكر ، الذي تركته في نفسها مقابلتها الاولى لرامبو حين وصوله الى باريس ، التي

انما قصدها بناء على دعوة من زوجها فرلين :

ـ « ··· كان فتى طويلا وقويا ذا وجه احمر ، فلاحا · كان له هيئة تلميذ صغير نما بسرعة كبيرة ، لان بنطلونه المشقـول كان يكشف عن كلساته القطنية التي حاكتها العناية الامومية· شعر منفوش ، ربطة عنق رثة ، ثياب مهملة · كانت عيونـه زرقاء ، جميلة نوعا ··· » ·

اما فرلين فلقد نعت رامبو ، عند لقائه الاول له ، بانه كان جميلا للغاية ، يتمتع بجاذبية فلاح داهية ، تعلو نبرات لهجته وتنخفض باختلاجات صوت مراهق ، وبأنه :

ـ « ··· كان كبيرا ، متين البنيان ، مفتـول العضـلات تقريبا ، ذا وجه بيضوي تماما كملاك في المنفى ، مع شعـر كستنائي فاتح فوضوي ، وعيون زرقاء باهتـة مثيـرة للاضراب ··· رأس طفل حقيقي مكتنز ونضر ، فوق جسـد عظمي ومرتبك لمراهق لا يزال ينمو بعد ··· » ·

ولقد عرف فرلين محميه رامبو الى الاوساط الادبية فـي عاصمة النور ، وقدمه في عشاء « الرجـال الاشـرار » (Les vilaius Borhnmes) وهو لقاء شهري كان يجتمع فيه بعض من شعراء وفناني ذلك العهد ، يتناقشون ، ويلقون آخر قصائدهم · وقد دهشوا جميعا للنبوغ المبكر الذي برهن عنه امامهم رامبو ، الذي هو « عبقري ينهض » على حـد تعبير احدهم : فالاد ، الذي وصفه بهذه الكلمات :

ـ « ··· يدان كبيرتان ، قدمان كبيرتان ، وجه طفولـي

كلية قد يلائم طفلا في الثالثة عشر من عمره ، عيون زرقاء عميقة ، طبع متوحش اكثر منه خجول ، هذا هو المخلوق الذي سحر او ارعب كل اصدقائنا بخياله المليء قوة وانحطاطا لا مثيل لهما ... » .

لكن رامبو وفرلين كانا يعودان الى المنزل في اواخر الليل متعتعين من السكر ، فلم تطق زوجة هذا الاخير صبرا على هذه الحياة ، وسرعان ما غادر فتى شارلفيل بيت مضيفه بعد اسبوعين من نزوله فيه .

ترى ماذا كان مصيره بعد ذلك ؟ لقد قابله فرلين ذات يوم يتسكع في الشوارع بثيابه المتسخة الممزقة ، شاحبا يكاد يموت من الجوع . فذهب ليطلب له مساعدة من تيودور دي بانفيل ، الذي استأجر غرفة صغيرة للشاعر المتشرد ، وزوده بسرير . وما ان دخل رامبو مقره الجديد حتى خلع كل ملابسه ، ورماها الى الطريق ، ووقف عاريا امام النافذة متذرعا بانه لا يستطيع ان ينام فوق فراش نظيف باسمال رثة مليئة بالقمل . وها هو يضطر بعد بضعة ايام الى نقل السرير الذي اعارته اياه زوجة تيودور دي بانفيل الى المختبر الذي كان يشغله الشاعر شارل كرو مع رسام من رفاقه . ثم آواه بعد ذلك الموسيقار تابانير في بيته . واخيرا ، ونزولا عند رغبة رامبو في ان يعيش حرا مستقلا ، تآزر اصدقاؤه ومعيلوه على تامين ثلاثة فرنكات تصرف له يوميا ، واسكنوه على نفقتهم في حجرة حقيرة امضى فيها ثلاثة اشهر .

وكان من ثمرة مغامرة الشاعر المراهق في باريس ،التي استمرت نصف سنة ، ان طالبت ماتيلد موتيه بالانفصال عن زوجها فرلين التي راحت الالسن تلوك سمعته وعلاقته برامبو، الذي انسحب الى شارلفيل في شباط من عام ١٨٧٢ ليهيء لرفيقه جوا ملائما لمصالحة قرينته ·

ولسوف يستعيد رامبو فيما بعد هذه الفترة من عمره في احدى قصائد « الاشراقات » : « حيوات ــ ع » حيث يعلن عن وعيه بقيمته كشاعر مبدع خلاق جدد في الاساليب الشعرية اكثر من كل الذين سبقوه ، وخبر حالات من الغبطة الخارقة ، والاشراق الروحي العميق والوحي الفني الاصيل ادرك خلالها جوهر الحب ، وارتقى على سلالمها درجات من الوجد شبه صوفية · اما الان وقد عاد الى مزرعة امه ، فانه سيد اقطاعي متبطل في هذه البقعة الموحشة القاحلة الكئيبة من الريف الفرنسي · وها هو في هذا الجو الرتيب المليء بالمرارة يحاول ان يوقظ احساسه المتبلد وهموده الروحي ، بان يتذكر طفولته، وتشرده على الطرقات ، ومغامرة وصوله الى باريس كي يشق طريقه في دنيا الادب ، قدومه الى العاصمة هو الصبي المتوحش ، الرث الثياب ، الوافد من الريف ، المنضم الى حلقة الشعراء الباريسيين المتأنقين ، الندوات والمناقشات الادبية التي حضرها ، علاقته مع فرلين المتذبذبة بين التقارب والتباعد ، بين الود والنفور ، بين الصداقة والخصام ، حفلات العربدة والمجون التي اشترك فيها ، حيث كان عناده واستقلاله وقوة شخصيته ومزاجه الجامح يمنعه من مجاراة

رفاقه والاندماج في جوهم ، والانسجام معهم ، كما حصل له ذات مرة بعد عشاء « الرجال الاشرار » حين حاول ان يهجم على الشاعر ـ المصور تارجا ، ويضربه بعصا مزودة بحربة سيف ، على اثر شجار نشب بينهما • لكنه لا يتحسر كثيرا على حالات الفرح الالهية التي كان يمر بها ، والتي كانت تخصب طاقته الابداعية ، وتغذي ملكاته الفنية • لان الجو الكالح الحزين الذي يسود في هذه المقاطعة العجفاء يغذي نزعته الى الشك والتشاؤم ، تلك النزعة الهدامة التي يحب احيانا الاستسلام لسلطانها الطاغي ، والتي تخنق كل الهام شعري ، وليست مؤاتية لاي ابداع فني • وبما انه يشعر بحاجة ملحة الى الكتابة فانه يجد نفسه في وضع حرج وصعب يكاد يذهب بعقله •

ولعل رامبو في قصيدة « حيوات ـ ١ » يعبر ايضا عن حالته النفسية بعد عودته من مغامراته الباريسية الفاشلة الى منطقة « الآردين » • ويعلن ان ارض الوحي اصبحت بعيدة عنه الآن • وان محراب الجمال الذي كان من سدنته في الامس ، لم يعد اليوم سوى مجرد ذكرى • كما ان معبد الحكمة والمعرفة الذي كان يملك جواز مرور دائم اليه بفضل الاشراقات الفكرية العميقة ، التي كان يعرفها ، فانه اصبح حاليا من مخلفات الماضي • انه لا يزال يذكر ادق واقدم التفاصيل عن هذه الفترة الخلاقة من حياته :المتعات الجمالية، والنشوات والسكرات الروحية اللايعبر عنها ، والناتجة عن احتكاكه بالطبيعة التي كان يدخل معها في حالات من الوجد

الصوفي والعشق والوصال شبه الجنسي ايان تجواله بين الوديان والسهول وعلى ضفاف الانهار التي تنعكس الشمس على صفحتها الفضية · ان نوبات الحماس المذهلة التي كان يمر بها من قبل لا تزال اصداؤها تترجع بين حنايا نفسه · اما الان وقد طرد من جنة الالهام التي كانت وطنه السابق ، فان كبرياءه الجريحة تدفعه الى الاعتداد بأمجاده الغابرة : لقد عاش حياة حافلة مثيرة ، وارتشف من خمرة الجمال حتى الثمالة ، وكان قلبه مسرحا لشتى انواع الروائع الفنية والانسانية · وهو المؤهل لان يكشف للآخرين ما ينطوي عليه الكون من غنى وسحر لا يوصف · انه يراقب بشفقة هذه الخيرات المسكينة الحقيرة التي يتكالب عليها البشر العاديون ، وينخدعون بها · لكنه يعلم ماذا سيحدث فيما لو اعلن ان الكنوز التي يتهافتون ويلهثون وراءها زائفة تافهة لا تستحق الاكتراث او الاهتمام بها · وان الدرب التي يدلهم عليها هي وحدها الجديرة بان يسلكها المرء · وان الجواهر الفريدة التي يهبهم اياها دون سواها الثمينة والغالية والقمينة بان يستميت الانسان من اجل الحصول عليها · انهم لن يصدقوه ، وسيقابلون ادعاءاته بالهزء والاحتقار ، وسيتجاهلون وجوده · لكن حالة الشقاء التي هو فيها ليست بشيء يذكر ، اذا ما قيست بواقع التفاهة والبلادة والفتور النفسي الذي يغرق فيه السواد الاعظم من الناس · هو عاش عمره بزخم ، وخبر ما تنطوي عليه الحياة من عمق لامادي وجمال حقيقي · بينما يطفون هم فوق رغوة الايام وعلى سطح ذواتهم ·

ان رامبو ليشعر احيانا بخجل من نفسه ، ويود لو يحفر حفرة ويطمر عاره فيها · ويدرك انه طالما هو حي ، طالما ان تراب القبر لم يغيبه ، فانه سيستمر في ان يكون ذلك الصبي المزعج والحيوان الابله ، ذلك الشيطان الملعون ، والخائن الخبيث ، وتلك الهرة القذرة التي تلوث الارجاء برائحتها الكريهة ، كما يقول في قصيدة « عار » ·

انه يجيب ، بصوت مختلج بالدموع ، امه التي تلومه لانه بطال ، بانه بالعكس يشتغل كثيرا ، وان العمل الفكري هو اصعب من كل المهن الاخرى · لكن والدته تحتج بان نظم القصائد لا يفضي الى اية نتيجة ايجابية ، فيرد عليها : فليكن ، اني اكتب ، هذا واجبي ·

لكن ها هو يستجيب لنداء فرلين في ايار عام ١٨٧٢ ويلتحق به من جديد في باريس ، التي لا يلبث ان يضجر من الحياة في محيطها ، والسكر في مقاهيها · ففي شهر تموز ، وفيما كان فرلين خارجا ليأتي بدواء من الصيدلية ، اذا به يصادف رامبو يقصده حاملاً رسالة يبلغه فيها انه سيذهب الى بلجيكا ، طالبا منه مرافقته في هذه الرحلة · وعبثا راح الشريك البكر يعتذر بان امرأته مريضة وانه لا يستطيع ان يتركها ، فانه سرعان ما خلف كل شيء وراء ظهره وتبع صديقه الصغير · لكن ماتيلد موتيه قامت بصحبة والدتها بمطاردة بعلها الهارب لاعادته الى الحظيرة العائلية ·فوصلت بلجيكا في ٢١ تموز ، واقنعت فرلين بضرورة الرجوع معها من اجل مصلحة ولدهما ، فاخذ بحجتها واستقل القطار

المسافر الى باريس · غير انه ترجل في المحطة على الحـدود البلجيكية الفرنسية · واختفى ولم يظهر الا عندما اقلعـت الحافلة واغلقوا ابواب المقصورة ، ليعلن لامرأتـه بانـه لا يستطيع مرافقتها الى الوطن · وكان هذا اخر لقـاء بيـن الزوجين ·

ثم هجر الشاعران المتشردان بلجيكا وجاءا الى لندن · واثناء وجودهما هناك ، وفي تشرين الاول ١٨٧٢ سافـرت والدة رامبو الى باريس لتقنع زوجة فرلين الغاضبة بسحـب شكواها لانها تسيء الى سمعة ابنها ارتـور ، ولتحـاول استرجاع دفاتر مؤلفه « الصيد الروحي » التي كانت في حوزة ماتيلد موتيه ، التي دمرتها فيما بعد · لكن الام المسكينـة ارتدت خائبة ، ولم تفلح لا في اسقاط دعوى الطلاق ، ولا في استرداد المخطوطة الضائعة ·

ولم يلبث رامبو ان هرب في كانون الاول عام ١٨٧٢ الـى « الآردين » تاركا صديقه وحده في لندن التي رجع اليهـا من جديد في اواخر كانون الثاني ١٨٧٣ بناء على استدعـاء فرلين الذي مرض هناك · وما ان استرد هذا الاخير صحته ، حتى رحل رامبو ثانية الى مسقط رأسه · ففي يوم الجمعـة العظيمة الموافي في ١١ نيسان ١٨٧٣ وفيما كانت فيتالـي كويف مع اولادها فردريك وايزابيل وفيتالي في مزرعة روش ، اذا بقرعات تدق الباب · ويا لها من مفاجأة سارة عندمـا اكتشف افراد العائلة ان الزائر المجهول انما هو الابن الضال ارتور ، الذي يكتمل به شملهم ، الذي امضى النهـار كلـه

مستأنسا بعشرة اهله الحميمة ، سعيدا لاجتماعه بهم بعد طول فراق ، متفقدا بحماس الاملاك ، متعرفا بفرح على معالم القرية ، والذي باشر في هذه الفترة تأليف « فصل في الجحيم» قائلا بصدده في خطاب بعثه الى صديقه ارنست دلاهاي :

ـ « ٠٠٠ ان مصيري يتوقف على هذا الكتاب ٠٠٠ » ٠

معربا في نفس الرسالة المؤرخة في ايار ، بانه متضايق جدا لانه لا يوجد كتاب في متناول يده ، في هذا المكان النائي من الريف الفرنسي ، ولا حانة قريبة ، وانه لا يجري اي حادث في الشارع ٠

وها هو مع فرلين في ٢٤ ايار يسافر مجددا الى لندن ، حيث تشاجر الصديقان في ٣ تموز : فلقد كانا يتوليان شؤون المنزل بنفسهما ويتناوبان القيام بمشترياتهما الشخصية ٠ وذات يوم ، وقد كان دور فرلين في الذهاب الى السوق للتبضع ، ابتاع بعض السمك وقنينة من الزيت وعاد بها الى المسكن ٠ فراح رامبو ، الذي كان يراقبه من النافذة ، وهو يدخل محملا بالاغراض ، يسخر منه ٠ فرمى فرلين كل ما في يده من الحوائج ارضا ، وغادر لندن تاركا صديقه فيها دون نقود ٠ وسافر الى بلجيكا حيث طلب من زوجته الالتحاق به ، املا ان يتصالح معها ، او ان ينتحر اذا اخفق في ذلك ٠ لكن ماتيلد موتيه رفضت الانضمام اليه ٠ فندم على فعلته ، ووبخه ضميره لتخليه عن رفيقه في لندن ٠ فوصل رامبو في ٨ تموز سنة ١٨٧٣ الى بروكسل حيث سكن مع

فرلين ووالدة هذا الاخير في فندق خـرج منـه فرلين فـي السادسة صباحا من نهار الخميس الموافق ١٠ تموز ولم يعـد الا ظهرا • لقد كان ثملا للغاية ، ومتوتر الاعصاب الى اقصى درجة • وقد شهر مسدسا كان قد اشتراه حديثا ، وعندمـــا ساله رامبو : ماذا تنوي ان تفعل به ؟ اجابه مازحا : ان هـذه الرصاصات هي لاجلك ، لاجلي ، لاجل كل الناس • بينمـــا يدعي فرلين ، في الاعتراف الذي ادلى به في مركز الشرطـة، بانه انما اقتنى هذه القطعة من السلاح لينتحر بها في حـال فشل مساعيه للوفاق مع زوجته • ثم نزل فرلين من الفنـدق عدة مرات ليشرب الكحول ويعود • لقد كان يحاول ان يمنع رامبو بأي ثمن من تحقيق مشروعه في السفر الى باريس ، وطالبا المال لهذه الغاية من والدة فرلين ، الذي اوصد الغرفة فجأة ، وجلس على كرسي امام الباب المغلق صائحا في وجـه رفيقه الواقف مسندا ظهره الى الحائط المواجه : خـــذ هذه الطلقة بما انك تريد ان ترحل • وضغط على الزناد ، فأصاب رامبو في رسغه الايسر • ثم وجه الفوهة نحـو الارض وفجر رصاصة ثانية • لكنه ندم رأسا على فعلته ، وتملكه يأســ فظيع من جرائها • فهب الى الغرفة المجاورة التي تقطنهـــا امه ، حيث ارتمى على السرير كالمجنون ، ووضع مسدسـه بين يدي رامبو ، وطلب منه ان يفرغه له في صدغه • ثم قام في الساعة الخامسة مساء مع والدته باقتياد الجريح الـــى مركز الاسعاف ، واقترحا عليه أن يبقى معهما الى ان يلتئـم جرحه ، او ان يدخل المستشفى للمعالجة • لكن هذا الاخيـــر

ارتأى ان اصابته طفيفة ، وان الافضل له ان ييمم شطر شالرفيل ، فأعطته والدة فرلين عشرين فرنكا ليقوم بالسفرة ، ورافقته حتى المحطة هي وولدها ، الذي كان فاقد الرشد من شدة قنوطه ، الذي كان يحاول بكل قواه ان يقنع صديقه بالبقاء الى قربه ، والذي تقدم قليلا عن الموكب ، ثم استدار واضعا يده في جيبه فوق المسدس ، وعاد نحو رامبو ، الذي خاف ان يكون الغضب قد استولى على رفيقه من جديد ، وان يكون هذا الاخير يدنو منه بنية اطلاق الرصاص عليه مرة اخرى · فنكص على عقبيه ، وهرب الى حيث احتمى باحد رجال الشرطة طالبا منه ان يوقف فرلين ، الذي حكم عليه بالحبس لمدة سنتين في سجن مونس(Mons) ، والذي ادعى في الاعتراف الذي ادلى به امام المحقق العدلي ، بانه حاول ان يمنع رفيقه من السفر ، وبأنه هدده بالانتحار اذا رحل عنه · لكن هذا الاخير فهم خطأ انه يتوعده بالقتل · بينما عاد رامبو الى « الآردين » مضمد الذراع · وما ان وصل الى مزرعة روش حتى تهافت على كرسي في المطبخ ، ووضع رأسه بين يديه ، وراح ينتحب امام افراد عائلته الذين تجمعوا حوله مستفسرين عن حالته ، والذين كانوا جميعا باشراف الام القوية النشيطة ، يقومون بالاعمال الزراعية ، بدءا بفردريك البليد المتثاقل ، مرورا بفيتالي الهزيلة الحالمة ، انتهاء بايزابيل المتفرغة لتربية الارانب والصيصان · وحده ارتور ، الذي تصفه يوميات شقيقته فيتالي ، التي كانت حينذاك في الخامسة عشر من عمرها ، على الشكل التالي :

ـ « ... ان اخي ارتور لم يكن يشاركنا قط في اعمالنا الزراعية ، ان الريشة تشغل عنده اهتماما جديا لدرجة انها لا تسمح له بالانغماس في الاعمال اليدوية ... » .

وحده ارتور انصرف الى امور اخرى لا تمت الى اشغال الحقول بصلة ، استغرق من جديد في تدبيج صفحات ذلك « الكتاب الزنجي » . وانهمك ما بين اواسط تموز واواخر آب ١٨٧٣ في اكمال «فصل في الجحيم» ، الذي كان قد باشره في نيسان من نفس العام ، والذي يصف فيه التمزقات الداخلية ، والصراعات الباطنة التي عانى منها ، والقذارات التي تمرغ في حمأتها . وكيف انه كان عبدا لضعفه الذي يقوده الى هزيمة تلو هزيمة . وكيف راح يشفق على حاله ، وعلى كافة اوضاعه النفسية ، على طهارته ، وعلى العالم تلك المهزلة المتواصلة التي يعيشها الجميع ، ويحسد القديسين على طمأنينتهم ، لانهم اقوياء ونساك وفنانون من ذلك النوع الفريد الذي انقرض ، مدركا تمام الادراك ان انسانا يدمر نفسه بملء ارادته ، ويرتمي طواعية في حمأة الشر هو شخص هالك لا محالة ، مخلوق ملعون يستجلب الويلات على رأسه ، ويوقع صك عذابه بيده ، منحدرا احيانا الى درجات من اليأس والانحطاط والرضوخ ، من الوحشة والهجران والرثاء للآخرين لا يبلغها الا خاطىء يتوق الى الخلاص ، ويطلب الصفح والغفران من ربه . وهكذا وصل الى اسفل الدرك الى حيث لا يستطيع النزول مزيدا ، بنوع ان اقل حركة منه ما عاد يمكن ان تكون الا للارتفاع الى فوق ، والصعود من وهدته ،

والتوق الى النور والكمال · وهكذا راح وجهه يتقلص من الالم ، ولازمه شعور بانه لا يعيش حياته ولا ينتمي الى هذا العالم ، ومات فيه كل حس ، وتبخرت كل احلامه ومشاريعه ، وتراءت له كل امكانيات السعادة وكل جمالات الكون مجرد سراب ، لانه متعب يتعذب ويتلظى بنيران اكثر من جحيم : الكبرياء ، الغضب ، الشهوات الآثمة · لانه يموت من الاعياء ، فالرذيلة ، التي هي اشبه بدودة الفناء التي تنخر العظام ، قد قرضت جسده على مهل · والشيطان قد اذابه بسحره · حتى لقد بات يفضل الهلاك النهائي ، الاستسلام المطلق لليأس ، الرضوخ التام لحكم الظلام ، على الصعود الى النور ثانية ومعاودة الحياة ، ورؤية عوراتها وتشويهاتها وبشاعاتها الجارحة ، والآثار المريعة التي تتركها في نفسه آفة التحشيش والعلاقات الجنسية المحرمة ، وضعفه وانحطاطه وقساوة القدر عليه · وحتى لقد بات يستجير ويستنجد ويسترحم من شدة الالم ، ويود لو تنشق الارض وتبلعه ، وتواري ذله ، وتخفيه عن الانظار · لكن مع انه تدهور الى اعماق دهليز فان العيون تلاحقه الى مخبئه المظلم تفضح عيبه ، وتسلط نورها العدائي على عريه · لان دمغة الجحيم الموصومة على جبينه تجعله عرضة للانظار اكثر · ولانه كلما تالم واحس بالذنب كلما تضاعف خوفه من احكام الآخرين ، وزاد شعوره بالمهانة والنقص تجاههم ·

ثم اصبحت صحته مهددة وانهارت اعصابه ، وصار يعيش في حالة من القلق والتوتر والرعب ، ويقع طريح

الفراش لعدة ايام ، لا يفيق اثناءها الا لكي يكمل في اليقظة الكوابيس التي رآها في المنام ، ويستمر في الهلوسة والهذيان والاحلام الكئيبة المزعجة · حتى لقد غدا ثمرة ناضجة في يد الموت ، يقوده ضعفه على درب محفوفة بالمخاطر الى ما وراء افق الحياة ، الى مناطق التهلكة والظلام · لكنه اجبن من ان يعشق المنية ويفكر بالانتحار · مع انه اذا استعرض حالته لما وجد اي داع للاسف على فقدان عمره ، الذي لم يكن سوى سلسلة من الحماقات والتصرفات الجنونية الخرقاء ، وحلقة متصلة من الخيبة والمرارة · ومن حسن حظه انه لم يتعذب الا بهذا المقدار · اذ ان نزواته الهوجاء ونزقـــه الارعن ، وطبعه المتهور يرشحه لنصيب من الشقاء اكثر بكثير من ذاك الذي ذاقه بالفعل · واذ ان اخطاءه الفادحة تستأهل قصاصا اقوى مئة مرة من العقاب الذي حل عليه في الواقع · كما ان حسه اللاواقعي وعدم اخذه الامور عن جد يجعله يستخف بالكوارث التي تنزل به ، ولا يتأثر كما ينبغي بالمحن التـي يتعرض لها ، كما كان ليفعل اي شخص واقعي آخر لو كان في مثل موقفه المشؤوم · نعم لو ان الصعاب التي ارهقت كاهل رامبو واجهت احدا غيره من الرجال العمليين لما صمد لضغوطها ·

ولقد بات يرفض الفراديس الاصطناعية التي تخلقها له الخمر ، ويفضل التحلل في مستنقع الحياة اليومية علـى حفلات السكر مع الاصدقاء · فالحالة النفسية التي وصل اليها تشبه تلك النوبات العصبية الحادة القمينة بأن توحي

بقصيدة مثل « تصفية » من « الاشراقات » حيث يعلن عن رغبته في التخلي عن كل شيء ، وحتى عن تلك المواد الغالية الثمينة التي انخدع بها في لحظة ما ، والتي كان يظن انه لا يمكن التفكير بطرحها جانبا · التنازل المطلق وليس فقط عن المفاسد ثمرة الغرائز المنحطة ، والمباذل معبودة الطبقات السفلى من الشعب · بل وحتى عن تلك المثل العليا والقيم الراقية ، والكنوز الروحية المتعالية على شروط الزمان والمكان · بما في ذلك تكوينه الفيزيولوجي الذي يحرمه من الانتماء الى اي جنس سواء فصيلة الرجال او فصيلة النساء، الذي يكرس غربته عن اي عائلة ، وينفيه عن العالم ، ذلك التركيب العجيب الذي كان يظن فيما مضى انه يمنحه نوعا من الامتياز ، والذي يود الآن اسقاطه من حسابه دون اسف·
كما ينبغي التنصل من روحه الثورية وتعاليه واحتقاره لانظمة الحياة ، ومحاولته تغييرها ، ورفضه للتقاليد والشرائع التي يسنها المجتمع والاناس العاديون · تماما مثلما انه يدير ظهره لكل مستحدثات العلم من مبان عصرية ، ووسائل نقل متطورة ، وكل الكماليات وانواع الرياضة واللهو والترفيه ، وجميع اصناف الاكتشافات والاختراعات مع ما شقته من آفاق للمستقبل ، وما خلقته من ضجة صاخبة وحركة لا تهدأ ، وشتى انواع التطبيقات التقنية التي تحاول السيطرة على الكون ، وتخلق في الانسان حوافز جديدة للتكالب على جمع الثروة ، والتراكض على المغانم والمكاسب المادية ، وتنمي فيه الجشع ، وحب التملك والترف والرفاهية وتضاعف له وسائط

المتعة والتسلية الشعبية المبتذلة ، وتوفر له جميع الاسباب لاشباع غرائزه الدونية ونزعاته السفلية ، وميوله الفاسدة . نعم لقد مر رامبو بفترات عصبيـة قـرر فيهـا الاعـراض عن كل عطايا الارض . وحتى عن تلك الهبات النادرة ، التي لم يكن يظن احد بامكانية رميها من يده نظرا الى ان هناك هدايا أقل شأنا لم يتم تصفيتها بعد ، ونظرا لتعلق المرء الشديد بحطام هذه الدنيا . لقد اجتاز مراحل حرجة من نوع تلك الازمة الروحية الحادة المعاصرة لتأليف « فصل فـي الجحيم » ، الذي كان افراد عائلته يسمعونـه وهو يصوغ عباراته النارية ، ينتحب ، يئن ، يجدف ، يقهقه ، يتهكم ، ويصرخ من الغضب ، عبر خشب مخزن الحبوب حيث اتخذ له غرفة في مزرعة روش ، والذي صرح بخصوصه لشقيقته ايزابيل :

ـ « ... لكنت جننت (لو اني واصلت) ثم ان هذا كان شرا ... »

وما الداعي الى الاستمرار . لقد بلـغ الذروة واعطى اقصى ما يستطيعه مخلوق ، ولم يعد عليه سوى ان ينسحب . وهذا ما يعبر عنه في قصيدة من « الاشـراقات » عنوانهـا « حيوات ـ ٣ » ، حيث يعتقد بأنه تمكن، رغم ضالة النقطة التي كان محصورا فيها ، ومحدودية المنزل الابوي الـذي كان مسجونا فيه ، ان يسافر بخياله في الزمان والمكان ، ويسبر من عزلته الضيقة غور النفس البشرية . كما ان خياله الخصب الجامح قد اتاح له بفضل العديد مناشراقات الفرح الخاطفة

ان يختبر كل انواع الجمال · ولقد انجز انتاجـــه الشعري الموسوم بطابع الدهشة والسحر ، الغارق في جو اسطوري عجيب في فترة باكرة جدا من حياته التي عاشهـا بزخم ، واستنفدها بملء ونفاد صبر ، وعجل لها ايقاعهـا بان خض دمه وبث السرعة في شرايينه ، وشحنها ، بحيوية متفجرة · فاذا بقطراته الوحشية الحارة الضاجة في جميع عروقـــه مجاذيف جبارة تقود مركبه خلال فترة وجيزة الى رحلة طويلة يحتاج اي زورق اخر مبحر بايقاع عادي الى حقبة مديدة كي يقطعها · لكأنه ضيق الصدر مستعجل يصل قبل الاوان ، العمل الذي كان عليه تنفيذه خلال خمسين سنة مثلا ، أتمـه خلال اربعة اعوام مكثفة فقط ، هي بمثابة عمر كامل · وانتهت هكذا مهمته وتقاعد ، وخرج من المعترك ، ولم يعد عنده ثمة وظيفة يؤديها كتلميذ نجيب حفظ بدقيقة واحدة الامثولة التي يحتاج غيره الى ساعة لاستيعابها ، فبقي عنده فائض مـــن الدقائق لا يعلم كيف يهدرها · لكأن ايامه انقضت ودوره على مسرح هذه الارض انتهى ، لكنه ظل حيا مع ذلك ليشهد مرحلة ما بعد موته ·

٣ ـ تغيير الحياة

« تبديل العالم ، قال ماركس تغيير الحياة ، قال رامبو ان كلمتي الامر هاتين ، بالنسبة لنا ، لا تشكلان سوى كلمة واحدة »

اندريه بريتون

ان نفاذ الصبر هو من اولى مميزات الطفل، الذي يرفض بحكم طبيعته ان يرضخ لحقيقة الزمن · من هنا ان الضيق الوجودي ، والحاجة الى الطهارة والنقاء الروحي الشامل ، والعجز عن التكيف والتلاؤم مع الحياة يقود رامبو الى تاليه طفولته ، والحنين الدائم اليها ، والعداء لكل ما هو غريب عنها ، اي كافة مظاهر العالم ، الـــذي لا يغتفر له بشاعته ومظالمه لان البراءة لا ترحم ، لا تساوم ، ولا تعرف التنازلات· انها لا ترضى الا بالمطلق · انهم لقساة متوحشون ، لكــن خلاص الانسانية مرهون بهم اولئك الاطفال من نوع رامبو ، الذي طالما حدث رفيقه ارنست دلاهاي عن انواع التدميــر الضرورية ، عن الاشجار الهرمة التي يلزم قطعها ، وعن هذا المجتمع الذي يترتب علينا الاطاحة به ، عن الثروات والامجاد الفردية التي يجب هدمها ، وعن الحسد والتنافس والكبرياء

التي يتحتم علينا القضاء عليها ، ليحل محلها الانسجام والالفة والمساواة بين البشر ، واتاحه فرص العمل للجميع في خدمة الجميع ، حتى انه في النهاية « لن يبقى ثمة الا الطبيعة » ، والذي قال لصديقه الانف الذكر سنة ١٨٧٠ :

ـ « ٠٠٠ يا له من عمل ! يجب علي ان ادمر كل شيء، ان امحو كل شيء من رأسي ! آه سعيد هو الطفل المهجور في زاوية نائية ، المترعرع على هوى الصدفة ، الذي يبلغ طور الرجال دون اية فكرة مفروضة عليه من قبل اساتذة او عائلة ، جديد ، طاهر ، دون مبادىء دون مفاهيم ـ بما ان كل ما يعلمونا اياه هو مسخرة ! ـ ومتحرر ، متحرر من كل شيء ! ٠٠٠ »

ان روح التدمير اذن المتأصلة في رامبو ناجمة عن حاجته الملحة الى الطهارة ، ورغبته الصادقة في الصفاء التي ليست سوى تعطشه الدائم الى المصادر الاولى ، الى مناخ بكر نقي ، وفردوس من الحقيقة والجمال يصر على اكتشافه خلف شرور وقوانين هذا العالم القديم الملطخ المشوه ، وكل المظالم والدناءات التي يضطر الانسان البالغ الى ارتكابها وهو يخوض غمار الواقع العملي ٠

يعترف رامبو في « فصل في الجحيم » انه منذ الصغر يحب الحياة الخارقة غير المألوفة ، الخارجة على القانون ، المتمردة على كل النواميس الاجتماعية والاعراف السائدة ، والتقاليد المتبعة ٠ وهو لا يخفي ما يمارسه مصير المجرمين

وطريدي العدالة على خياله من سحر • لقد كان شغوفا ، وهو طفل ، بان يتأمل احد المعتقلين المتوحشين الذين يقتادهم السجان الى زنزانتهم ويغلق بابها وراءهم • وكانت رؤية مجرم من هذا النوع ، منبوذ ، محكوم عليه من قبل المجتمع ، تبعث في نفسه فيضا من الاحلام • فكان يتقمص شخصيته ، ويزور بالخيال الحانات والاكواخ الخفية التي يتصور انه زارها قبل ان يتم اعتقاله • وكان يتغلغل بالوهم الى عقلية اللص ويحاول ان يتخيل كيف يجب ان تتراءى له السماء الزرقاء والحقول الزاهرة • ان حضور هذا الرجل الفريد المتميز عن القطيع البشري ، هو في نظر رامبو ، حدث مهيب كوطأة القدر ، وجليل كآثار التاريخ • انه يضفي هالة اسطورته على الموضع الذي يحل فيه • انه يبدو في عيني الشاعر الدهشتين اقوى من القديسين ، واكثر اثارة للخيال من الرحالة والمغامرين ، لانه لا يخضع لاي ضغط خارجي ولا يطيع الا قانونه الداخلي ومزاجه الشخصي ، وصوت غريزته الباطن ، ولانه يرسم لنفسه المنهج الواجب عليه سلوكه ، ولا يسير على الدروب المعبدة التي يفرضها عليه الغير • انه سيد مصيره انه يتحكم بقدره • انه حر مستقل يختار اسلوب المعيشة الذي يلائمه ويرتضيه لنفسه ، ويتصرف على هواه غير معترف بوجود اية سلطة خارجية ، محطما كل قيد يحاول الآخرون ان يكبلوه به ، وكل قالب جاهز يجربون ان يصبوه فيه •

لكن ماذا يعني رامبو عندما ينسب نفسه الى « الجنس

الناقص » ؟ ان المتفوقين هم الرجال الاحقاء هـم الفحـول الاقوياء الذين يستطيعون تحصيل حقوقهم ونيل مبتغاهم · اما هو الفاقد الرجولة ، الحائر بين الذكورة والانوثة فانه مـن تلك الفئة الفاقدة الهوية ، من ذلك « الجنس الناقص » كمـا يسميه · وليس بمقدوره بالتالي ان يفهم الثورة الصحيحـة تلك التي يقوم بها الرجل الشجاع والجبار ضد ظالميه ،يقاتلهم، ينتصر عليهم ، ويحصل على مطالبيه منهم ، وينتشل مراده من بين براثن الاسد · ان قمته العابثة التي لا تؤدي الى ايـة نتيجة ايجابية ، الهدامة التي لا تملك اية قدرة على البنـاء على انقاض ما دمرته ، هي نقمة العاجز الذي يكتفي باشاعـة الفوضى وزرع البلبلة ، انها انتهاك مجاني للقوانين ·

وهكذا يتبين لنا ان رامبو يؤمن بالتمـرد لذاته ، لا من اجل ما قد يسفر عنه من اصلاحات عملية جذرية · انه يعول عليه للقضاء على رجال الصناعة والاعمال ، على الحكـام والقضاة ، على النظام والقانون وكل الزواجر والموانـع والضغوط والفروض التي تحد من حرية الفرد وتستعبد روحه· كل تلك الشرائع وعلى رأسها سنة العمل التي يجـد نفسـه عاجزا عن الخضوع لها ·

في سن العاشرة دون رامبو هذه الملاحظة على دفتـره المدرسي :

ـ « ··· انا لا اريد وظيفة ساكون ملاكا عقاريا ··· » « بعرق جبينك تأكل خبزك » · هذا هو العقاب الذي انزله

الله بآدم على معصيته · ولم يشعر احد بعبء هذا القصاص واستحالة تحمله مثل رامبو · الحياة تلسعنا بسوطهـــــا ، وتآمرنا ان نتقدم الى الامام ، وان نسير على دربها الوعـرة رازحين تحت نير واجباتنا المرهقة · الى اين يسوقه هـــذا المهماز ؟ الى الحرب ، الى النضال ، الى منافسة بني جنسه على لقمة العيش ؟ لكنه جبان لم يخلق للقتال والكفاح · العرق البارد يتصبب منه · انه يصاب بدوار ويكاد يغمى عليه · انه خائف · انه ضعيف · الآخرون يتوجهون الى ساحة الوغى ، التي يستدرج هو اليها غصبا عنه ، مدججين بالعتاد والذخيرة يصوبونها الى صدره هو الاعزل من السلاح ، مزودين بالوقت والجلد وطول الاناة ، وهو النافد الصبر ، الضيـــق البال ، العاجز عن المثابرة والمواظبة على عمل · انـــه يتمنـــى ان يهزموه فتنتهي مهزلة هذه المعركة التي ليس هو مؤهلا لخوض غمارها ، ان يستسلم لهم صاغرا دون ابداء اية مقاومة ، او ان يرتمي بحركة انتحارية تحت سنابك الخيل من اليأســـن والرعدة والكساح · ان كل صراع قد يتورط فيه سوف يخـرج منه مغلوبا : لكنه سيعتاد على الامر ، ولا عجب ، فالفرنسي هو ، في رأيه ، محارب فاشل ·

في احدى رسائله الى صديقه بول دميني يشكو رامبـو همه قائلا بانه مسجون دون انقطاع في مسقط رأسه ، لا يعاشر احدا ، ينصرف بكليته الى كتابة الشعر ، ولا يرد على اسئلـة الفضوليين واهاناتهم وازعاجاتهم ، ويدير ظهره للطفيليـين وتدخلاتهم المؤذية الشريرة بشؤونه · وهذا مما يثير حفيظـة

والدته المتسلطة العنيدة ، التي اتخذت القرار التـــالي : ان تفرض عليه الشغل الدائم الثابت المستقر في شارلفيل • وهي تهدده بالطرد من البيت اذا لم يعثر على عمل ضمن مهلـــة محددة • ولقد رفض الانصياع لمشيئتها دون ان يعطي ايـــة مبررات ، او يبدي اية اسباب لذلك • ان الامتثال لارادتهـا اكراه مريع وفظيع بالنسبة له ، وهو يؤجل ويماطل ويرجـيء موعد تنفيذ رغباتها دائما بنوع انها باتت تتمنى رحيله حتـى بصورة هوجاء غير مخطط لها ، وقراره وتواريه ، واختفـاء العار الذي يشكله لها امام سكان شارلفيل • لكن لو هـــرب فعلا فانه معرض بسبب فقره وقلة خبرته لان ينتهي به المطاف في احدى الاصلاحيات ، وفي هذا خاتمة الاحزان • وان هذا الضغط المقرف الذي يمارسه عليه المجتمع يحفزه الى ان يطلب بعض المعلومات من مراسله ، اذ انه يريد ان يشتغل ، لكـــن حرا ، في باريس التي يحبها ، ولا يقبل الا :

ــ « ••• مشاغل لا تستغرقني الا قليلا لان الفكر يتطلب شرائح واسعة من الوقت ••• »

ولقد سبق لصديقه بول دميني ان باح امامه بان المـــرء يظل في العاصمة قادرا على تامين رزقه بفضل القيام ببعض الاعمال الوضيعة ، التي لا تستاثر سوى ببعض ساعات مـــن نهاره • ان مثل هذه المهام الصغيرة توفر للشاعر لقمة عيشه، وتغفر له كل خطاياه في عين المجتمع ، وتعتقه من شتـــى الضغوط الخارجية ، وهي لذلك مستحبة في ذاتها • ثـــم يتساءل رامبو في ختام رسالته : لماذا يدين الناس الولـــد

الخصب الخيال على طباعه الجامحة ، ويحاولون شفاءه منها بان يزرعوا في رأسه اوهاما اخرى تحوز على رضاهم ، وبان يدلوه على طريقهم القويم واسلوبهم المكرس ، على تقاليدهم المقررة المعترف بها ، وانظمتهم العامة المتبعة ·

لكن رامبو لم يحاول في باريس الالتحاق باية وظيفة :

ـ « ··· دون ان استخدم كي اعتاش حتى جسدي واكثر بطالة من الضفدع ، عشت في كل مكان ··· »

اذ انه يكره كل المهن ، ويرفض ان يكون صنيعا او عاملا او فلاحا · فكل هذه الحرف تثير اشمئزازه · ان اليد التي تحمل القلم لا تقل قيمة عن الساعد الذي يجر المحراث · لانها تكد وتنتج هي ايضا · فلماذا نعتبر الشاعر والاديب عاطلا عن العمل ؟ ألا يبذل مجهودا ؟ ألا يتعب ؟ ألا يثمر سعيه الدائب عن ابداع شيء من عدم ؟ اننا في عصر يقدس الشغل والحياة العملية · لكن رامبو عاجز عن الاضطلاع بمهمة نافعة للمجتمع تحظى برضى وموافقة اعضائه · انه يستصعب فكرة الاستخدام عند الناس ، ورهن حريته في سبيل كسب عيشه ، لان عبودية العمل ، والسعي وراء القرش تجبر المرء على كثير من التنازلات ، والاكراهات الذاتية التي لا تستطيع حساسيته الشاعرة تحملها ·

كما انه لا يستمرىء حالة الشحاذة والبقاء عالة على غيره ، ولا يطيق ان يعيش في وضع من الذل تحت رحمة ومعروف المحسنين · وليس بمقدوره ايضا ان يسلك السبل

الاجرامية ، وينتهج الاساليب غير الشريفة كي يربح ما يكفيه من المال لاقامة اوده · لكن اذا استحال عليه الخضوع لنيـر العمل والانضواء تحت لواء وظيفة او حرفة ما تدر عليـه معاشا ثابتا · اذا عز عليه ان يكون عبئا على الآخرين · اذا استحرم ان يسرق وينهب ويتعدى على حقوق المساكيـن كـي يستحصل على النقود · وهذه هي الطرائق الثلاث الوحيـدة المتاحة للمرء كي يعتاش · ما الحيلة ؟ ··· ومن اين عسـاه يتزود بحاجاته الضرورية ، ويضمن لنفسه اسباب الاستمرار في البقاء ؟ ··· لا يدري · انه لفي مأزق لا مخرج منـه · وجل ما يعلمه هو ان طهارته الفردية لم تمس ، وان حريتـه الشخصية بأمان ، وانه لم يرهن روحه عند أحـد ، وكل ما تبقى لا اهمية له ، وكل الامور الاخرى عنده سيان · لو ان الشعر بالنسبة له مهنة تدر عليه ما يكفيه لان يعيش ، لكـان في هذا خلاصه · ان شخصا كفكتور هوغو مثلا يجوز لـه احتراف الادب ، لانه يكتب ما يرضي اذواق الجميع فيعترفون به كشاعر ، ويقرون له بحقه في التفرغ لصياغة قصائده ، التي يكرسونها له مهنة شرعية ، ويقبلون على قراءة آثاره وشراء كتبه بما يدر عليه مالا ، يكفل له حياة رغيدة تكفيـه مؤونة الاستخدام او الشحاذة او الاجرام · لكن الحال ليست كذلك بالنسبة لشاعر ملعون كرامبو لا ينشد انغاما تستسيغها آذان الجمهور ، لان :

ــ « ··· لسانه خائن ··· »

على حد تعبيره · وهو يستفز الاذواق ويتحدى قـدرة

العقول على الفهم ، فتضن عليه بلقب شاعر ، وتعرض عن نتاجه الذي لا يعود بالتالي قادرا على تقديم اي عون مادي له ٠ وهذا الحرمان التام من كل مدخول يجعله يبرز بمظهر العاطل عن العمل ، ويمنعه من الانتساب الى المهنة الوحيدة التي هو مؤهل لممارستها حقا الا وهي الادب ٠ بهذا المعنى فان « لسانه الخائن » هو الذي يوجه كسله ، يصونه ، ويكرسه ٠

وهكذا عاش رامبو ، في الفترة الخلاقة من عمره ، بطالا ، فريسة حمى قوية ، يحسد البهائم على هناءتها وخلو بالها ، يشتاق ان ينام بغفلة وبراءة الاطفال الطاهرين ، ويتردى في هاوية مظلمة تضيئها فكرة العمل البشري التي هي اشبه بقنبلة تنفجر من وقت الى وقت ٠

لقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تغييرات كبيرة ، بنوع اننا نستطيع بمعنى ما اعتباره عصرا جديدا لا يشبه الماضي ابدا ، ولا يمت الى ما قبله بصلة ٠ لا خيال ، ولا احلام ، كما في القديم ٠ اننا في طور التكنولوجيا والمنطق البارد ، في عهد الديمقراطية والمساواة بين البشر ٠ لقد سيطر العلم على كل مناحي الحياة ، وصار له الكلمة الفصل في كل امر ٠ لقد ناب الطب عن الرقى السحرية والعلاجات البدائية ، وحلت الفلسفة الوضعية مكان الخرافات والاوهام السابقة ، ودخلنا في مرحلة التسلية الجماعية ، وتحكم الارقام ، وطغيان المادة ٠ في حين ان رامبو لا يزال يؤمن بالروح وان لم يكن بالمعنى الديني لهذه الكلمة ٠

فهو في قصيدة « حركة » من « الاشراقات » يعلن بان الاختراعات الحديثة وضعتنا في مناخ التقلب والخطر ، في جو السرعة والتحول ، وذلك بفضل المكتشفين الرواد ، الذين يغامرون ، يفضون بكارة المجهول ، يقتحمون الاهوال ، ويبدلون اساليب المعيشة ، انهم ابطال العالم الجدد :

ـ « باحثون عن الثروة الكيميائية الشخصية ··· »

لقد عمموا في الحياة المعاصرة اسباب الرفاهية ، وفنون الرياضة ووسائل النقل والسفر ، ووضعوا الثقافة في متناول الجميع · ان عصر العلم هو الراحة بما ان الآلة تقوم مقام الانسان في الاعمال المتعبة ، لكنه بذات الوقت الارهاق ، بما انه زاد القضايا تعقيدا ، وخلق حاجات جديدة ، انه الدرس والتحصيل ، واحداث ثورة على مختلف مستويات الواقع عن طريق العقل · في المصانع والمستشفيات ، واماكن اللهو ، في ساحات الحروب ، وادوات البذخ والترف ، وتشابك الارقام نرى دائما ثمرة جهود وابحاث المخترعين المأخوذين بلذة وبطولة الابتكار · لكن في خضم هذا الواقع العملي ، وفي ظل سيادة الآلة ، وسلطان الطاقة المادية ، ها ان الشاعر ، للعجب الشديد ، يستمر في ممارسته مهنته، رافضا التخلي عن نزقه ونزواته وطبعه الحالم ، وعن شبابه الجامح ، وحماسه المدهش · انه ينعزل عن المجتمع ، ويقف خارج حومة الصراع الصاخبة ، وورشة الشغل المحمومة الدائبة ليغني الجمال ، وينشد قصائده · فهل تصرفه هذا هو نوع من البربرية القديمة ، ونسق من المعيشة عفى عليه

الزمن ، ولم يعد يتلاءم مع متطلبات الحياة الحديثة ؟ هل ولى عهد الشعر ، واصبحت ممارسته خطيئة وآفة لا يستطيع الناس اغتفارها والتغاضي عن مرتكبها الا باظهار الكثير من كـــرم الاخلاق ، والتسامح ، ورحابة الصدر ؟

ان رامبو يسائل المؤمنين بالنفعية والمادية ، بالتقـــدم والتطور ، وبامكانيات التكنولوجيا اللانهائية ، من ابنـــاء اواخر القرن التاسع عشر ، عصر تقديس العلم الذي اصبـح ديانة الجميع ، ونوعا من الارستقراطية الجديدة : تزعمون ان

العالم يسير الى الامام . ولماذا لا تفترضون انه يلف حـول محوره . ان الزمان دائرة وليس خطا افقيا . ان التغيـــر لا يعني بالضرورة الاتجاه نحو الاحسن والاندفاع صعدا ، بل قد يكون احيانا تقهقرا وعودة الى الوراء ، ونكوصا نحــو الاسوأ . بما اننا ننجرف في حركة دائرية . ان الدين والعلم يتهددان ويتوعدان كل من لا يعمل ، ويتحالفان على التنديـــد به ، رامبو يدرك ذلك جيدا . ولكنه يعرف ايضا ان هنـــاك الكثير من السواعد القوية لتسيير عجلة العمـــل ، وانهـــم يستطيعون بالتالي الاستغناء عنه . انه يعي ان هناك واجبـا عليه القيام به . لكنه فخور بانه يقدر ، اسوة بالكثيريـــن ، التنصل من تبعاته ، وطرحه جانبا ، ولكنه يعلـــم ان جثـــث الاشرار والبطالين تثقل على ضمير الآخرين . هل ثمة مهرب من القانون الاخلاقي ، والنظام الاجتماعي . وماذا في وسعه ان يفعل ؟ انه يعرف ما هي متطلبات العمل الصعبة ، واعباؤه

البغيضة · كما انه لا يستطيع القبول بمعطيات العلـــم التي يؤمن انها عاجزة عن بلوغ الحقيقة ·

ان حياته تالفة فليتظاهر بانه يعمل · فليمارس كسله · يا للشفقة ! ان يعيش ، ويستمر بالوجود ، ولا مهنة له سوى اللعب والحلم بمغامرات الحب العجيبة ، والعوالم المدهشة ، والتذمر ، وتحدي مظاهر الدنيا ، انه :

ـ « ··· بهلوان ، شحاذ ، فنان ، لص ، كاهن ··· »

انه من تلك الفئات من الشعب التي لا تنتج سلعة ماديـــة نافعة ، لا يثمر مجهودها عن انجازات عملية ، ولا تؤدي خدمة ضرورية لا تعوض · ان سعادة الاستقرار والامان العائلي ، والدعة البيتية ، محظورة عليه · انه ضعيف ومشتت :

ـ « ··· الحياة تزهر بالعمل ، وهذه حقيقة قديمة : انا حياتي ليست ثقيلة بما فيه الكفاية انها تطير وتطفو بعيـــدا فوق العمل هذه النقطة العزيزة للعالم ··· »

الحياة العملية ليست هي الحياة الحقة · ان كل فعل عندما يتحقق يورثنا خيبة امل · اننا ننتظر ونترقب حصوله · لكن ما ان تجيء الساعة حتى نشرع في انجازه وقد عيل صبرنـــا ، فنفسد كل مخططاتنا ولا ياتي التنفيـــذ مطابقا لتوقعاتنـــا وتصوراتنا حوله · اما القوانين الاخلاقية فانها لا تبرهن الا على قلة عقلنا · بينما قد تعني الثورة احيانا تعطيل مجـــرى الحياة الاعتيادي ، واشاعة الفوضى التي يستطيع رامبو ان

يتغلغل بين صفوفها ، ويختفي ويجد مبررا لبطالته ، فالاحكام معطلة في ظروف الفتنة والعصيان الاستثنائية ولا احد يفكر بادانته وتكبيله واقتياده الى الحبس • انه يحلم بحركة تمرد يدخل بفضلها في شراكة حميمة مع رفاقه الثوار ، ووحدة مصير مع اخوة في السلاح مجهولين وهميين لا شك انهم سيهزمون في النهاية • لكن هذه مجرد تخيلات طوباوية ولن يتاح له ابدا النجاة من قبضة الواقع ، ومن قوانين الارض الصارمة •

ان ثورة رامبو هي محاولة تغيير روحية للعالم لا علاقة لها بشروطه المادية وظروفه السياسية • لكن :

ــ « ••• اذا كانت البراكين لا تغير موضعها ، فان حممها تجتاز فراغ العالم الكبير ، وتقدم له مزايا تغني في جراحه ••• »

على حد تعبير رينه شار الجميل •

وهكذا يسير مركب رامبو السكران على غير هدى فوق بحر الحياة • لان الثورة الداخلية ، والفوضى الوحشية التي يتميز بها قد حطمت كل الانظمة والقوانين ، وتحررت من كل الاعراف والتقاليد • انه لا يعبأ بالقيود والواجبات ويرفض الا ان يعيش على راسه متنكبا سلوك السبل المطروقة ، والانماط المألوفة ، والعادات المتعارف عليها ، التي تعانده وتقاومه بادىء الامر • لكنها تفهم اخيرا انه لا جدوى من ردعه ، فتتركه فالتا على هواه ، تائها على الدرب التي

يرتضيها ويختارها لنفسه · انها تنفض يدها منه ، وتقر باستحالة احلامه ، واخضاعه للشرائع والنواميس · انه يركض بكل عنف وضراوة فوضاه ، بجنون وحماس الاطفال ، مثيرا الدهشة والاستغراب حوله من كل جهة ، لم يسبق لها مثيل ·

ان ثورة رامبو هي نقمة عارمة على القيم العائلية ، موجهة ضد كل اولئك الذين يهيبون به ان : نحن اباؤك واجدادك الذين تعبنا وشقينا من اجل تربيتك · نبني لك البيت المريح الآمن ، الذي يحميك · نقدم لك كل ما تحتاج اليه من غذاء جسدي وروحي · ونوفر لك كل ما تتوق اليه من دفء وعطف ، من وجود وفرح ، شرط ان تطيعنا وتخضع للواجبات والتقاليد الموروثة · نحن نريد صالحك ونرشدك الى طريق الصواب · فانتهج اسلوبنا في العيش لانه وحده الاصيل ، الخالي من الزيف ، والنابض بالحياة والعاطفة القلبية الصادقة · لكن رامبو يفضل ان يعيش حياة زاخرة فوضوية مستقلة تنسجم مع مزاجه المتوحش وهواه الغريب ، على الاذعان لحالة الدعة والاستقرار والبلادة المبنية على الخنث والتصنع التي يدعونه اليها · انه يؤثر الموت على وضع نيرهم على رقبته ، والهلاك عطشا على النهل من الينابيع المريبة التي ينعمونها بمياهها العكرة ·

ان ثورة الشاعر هي فورة غضب ضد كل هؤلاء البورجوازيين المتكالبين على المتعة وجمع المال ، المتهافتين على حطام هذه الدنيا ، ومآربها النفعية الرخيصة ، الحريصين

على نظافتهم ولياقتهم ، المتقيدين بالنظام ، الساعين الى التناسل ، المتشبثين بالبقاء ، المتعلقين بالوجاهة والمظاهر الخارجية الكاذبة ·

ان ثورته هي صرخة احتجاج ضد ذلك الانسان العادل البغيض المضحك بهيبته ووقاره وجلاله المفتعل ، والذي يطلب منه رامبو ان يهتم بشؤونه الخاصة ، ولا ينصب نفسه حكما وقاضيا على الآخرين ، وحاميا للنظام والقانون ، ولا يتدخل فيما لا يعنيه ، ويجعل من سلوكه معيارا ومثالا اعلى يجب ان يحتذى ، وقاعدة عامة يسري مفعولها على الجميع ، لانه كسيح عاجز عن مساعدة احد ، فلماذا لا يترك الناس وشأنهم، لماذا يدعي الغيرة على مصلحتهم والتفاني في خدمتهم ، ويروح يلقي المواعظ الاخلاقية ، ويغدق نصائحه الثمينة عليهم · انه يمثل الحكمة والرصانة والتعقل والطاعة العمياء للقوانين الدينية والاجتماعية · انه جبان ذليل خنوع يثير قرف رامبو المتمرد على كل السلطات والضغوط كل الزواجر والموانع ، الرافض لمنطق القطيع وشرائعه ونواميسه ، طريد العدالة ، المجنون ، الملعون ، الملفوظ الى خارج المجتمع ، الصائح بسخط :

ـ « ··· ايها العادلون سنبول في بطونكم الصخرية ! ··· »

يجاهر رامبو في « فصل في الجحيم » بانه كان محقا في كل احتقاراته والا لما كان هرب · كل الناس اشقياء وهو

اولهم · انه يعرفهم جميعا · لا احد منهم يجهل الآخر · انهم لا يضمرون ذرة من الحب لبعضهم · لكن معشر التجـــار والناس البسطاء والبشر العاديين المنتمين الـــى الطبقـــة المتوسطة · هؤلاء ، المحافظين على علاقات لائقة متبادلـــة ، والحريصين على كرامتهم ونظافة مظهرهم ، كيف عساهـــم يبدون في نظر المتفوقين ، ونقصد المتميزين لا عن جدارة او موهبة او استحقاق ، بل اولئك الانتهازيين الوصوليين ، الذين يحسنون استغلال الفرص بوحشية ، وهضم حقوق الغيـــر ، والتغذي من ضعف المساكين ، والذين يحتاج المرء للتقرب منهم الى رصيد من الجرأة ، او نازع الى الذل · ان مواهبهـــم هي النوع الوحيد الذي ينجح ويعترف العامة بفعاليته · انهم عمالقة مزيفون وليس هم من يجدر به اصدار الاحكام ، ولا اضفاء القيمة على الاشياء او تجريدها منها · انهم آخر من يحق له ان يبارك او يلغى من نقطة الاستعلاء ·

يشبه رامبو نفسه في « فصل في الجحيم » بمحكـــوم عليه بالاعدام يبكي لان الجمهور الغاضب الناقم الملتف حول مقصلته يسيء فهمه ، ويدينه زورا وبهتانا · لكنـــه يغفـــر لظالميه ، ويود مخاطبتهم قائلا : ايها الاساتـــذة والكهنـــة والاسياد ، انكم تخطئون بتجريمي وتسليمي الى العدالة ·. انا لست من طينتكم وفصيلتكم · انا لا تنطبق علي قوانينكـــم وشرائعكم · انا لست مسيحيا كي تحكموا علـــي وفقـــا للاخلاقية الدينية :

ـ « ··· اني من الجنس الذي كان يغني في العـذاب ،

اني لا افهم القوانين ، ليس عندي حس اخلاقي ، اني وحش : انكم مخطئون ... »

لا يوجد خير وشر بدون سلم قيم . ان الفضيلة والرذيلة هما تصورات شخصية ، وافتراضات نسبية ، وتقاليد موروثة:

ـ « ... اظن نفسي في الجحيم اذن انا فيه . هذا تنفيذ التعليم المسيحي . اني عبد معموديتي . ايها الاهل لقد صنعتم شقائي، وصنعتم شقاءكم. يا للبريء المسكين ! الجحيم لا يستطيع مهاجمة الوثنيين ... »

ان الشريعة الخلقية التي سنتها المسيحية ، والتي تبناها المجتمع هي التي اوجدت مفاهيم الصلاح والخطيئة . اني احكم على عمل من اعمالي بانه حسن او رديء تبعا لمطابقته لو لمخالفته لهذا الناموس الديني ، وعلى هذا الاساس اروح اعذب نفسي ، واعاني من تانيب الضمير بينما الوثني هو بمنجى عن كل هذه الاوجاع النفسية . ان اهلِ رامبو هم سبب بلواه . اذ انهم بتعميدهم اياه وتلقينه التعاليم المسيحية استعبدوه لهذه الوصايا المقدسة . وهم بذلك انما يورطون أنفسهم هم أيضا ، لانهم يتألمون لا شك عندما يرون ابنهم يعصى هذه الاوامر المنزلة ، ويسير على طريق الضلال . ان القصاص مستحيل الا بالنسبة لقانون يعاقب الخارجين على بنوده . اما بدون نظام خلقي مضمون من قبل سلطة الهية فانه لا يوجد كفارة ، وبالتالي لا يوجد جحيم .

من هنا ان رامبو يعرب في ختام « فصل في الجحيم » عن

اعتقاده بانه قد انهى مدة عقوبته ، وقطع علاقته بذلك الجحيم القديم ، الذي فتح المسيح ابن الانسان ابوابه بيديه ٠ اذ لولا الفضيلة لما كان هناك رذيلة ، ولامعايير خلقية ، ولولا لـوح الشرائع المقدسة لما كان هناك خطايا ، الا يقول الانجيل :

ـ « ٠٠٠ لو لم اجىء لما كانت لهم خطيئة ٠٠٠ »

يصرح رامبو في « فصل في الجحيم » بان مشاعـــره الدينية تستيقظ في لحظات العذاب والالم ، وهذا من النتائج السيئة لتربية الطفولة ٠ (الم يتشاجر ذات مرة وهو فـــي الثانية عشرة من عمره مع بعض التلاميذ الذي يكبرونه سنا، لانهم دنسوا المحرمات بان رشوا بعضهم بالماء المقدس علـــى عتبة كنيسة المدرسة ؟) الم يبلغ حماسه الكاثوليكي الاوج لدى مناولته الاولى ؟ ان الخوف من الموت هو اقرب حافز الى التقوى ٠ ان الجبن والضعف يدفعنا الى التهافت في احضان الايمان ٠ لكن لو استعاد الانسان قوته وعنفوانه لتخلى عـن كل هذه المعتقدات الوهمية ٠ لقد تلقن رامبو ، منذ الصغر ، تاريخ فرنسا ، والكنيسة ، والحروب الصليبية ٠ ولطالمـــا سافر بخياله الى الارض المقدسة ٠ ان عبادة مريم العذراء ، والحنان والشفقة على المسيح المصلوب لا تزال حية في قلبه ، راسخة في وجدانه رغم الحاده ٠ انه لم ينس ما علموه ايـاه في المدرسة عن تراث القرون الوسطى المسرفة في ايمانهـــا بالدين والسحر والخرافات ٠ انه لا يستطيع ان يتصور نفسه خارج اطار الوطن الذي ترعرع في ربوعه ، والدين الـذي

تربى في كنفه · لكنه يرى ذاته دائما وحيدا بلا عائلـــــة ولا مسيح ولا كنيسة ·

في قصيدة « المناولة الاولى » يؤكد رامبو ان الولد مدين بتربيته الدينية لاهله ، الذين يفرضون عليه الاخلاقية المسيحية المبلدة للحس ، الخانقة للروح ، والذين يدفعون للكاهن اجره مقابل ان يفسد عليهم حياتهم ، ويحرمهم بهجة العيش · ان اول قربانة تؤرخ صك عبودية الفرد لوصايا الله ، معهـــــا· يستيقظ في وعي الانسان الحس بالخطيئة، ويتراءى له ان كل شهواته وغرائزه الطبيعية هي شر واثم · لكن ماذا تنفع كل هذه المحاذير القذرة المجنونة التي تشوه حياة المرء بما تدخله الى العالم من روح التوبة والالم والشعور بالذنب والشفقة والحقد ؟ ما جدوى كل هذه المحرمات عندما يتحلل الجسد ويتلف، ويصبح عاجزا عن الاستمتاع، بعد ان يكون قد صام عن كل لذة حين كان قادرا على اقتناصها · حين يموت دون ان يكون قد عاش فعلا · ما قيمة هذه العقلية الدينية التـــي تورثنا الشعور بالندم والاثم بعد ممارسة الحب ، الذي يصبح تحت ضوئها سبيل الموت والحزن لا بؤرة الحياة والفرح ، التي تفسد علينا جو عمرنا ، وتعلمنا القرف من كل شؤون الارضــ الحسية ، والتي تلقي في روع المرأة ان العشق عهـــر ، وان عواطف الهوى والهيام خطايا وذكريات شائنة ، يجـــب ان تمحوها من بالها · ان قبلة المسيح هي اشبه بوباء ينقــــل العدوى الى باقي اعضاء الجسم فيسممهـــا ، ويشحنها بالمرارة والاسف واللعنة ، ويحظر عليها بحقد وغضب ان تنعم باي من مشاعر الحب الجميلة :

ـ « ••• ايها المسيح ! يا ايها المسيح ، يا سـارق الحيويات الخالد ••• »

يهتف رامبو مضيفا : انت يا من حكمت على النساء التاعسات بالذل والعار والعبودية والشحوب والمرض •

لقد تخلى الله عن البشر ولم يعد يبالي بآلامهم او يمد لهم يد المساعدة • انهم لا يستطيعون بعد انتظار الخلاص من لدنه • فبينما يسقط الوف الشباب قتلى في ميادين الحرب وساحات الوغى ، ينام هو مرتاحا خلف مذابح الكنائس المزدانة بشراشف الاطلس ، المحاطة بالكؤوس الذهبية ، المضمخة بعبق البخور ، تهدهده ادعية المعلنين وتضرعاتهم • وجل ما يفعله الكهنة بالنسبة لامهات الضحايا الباكيات على فلذات اكبادهن هو جمع التبرعات منهن ،وابتزاز هذه القروش القليلة التي تعقدها تلك النسوة البائسات باطراف مناديلهن • لا ان رجال الدين عاجزون عن انقاذ معذب ، من قلقه ، او مساعدة محتاج ، او تعزية محزون • وهكذا يحاول رامبو في قصائده الاولى انكار وجود الله باستعماله الحجة التقليدية : تفشي الظلم والشر والبشاعة في العالم • كما انه يلصق بالاكليروس التهمتين المعهودتين اللتين طالما وجهها اعداؤهم ضدهم ، ويستخدم لتحقيرهم الوصمتين الخالدتين: الشراهة في الطعام ، والكبت الجنسي الذي يولد الانفجار • فالراهب المنزوي في غرفته يصبح فريسة للاحلام الشهوانية ، لان العزلة تطلق الغرائز من عقالها، حتى يرى الناسك الصور الاباحية في ابسط اشياء واثاث صومعته ، وحتى لترود اطياف

النساء المغريات في محبسه معذبة جوعه الجنسي كالسراب الذي يلوح امام الظامىء في الصحراء ·

ان رامبو ينعت المسيح بانه شاعر شاب يثور على ما يراه حوله من قبح وفساد (طرد الصرافين والتجار من الهيكل)، لا يخلو احيانا من نزعة كبرياء انثوية وطفولية ، حساس لجمال المساء مثلا ، يلذ له السير وحيدا في دروب الليل المقفرة ، وتأمل الورود ، والاعشاب المشعة بالوانها السحرية والمفرخة بين بلاطات الطريق ، والحقول الغبراء والزهور والسنابل الرازحة تحت وطأة الحر والضوء · ان السامرة المدينة الغنية البطرة ليست ابدا مهيأة لفهم الحقائق الروحانية العالية التي اتى بها المسيح · انها عبدة الترف والرتابة والتقاليد وحاميتها · ولقد ذبحت العديد من الانبياء الذين جاؤها بحقائق جديدة تزعزع المفاهيم القديمة ، وتهز البنيان الاجتماعي الذي ارست عليه قاعدتها · ومن هنا ان قول المرأة السامرية ليسوع انت نبي ـ (ففي ذلك الوقت كان الرجال والنساء يؤمنون بالمرسلين اما في العصور الحديثة فلقد باتوا يتطلعون الى رجل الدولة) ـ هو نذير شر · وهكذا على مقربة من السامرة ، وعاجزا عن الدفاع عن نفسه اذا عرف سكانها انه نبي ، لا سيما وانه قد افتضح امره بسبب غرابة تصرفاته واقواله ، لم يسمع المسيح سوى الرحيل والابتعاد عن هذه المدينة ، معلنا ان ليس لنبي كرامة في وطنه · فالحوار مقطوع بينه وبين اهل بلده القاصرين عن فهم تعاليمه · ترى هل يوحد رامبو هنا بين مصيري النبي والشاعر ؟ ربما ·

ان قصيدة « تصوف » في « الاشراقات » تؤكـــــد ان الانسان ملاك يتشح احيانا بثوب الطهارة ، يزهر الامل فــي قلبه ، ينضح بالقوة والجمال · لكنه ايضا شيطان يبعـث العذاب بألسنة نيرانه من اعماقه السفلية · تارة تشرق شمس الخير في افقه ايذانا بحلول عهد النعمة والتقدم · وطـــورا تتلبد سحب الشر في فضائه وتتكاثف منـــذرة بالاجـــرام والحروب والكوارث · ينتمي أنا الى هذه الارض بهمومهـا ومشاكلها واحزانها ، وأنا آخر الى السماء المكوكبة بالنجوم بعذوبتها المشعة بالنور ، المزهرة بالبركات ·

كما ان رامبو يقول في مسودة احدى مقطوعاته النثرية الانجيلية غير المنجزة « بيت صيدا » ان لحظة ضجر ، ان يوما حالكا ممطرا كئيبا يغرقنا في الجحيم ، ويفجر كل طاقات الشر الكامنة فينا · لكن رب اشعاع صغير من الشمس يبعث الملاك الهاجع في اعماقنا ، يغسلنا من كل اثامنا ، ويطهرنـا من كل مفاسدنا ، ويفتح ابواب نفوسنا للخير · لكن النعمــة تمضي بسرعة كوميض البرق ، ولا يلبـــث شيطاننـــا ان يستيقظ من جديد ، ويروح يردد ثانية في الاماكن التي اعتاد ان يحصل فيها على حصيلة من الآثام والشرور والخطايا ، فتزايلنا طبيعتنا الملائكية ، وتتلبسنا طبيعتنـا الجهنميـــة · فالانسان كي يبرأ من الدنس والعاهات النفسية بشكل نهائــي لا بصورة آنية عابرة يحتاج الى اعجوبة حقيقية ·

ان ثورة رامبو موجهة ضد كل سلطة عسكريـــة فهو في قصيدة « استعراض » من « الاشراقات » يصف استعراضـا

عسكريا اتيح له مشاهدته : انفار اشداء مضحكون من اولئك الرجال الاشاوس الذين يستثمرون الجميع ولا يسمحون لاحد باستغلالهم ، الذين يعرفون كيف يحصلون حقوقهم ، والذين يدوسون الآخرين باقدامهم متقدمين نحو اهدافهم · ليس لهؤلاء الجنود حاجة ضرورية ملحة ، او منفعة آنية ودائمة ، وقد لا يضطرون ابدا الى اظهار كفاءتهم القتالية ، او التعبير عن عواطفهم القومية المتأججة ، والدفاع عن الوطن ، وحماية الشعب · انهم رجال ناجحون وفحول كاملون · عيونهم تقدح شررا ، وجوههم لفحتها الشمس والريح مكتنزة او هزيلة ، حمراء او شاحبة · اصواتهم ترسل بحات مرحة ، مشيتهم تتمخطر بصورة احتفالية صارمة · يوجد بينهم بعض شبان يافعين ، لكنهم فقدوا تلك النظرة البريئة التي يتحلى بها الفتيان الطاهرون ، الذين بدأوا يحسون بالحب العذري العفيف يدغدغ قلوبهم ، دون ان تنغمس اجسادهم بعد في حمأة الشهوات الجنسية · ان اصوات هؤلاء المراهقين قد اخشوشنت قبل الاوان ، وطاقتهم الشقية المتفجرة في وقت مبكر قد اوصلتهم الى مرحلة حرجة خطرة · ومن هنا انهم يأخذون مأذونية ، ويروحون ويتمخطرون في الشوارع ببزاتهم الانيقة ، المثيرة لقرف رامبو ، متسابقين نحو ملاهي ومباني المدينة لاشباع غرائزهم المتطلبة ، وارواء ظمأ رغباتهم المتعطشة · ان مشهد هؤلاء المحاربين الغريبين ، الضعيفين ، الجامحين ، السريعي الغضب ، يتناقض مع صورة فقراء ومساكين ودراويش الشرق الهادئين المسالمين · انهم ، بزيهم الرسمي ، المصمم بقلة ذوق ، اشباح كابوسية تقوم بتمثيليات

هزلية ، وتؤدي ادوار ابطال مأساويين ، لصوص ، وانصاف آلهة ، لا تنطلي خدعتها على رامبو ، ولا يقتنع بها اطلاقا ٠ ان ملامح بعضهم تشبه سحنة الصينيين ، وبعضهم الآخر يحاكي وجوه الزنوج ٠ ان منهم من هو قريب الى هيئة الغجر ، ومنهم من هو ند لمصاصي دماء البشر ٠ بينهم الاقزام وبينهم العمالقة الجبابرة العتاة ٠ فيهم الضباع ،وفيهم المجانين او الابالسة التاعسون ٠ وكما في كل استعراض فان هؤلاء الجنود ، الذين يعرفون ان هناك عيونا تراقبهم من الخارج ، يصبحون غصبا عنهم ممثلين ومهرجين ، يوالون امام النظارة وصلات طاووسية ، وبطولات مصطنعة ، وحماسات قومية مفتعلة ، متلاعبين بمشاعر الجمهور الوطنية، متظاهرين بالتفاني والتضحية في سبيل الشعب والمصلحة العامة ٠ وبهذا الاسلوب يضربون المتفرجين على الوتر الحساس ، ويمارسون سحرا عجيبا عليهم ، ويشدونهم اليهم بجاذبية مغناطيسية ٠ حتى ليندمج المشاهدون مع ممثلي المسرحية ، ويتفاعلون معهم فيلتهبون حماسا ، وتتأجج عصبيتهم الاقليمية ، ويضج الدم الحار في عروقهم ٠ الصدور تنتفخ بريح البطولة ، العيون تدمع من التأثر ، القلوب تخفق بروح النضال والكفاح ٠ ان الخدعة التي ينشرها الجنود حولهم خلال الاستعراض قد تستمر في ممارسة مفعولها على عقول وعواطف الناس لمدة دقيقة او لفترة شهور عديدة ٠ لكن رامبو هو الوحيد الذي لا تنطلي عليه هذه المهزلة ولا لثانية ، والذي يكتشف زيفها ويعرفها على حقيقتها ، ويدرك ان

الحساسية القومية والروح القتالية ليست سوى بربرية لا تمت الى المدنية بصلة ·

كما انه يندد في قصيدة « ديمقراطية » من « الاشراقات » بالمشاعر الوطنية التي تقود الى ابشع المظالم · اذ ان الحماس القومي يغذي النزعة العسكرية العدوانية والاجرامية احيانا· انه ينتقد ويفضح اساليب السياسة الديمقراطية الاستعمارية التي تفشت في فرنسا واوروبا في اواخر القرن التاسع عشر، والتي هي حقارة وانحطاط وعهر · انها بما تثيره من استغلال وظلم للشعوب المستعبدة تدفعها الى ثورات محقة وعادلة ومنطقية · ثم تعمد الى قمع هذه الحركات التحررية بالبطش والوحشية · ان الفاتحين يسلبون المواد الخام الموجودة في المستعمرات لاستعمالها في صناعتهم الناشئة ، وذلك بقوة السلاح والاحتلال العسكري · ان هؤلاء الغزاة الغاصبين مستعدون للمغامرة والرحيل الى اقصى الابعاد سعيا وراء الكسب والسلب والنهب ، ان هؤلاء المتطوعين الاختياريين لا يتورعون عن الذهاب الى آخر المعمورة ومجاهل الارض لتحقيق مآربهم ، وهم يجدون المسوغات لتصرفاتهم الهمجية السافلة في فلسفة عنصرية رجعية تبيح للقوي هضم حقوق الضعيف ، وتلقي على عاتق العنصر الابيض المتفوق مسؤولية تمدين الملونين وبقية الامم المختلفة · انهم لا يفهمون من معطيات العلم الا ما ينتج عنها من اختراعات عملية · انهم يتكالبون على الرفاهية والترف والكماليات ، انهم جشعون ، انانيون ، يسيرون على جثث الآخرين لبلوغ غاياتهم · ان هذا

التنازع على البقاء هو ما تنادي به نهاية القرن التاسع عشر وتحله اعلى مرتبة تحت شعار التقدم والتطور ·

ان ثورة رامبو تستهدف كل سلطة حكومية ·

فهو في الفقرة السادسة من قصيدة « جمل » في « الاشراقات » يهتف : بينما تهدر اموال الدولة على اقامة الاحتفالات الوطنية والاعياد القومية الزاخرة بمعاني التآخي والتضامن الانساني ، فان بشائر الثورة تلوح في الافق ، واجراس التمرد الحمراء تقرع بين غيوم المستقبل ·

انه معجب بكومونة باريس ، التي بلغ من حماسه لدى سماعه بقيامها انه توهم ان حركة العصيان على السلطة هذه، التي اندلعت في آذار عام ١٨٧١ ، ستسفر عن نتائج ايجابية تفوق انجازات الثورة الفرنسية الكبرى · وانها تؤذن بان عهد الضلال قد دالت دولته ، وان حكم الطغيان قد انقضى الى الابد ، ان عصر الخرافات القديمة قد ولى الى غير رجعة ، وان فجرا جديدا سوف يشرق على الانسانية مزودا الفرد بقدرات فكرية وروحية مدهشة · ومما يؤثر عنه انه راح ذات مرة يشرح اهداف الكومونة لكسار حصى مرددا امامه بحمية وايمان صادق : لقد ثار الشعب من اجل الحرية والخبز ، وهو سينتصر نهائيا بشيء من المجهود ··· ان كل العمال يعانون من البؤس ، ويجب لذلك ان يتضامنوا جميعا ، وان يحملوا السلاح يدا واحدة في وجه الظلم · وهو يتغنى في احدى قصائده ببطولة امرأة باريسية ثائرة لوحت الشمس

يديها القويتين ، اللتين لم تخلقا للانصراف الى اللهو والترف ، ولا الى الحب والاوهام والاحلام ، واللتين لم تخشوشنا من العمل في متجر او مصنع ، ولا من الاعتناء بالاطفال والقيام بالاعباء المنزلية ، بل اكتسبتا الصلابة والضراوة من التمرس بدق اعناق الاعداء · ان صاحبتهما وجدت لتغني اناشيد الحرب ، لا لتترنم بتراتيل الكنيسة · ان اصابعهما جبلت على خنق النساء الفاسدات ، والسيدات الثريات المترفات الانانيات ، وعلى التمترس خلف الرشاش في خنادق باريس المتمردة ·

في ربيع عام ١٨٧١ كان « ثيير » Thiers ، الذي هرب الى فرساي اثناء احداث كومونة باريس الدامية ، يحاول استعادة السلطة · وكان يلقي القنابل على العاصمة الفرنسية، ويبطش بالثوار ، ويحاول قمع حركة التمرد والعصيان المدني بوحشية · بينما كان الشعب يعاني من المجاعة ورداءة الاحوال · وان رامبو ليتهجم في احدى قصائده على « ثيير » واعوانه التافهين ، الذين يشعلون الحرائق في باريس ، والذين هم من فصيلة اولئك الساسة الفاشلين الذين وقعوا معاهدة الاستسلام بعد الهزيمة مع الالمان ، والذين يذرفون دموع التماسيح على آلام الامة الفرنسية ابان كل محنة ، ويتوعدهم بان الشعب لن يستسلم للقمع والارهاب ، وانه سيدك عروش الطغاة ، ويزلزل الارض من تحت اقدام كبار الملاكين المحتكرين الجشعين ، الذين يستثمرون خيراته ، ويستغلون تعبه ·

ثم يصف رامبو ، في قصيدة اخرى ، باريس بعد انتهاء

الكومونة : ها ان المدينة التي رقصت فوق براكين الغضب ، ومزقت الخناجر صدرها تشرب من جديد من كأس الحياة ، بعد استتباب الامن والنظام ، وعودة الامور الى مجراها الطبيعي · ها ان الشوارع التي داستها ذات مساء اقدام المقاتلين البربرية واضاءتها تفجرات القنابل الحمراء تدب فيها الحركة ثانية · ان عيون الرجال المحاربين المتأججة بالشر والحقد والغضب فيما مضى ، تمتلىء الآن بجنون الانسان الراكض وراء ملذاته في الليل المليء بالاغراء ،العامر بالمتعة والمجون ، والذي تتميز به باريس وهي مدينة بلا قلب لا تعبأ بسكانها · فسيان عندها ان يكونوا من المرضى او المجانين ، من الملوك او المهرجين والمشعوذين · انها تمص دم ضحيتها ، ثم تطرحه جانبا كالليمونة المعصورة · انها عاهرة تدير ظهرها لعاشقها بعد ان تكون قد جردته من كل ماله وصحته · لكن رغم فجورها وانحلالها فانها تظل غنية بالجمال في نظر الشاعر ·

نعم ان عيون رامبو مغلقة دون نور الناس ، انه همجي ، انه زنجي · لكنه يستطيع الحصول على الخلاص · لانه رغم كل فساده اقرب الى الفضيلة من الزنوج المزيفين ، اي كل تلك الذئاب المفترسة من اصحاب نزوات انانية ، وتجار ، وقضاة وحكام ، وعسكريين ، وقواد ، وكافة اعمدة المجتمع الخبثاء ، الذين يرتكبون الاثم في الخفاء ، ويعلنون غير ما يضمرون ، ويسترون نقصهم وعيبهم ، آفاتهم وعاهاتهم ، خلف مظهر من الوقار المصطنع · انه يحقد على كل هؤلاء العتاة الظالمين ،

الذين يبحثون عن ضحية بريئة يعملون فيها انيابهم الحادة ٠ ويكره زيفهم ورياءهم ويود ان ينزح عن قارتهم ويهرب من جوهم ويرحل الى عالم السذاجة والغفلة ، ان يهجر بلاد الزنوج المزيفين ليدخل وطن الزنوج الحقيقيين ٠ الم تفقده حياته ونشأته في اوروبا معنى العفوية والبساطة ؟ هل يعرف بعد ما هي طبيعته وفطرته الاصلية ؟ فلينس كل شيء وحتى الكلمات ٠ فلنطو صفحة الماضي كلية ، وليعد الى الحياة البدائية ، متجاهلا اللحظة التي سيلاحقه فيها الرجال البيض الى الجزيرة النائية التي ابحر نحوها ، ويطاردونه الى النقطة القصية المجهولة التي استجار بها من اذاهم ، حاملين معهم الهموم والمشاكل المألوفة ، والسموم والمرارات التي فر من جورها ٠٠٠ لكن ها هم بالفعل يحطون الرحال على الشاطىء الذي انسحب اليه ، مزودين باسلحتهم الهجومية ، وعداواتهم التقليدية ٠ انتهى الامر ٠ ويجب ان يخضع لهم ، ويرضخ للامر الواقع ، ويقبل باخلاقيتهم والفضائل التي تفرضها عليهم معموديتهم وانتماؤهم الى الدين المسيحي ٠ ان يهتم بالمظاهر الخارجية ، ويختار له مهنة مكرسة ، ومعترفا بها من قبلهم ٠ يجب ان لا ينقل الى الآخرين عدوى قرفه وفساده وشذوذه وغرابته وأسقامه الروحية ٠ انه يفضل ان يرهن روحه عند الشيطان ، ان يستسلم لاحط الغرائز ، ان يدنس المحرمات ، ويتهجم على المقدسات ، ان يحطم القلوب ويؤذيها دون رحمة ، ان يكذب ، ان يأثم ، من ان يخضع للنظام والقانون والاعراف المرعية والتقاليد السائدة ، ويعيش حياة

الدعة والتفاهة والفتور التي هي مجرد استمرار بليد في البقاء لا يكاد يختلف عن الموت البطيء ، حياة الجمود والاسن والاختناق الخالية من الاخطار ، التي هي قدر الجميع ، والتي ليست في الحقيقة معاشة على الاطلاق ·

ـ « ··· على كل حال هناك شيء هو مستحيل بالنسبة لي : حياة القعود ··· »

قال ، في احدى رسائله ، رامبو الذي كان يمضي في صباه الباكر متجولا بخطى مسرعة تحت السماء الصافية المكوكبة بالنجوم ، واضعا يديه في جيوبه المثقوبة ، مرتديا سترته البالية ، وسرواله الرث ، خفيفا كالريشة بقلبه الفائض بالشعر ، المغمور بالاحلام والاماني العذبة ، محمولا على اجنحة الامل والفرح ، مدندنا قوافيه باتجاه حانة السعادة المتراثية له عند افق الدرب ، التي كان يجلس احيانا على حافتها في اماسي ايلول الرائعة ، يرتاح قليلا مبللا بعرق العافية المتقاطر من جبينه ، كالندى فوق الزهور ، وكأنه وهو يربط سيور حذائه المهترىء من كثرة المشي ، شاعر جوال يدوزن قيثارته ، ويشد اوتارها التي هي شرايين قلبه ·

ان سر عذوبة النزهة وسحرها هو انها عيد صغير ، وعمل مجاني ، وغاية ذاتها ، وهي بذلك انما تشبه الشعر · انها تحمل لنا معنى المغامرة ، وامكانية العثور ، على منحنى طريق ، على مفاجأة مثيرة او طرفة مبتكرة : شجرة ، زهرة ، او مشهد غير منتظر · انها تسمح لنا ان نلقي نظرة بكر على

العالم ، وان نهرب من الهموم والمشاكل النفعيـــة المتحكمــة فيه ، فنترك بالتالي ما وراءنا ونندفع الى الامام ، نديـــر ظهرنا للماضي وننهدف نحو المستقبل · انها تتيح لنا ان نبث السرعة في ايقاع الوقت ، وان نشعر بحريتنا المطلقة وســط عالم جديد يروح يولد امام اعيننا دون انقطاع · لكن لكـــي تثمر النزهة شعريا ، لكي تتمخض حقا عن احـــلام غنيـــة ومخصبة للالهام ، يجب ان يكون السائر علـــى دروبهـــــا وحيدا ·

وغالبا ما كانت تشردات رامبو الطويلة على الطرقات تقوده الى بلدة مجاورة ما ، فكان يدخل حانتها عند الغســق بعد رحلة شاقة سيرا على الاقدام ، ويطلب عشاء ويجلســـ مسرورا على كرسي مريح ، ممددا رجليه على الطاولـــــة ، متاملا بنشوة الصور الساذجة المعلقة على جدران غرفــــة الطعام المعتمة ، التي تفوح منها رائحة عطنة ممزوجة بفوح الفاكهة ، مصغيا بلذة الى دقات الساعة · ثم فجأة كان يفتح باب المطبخ العابق بضوعه الزكي ، وتخرج خادمة حسنــاء ممتلئة الجسم ريانة بالصحة ، مرتدية ثيابا اباحيــة عمدا · وتروح تغويه بنظرات وابتسامات غانية لعوب · وتصـــــف الصحون امامه مداعبة بشرته الوردية باصبعها ، مؤشـــرة بفمها علامة تكشيرة صبيانية كلها فتنة واغراء · وكانت تفتعل لتستثيره انها ترتب السفرة ، وتحتك به قصدا ، وتوشوشه بغنج ودلال لتحصل منه على قبلـــة : تحسســـــ بشرتي لقد تلقيت هبة من البرد على وجنتي · فيما يروح يأكل بشهيـــة عظيمة ، وتغيب الشمس في الخارج ·

يقول رامبو في احدى رسائله الى ارنست دلاهاي :حذار ان تدفن نفسك في مكتب الوظيفة ، او في منزل العائلة ، ان اي نوع من البلادة والتفاهة والجمود الذهني يظل مقبولا خارج هذه الاماكن ·

وهكذا نسمعه يعلن في « فصل في الجحيم » انه قد تسكع في معظم بلاد اوروبا ، وتشرد على الطرقات في ليالي الشتاء دون مأوى ، دون ثياب تقيه غائلة البرد ، دون مأكل ، ملبيا نداء صوت خفي لا يقاوم يخطف قلبه نحو البعيد والمجهول ، يغريه بالسفر ، يدعوه الى المغامرة ، ويحثه على الرحيل لا يعلم وجهة سيره ، ولا يدري غاية نزوحه · المهم ان يقتحم المجاهل ويكون مستعدا لتقبل كل الاحتمالات · ومم عساه يخاف ؟ ليس عنده ثمة ما يخسره · ان شجاعته هي تهور المجنون ، الذي لا يقدر العواقب ، ويستخف بكل امور هذه الدنيا · ولكم عاد من هروباته وجولاته الهوجاء ضعيفا محطما ، مريضا جائعا ، بنوع ان ابناء بلدته ما كانوا ليتعرفون عليه ، ويتبينون هويته · ولكم من رؤى شعرية عجيبة تبدت له في المدن الغربية التي زارها ، حيث كانت بركة الوحل مثلا ، تلوح في عينيه مرآة ينعكس عليها مصباح تهزه يد في الغرفة المجاورة ، والسماء تتكشف له عن بحر من الحرائق والدخان ، والوف من الاخيلة المسحورة تبرق حوله من كل جهة ·

ان نزعة رامبو الدائمة الى الهرب نابعة من عجزه عن

تحمل ضراوة الواقع · وهكذا وجد نفسه ذات مرة على اثر احدى مغامرات التشرد مقطوعا في مدينة غريبة (ربما لندن او ميلانو) فآوته ارملة غنية لعلها وقعت في غرامه او رق قلبها العطوف لحاله · ولقد كان في وضعه عند هذه السيدة اشبه بعصفور مهاجر ، محصور في قفص يتوق الى الحرية · لكنه لا يستطيع الانطلاق الى ما هو ابعد من عتمة زوايا هذه الغرفة التي تأسره بين جدرانها في هذه الامسية المشهودة · وهكذا ظل رامبو بين ذراعي هذه الحسناء الارستقراطيــة كدب كبير مريض ، كئيب ، شارد بنظره الى الخارج نحــو اثاث هذا المنزل الفخم ، الذي يتوق الى الهرب من صاحبته والانصراف عنها بعيدا · وهذا ما حققه بالفعل بعد ان امضى ليلة حب بين احضانها ، اذ انه فر في صباح الصيف الباكر ، وطفر الى الحقول في ضواحي المدينة ، حاقدا على نفســه لانحطاطه وارتكابه مثل هذه الحماقة ، نادما لانــه استسلـم للاغراء ويظل هكذا الى ان يذعن للاغواء مــرة اخــرى ، ويتورط في نزوة طائشة جديدة ، ويقع في احابيل الخطيئـة ثانية · لانه لا يتوب ولا ينصلح · ولقد وجدت هذه التجربـة الحياتية تعبيرا عنها في قصيدة « بوتوم » (Bottom) فــي « الاشراقات » ·

نعم لقد كان على رامبو ان يسافر ، ان يهرب كي ينجو من تلك الافكار الشريرة التي تراود عقله كما يصرح فــي « فصل في الجحيم » وعلى الطرقات ، التي طالما احب التشرد عليها لانها تغسله من اوساخه واحزانه واكداره غالبا ما كان

يلوح أمامه اسراب الخلاص والعزاء والامل ·

انه يحب الطبيعة والهواء الطلق وتعاقـــب الفصـــول وتوالي ساعات النهار والليل · ان الفرح هو هدفه هو قدره· ان ندم على فرحة في الماضي فهو على السعادات التي لـــم يستطع اقتناصها · وان تاق الى امنية في المستقبل فهو الى ارواء ظمئه من ينابيع النشوة ، وارتياد مناهلها العذبـة · وهذه الشهوة الى الفرح والتكالب على عطاياه هي التـــي تمنعه من تركيز جهده في عمل معين ، وتكرس نفسه لكتابـة الشعر · ان سكرة الغبطة تاتي في المقام الاول عنده ، تنسيه كل واجباته وتطغى على جميع اهتماماته الاخرى · وفي احلك المدن واقسى الظروف كم من مرة كان الفرح ينشر شراعـــه في قلبه ، ويقلع به على ايقاع صياح الديك · كم من مرة كانت اجراس الفجر تبشره بان وقت الهناء قد حان ، وان عليه ان يتقدم منتفخا بالامل نحو وعود السعادة المنشورة امامـــه بسخاء · وان يرشف كاسه ثملا بخمرة الروح المذهلة · وفي مثل هذه اللحظات المباركة اية فصول عجيبة لم يكن يحلـم بمعاصرتها ، اية قصور مسحورة لم يكن يتوهم سكناهـــا · وعندئذ كان يرضى عن نفسه ، فيتساهل مع اخطائه السابقة ، ويصفح عن زلاته القديمة ، ويتسامـــح عن عيوبـــه ، ويدرك انه يستمتع بسعادة لم يعط لانسان آخر ان يذوقها ، فـــرح كياني ليس له اي مبرر خارجي ، قد ينتج عن مجرد وجوده متجولا في الهواء الطلق على مشارف قرية فرنسية ، حيـــن كان يشعر بالاكتفاء ، وبانه لم يعد يريد شيئا على الاطلاق ،

لان كل رغباته قد تحققت ، ولان الحياة قد بلغت في مثل هذه الهنيهة الخاطفة ملء كمالها • ان هذه الغبطة كانت تستولي على رامبو فجأة دون مقدمات ، وتعفيه من بذل اي مجهود حتى لقد كان يشعر بعد زوالها وانتهاء كل هذا الامتلاء والخصب والغنى بخيبة مريرة ، بفراغ وموات وفقر داخلي ، وكأنه كان يحلق في السماء وفجأة انقطعت به الخيوط وطرحته على الحضيض • لكن بما ان هذه الحالات الخارقة من الفرح قد دالت دولتها ، واصبحت من مخلفات الماضي • بما انه لم يعد يستغرق في خدر النشوة كما كان يفعل في السابق ، فانه يستطيع بالتالي ان يكرس بعض الوقت لكتابة الشعر •

وهو ذا رامبو في « فصل في الجحيم » ايضا يصف وقفته في الميناء امام الباخرة الموشكة على الاقلاع ومغادرة اوروبا • ان تلهفه الى السفر لا يقاوم • فلا الشوق الى الوطن ، و لامحبته ارض الاجداد ، ولا الرغبة في العودة التي تتملك المسافر وهو يغادر بلاده ، اذ يرى خلف ظهره اضواء مدنها وهي تشع عند المساء وتدعوه الى الرجوع ، ولا اي من اصوات الحنين الاخرى بقادرة على شده الى الوراء ، وابقائه مكانه ، وحمله على الاقلاع عن فكرة الرحيل • ان يوم عمله في اوروبا قد انتهى ، ولا بد له من الانصراف • ان هواء البحر يعصف بشراعه ، ونداء المناخات الغريبة والآفاق المجهولة تجتذبه بشدة • انه يحلم بالمشاريع التي سيحققها هناك في البعيد • سيسبح على شطآن مجهولة ، سيذوق ثمارا

غريبة لم يختبر نكهتها من قبل ، سيصطاد وحوشا فريدة نادرة ، سيتسكع متفرغا ، متناسيا كل اعبائه وهمومه ، متنزها ، متفرجا ، جواب آفاق ، متخففا من كل مسؤولية ، غير خاضع لعبودية الغير واحكامهم · سيثمل من كحول عجيبة وقوية ، سيشرب بضراوة ووحشية اسلافه القدامى وهم يترعون الكؤوس حول نيران المدفأة · حتى اذا ما عاد الى الوطن بعد غربة طويلة ، وقد لوحت الشمس بشرته ، واكتسبت ملامحه مظاهر القوة ، واتخذ هيئة الرجال العتاة ، وجمع كمية من الذهب تكفيه لان يعيش بقية حياته دونما حاجة الى القيام بأي عمل لتأمين رزقه ، فلسوف تحيطه النساء بالعناية ، لانهن يسرعن عادة الى الالتفاف حول هؤلاء المهاجرين العاجزين والمتوحشين في آن معا ، الراجعين من البلاد الحارة اثرياء · وربما اشترى له بنقوده منصبا حكوميا وجاها عريضا يكفل له مستقبلا معززا مكرما ، وتحيطه بالرفاهية والراحة حتى آخر يوم من عمره · لكن هذا مجرد حلم · اما الآن فانه لا يستطيع السفر · لقد حلت عليه اللعنة التي هي قدره · انه يكره المكوث في بلده ، ويتوق الى الهرب · لكن انى له ذلك ، وهيهات ان يتاح له الخروج من هذا الجحيم الذي يقيم فيه · الافضل ان يخدر نفسه ضد الالم ، ويعيش في حالة اللاوعي والذهول ، ان يستعين بخمرة النوم والنسيان كي يتمكن من تحمل وضعه المتأرجح الذي لا هو بالرحيل ، ولا هو بالبقاء ·

يقول رامبو في احدى رسائله من عدن ، بانه لو كان

بمقدوره ان يسافر دون ان يكون مضطرا للاستقرار في مكان محدد للعمل ، فانه ما كان ليمكث في نقطة واحدة اكثر من شهرين لان العالم كبير ومليء ببلاد عديدة عجيبة ومدهشة لا تكفي حياة الف رجل لزيارتها كلها ·

وهو يحلم في احدى قصائده بانه ربما تمكن في يوم ما ، في اواخر حياته ان يعرف الاستقرار والطمأنينة في بلدة صغيرة آمنة ، يموت فيها سعيدا راضيا كأي انسان موزون طويل البال · وهو يتساءل : ترى لو هدأ شيطاني الداخلي ،وروضت طبيعتي الجامحة ، وتغلبت على نزقي وتهوري واهوائي الغريبة ، ومزاجي المنهار ، وجمعت بعض الثروة التي تكفيني كي اعيش · فهل اختار السكن في مناطق الشمال الباردة ، او في اجواء الجنوب الدافئة · ان مجرد التفكير بحياة هادئة آمنة ، بليدة ، رتيبة ، عادية وخالية من الاخطار يثير ثائرته · انه يرفض فتور الدعة والاستقرار ، ويفضل مناخ الخطر الصاخب العنيف ، وايقاع المغامرة المتقلب المثير · لكن حالة الترحال والتجوال لم تعد قادرة على تقديم اي عون له · لقد فترت همته للسفر ، ومات فيه ذلك التوق القديم والعشق السابق للطرقات ، والتجوال وذرع الآفاق ، وهمدت فيه غريزة الاندفاع نحو البعيد والمجهول · ان الحانة الخضراء ، التي كان يجدها دائما في نهاية اسفاره ، وعند آخر دروبه لم تعد تفتح ابوابها في وجهه الآن ، لان ذلك الحماس السالف قد ولى الى غير رجعة ·

وها نحن نقابل رامبو من خلال احدى قصائده ، سائحا

في-بروكسل في شهر تموز ، متسكعا في ساحة المدينة الرئيسية ، حيث تلتمع الحدائق المزهرة والقصور الفخمة تحت وهج الشمس ، وزقزقة العصافير الجذلى ، وحيث تستثير البيوت الجميلة الوادعة احلامه : فهذا يوحي بالمحبس الذي حجرت فيه اوفيليا • وذاك بالشرفة الواطئة التي كانت تناجي منها جولييت حبيبها • حتى ليقوم الشاعر بذهنه برحلات خيالية ، ويفرح برؤية حسناء جالسة على مقعد اخضر ، وبالتقاط وشوشات الاولاد المترفين المنبعثة من غرفة طعام ، وتتداعى خواطره ويشرد مع اوهامه اللذيذة امام نافذة منزل ارستقراطي وانه ليتآلف مع هذه الجادة الهادئة الصامتة ويعجب بها ، ويخلق منها بخياله الخصب مسرحا مثيرا لآلاف المشاهد الهزيلة والمأساوية •

ولقد عرف رامبو ، غير بروكسل ، حواضر عديدة منها باريس ولندن وشتوتغارت وميلانو • وموضوع المدينة هو من الافكار المحورية في شعره • فها هو في قصيدة « مدينة » في « الاشراقات » يعلن انه انسان عادي مجهول في عاصمة كبيرة ، ليس لها من الحداثة سوى انعدام الذوق في مبانيها وبيوتها ومخططها الهندسي • ان كل ما فيها يخضع للمنطق العلمي • لا شيء متروك لتحكم الصدفة والايمان بالخرافات • ان القيم الخلقية الوحيدة المعترف بها في محيطها ، هي تلك القمينة بالمحافظة على وجود الجماعة ، والمؤدية الى غاية نفعية • ان اللغة الوحيدة السارية المفعول في بيئتها هي تلك المستعملة لاغراض عملية ضيقة ، وللتداول السطحي المباشر •

انها تغص بملايين من البشر لا يعرفون بعضهم ، يتشابهـون في شتى نشاطاتهم التربوية والمهنية والاجتماعية ، ومختلـف مراحل عمرهم، الذين يبدو لهم قصيرا جـــدا لفرط ما هي ايامهم متماثلة رتيبة لا يشعرون انهم يعيشونها حقا ٠ الا نقول عادة ان يوم المدينة يمر بسرعة ، دون ان نتمكن من تحقيق شيء خلاله ، ودون ان نحس بوجوده ٠ اننا نقضيه في حالة اقرب الى اللاوعي : فكأن معدل اعمار سكان المدينة مبتور مختصر الى آخر درجة ٠ انهم سيول من المارة المجهوليـــن يتدفقون محاطين بهالة من دخان المصانع ، التي تلقي ظـــلا عليهم هو بمثابة افياء الغابة ، ودهغشة ليالي الصيف بالنسبة لهذا الوسط المحروم من كل مفاتن الطبيعة ، وسحر التقلبات المناخية ، وجمال الفصول ٠ انهـــم يتدافعون ويواصلون طريقهم دون انقطاع في الشارع ، وكأنهم آلهة الندم التـــي تطارد ضمائر المجرمين ٠ حتى ان رامبو لا يفكر اطلاقـــا بمغادرة غرفته في هذه المدينة التي يتشابه فيها كل شيء ، ولا يوجد فيها ثمة مايغري المرء بالسعي الى مشاهدته ٠ وعلـى ماذا عساه يعثر في الخارج الا على الحب اليائس ، والجريمة الجميلة الصارخة في وحل الازقة ، والموت البليد الخالي من الدموع الدائب على متابعة عمله بامانة ، والذي يكاد ان يكون ظل الرحمة الوحيد ، وبارقة الخلاص الاخيرة في هذه المتاهة٠

وها رامبو في قصيدة « مدن ــ ٢ » من « الاشراقـــات » يعلن ان المدينة تتجاوز اكثر مفاهيم البناء الحديث همجيـــة وعملقة : نهار باهت ، وسماء رمادية تتحرك ، وطرقات تتوهج

بلمعات الاسفلت · ان كل المعايير المعمارية والهندسية المعروفة تنمو هنا نحو الضخامة القصوى · فكأن البنايات لوحات فنية معلقة في معرض اوسع عشرين مرة من اكبر متاحف العالم · ان الطياطن هي التي بنت سلالم الوزارات هذه ، التي تضفي الهيبة والاباء والجلال على ابسط الموظفين والحجاب ، وعلى الحراس الجبابرة من ضباط وبوابين · ان العمارات بتجمعها على بعضها تسد في الوجه كل المنافذ ، حتى ليشعر الانسان انه مأخوذ في فخ ممنوع من الحركة والرحيل · اما رصيف الكورنيش فانه محاط بمصابيح عملاقة، والحدائق فانها تمثل الطبيعة البدائية مشغولة بفن رائع وسط المدينة ، حيث حتى الكاتدرائيات التي كانت تبنى بذوق وبروح التقوى والخشوع فيما مضى ، لم تعد سوى كتلة هائلة من الفولاذ · ان المدينة تبقى مجهولة لا يسبر لها غور ، ولا يمكن الالمام بكل اسرارها ، ويظل الانسان غريبا فيها ، مستوحشا، مفتقدا الى الالفة · فسواء اوقف على اعلى الجسور والحواجز والمرتفعات ، او تسلق قمة السلالم والسطوح ، فانه لن يتمكن من استشرافها كلية ، والاحاطة بكل جوانبها ، او حل هذا اللغز المحير : على اي مستوى يا ترى توجد الاحياء الاخرى العالية او الواطئة · ان السوق التجاري هو كناية عن مستديرة ذات نمط واحد ، تنتشر المعارض بين قناطرها · لقد حلت الصفقات الكبيرة على المبادلات الصغيرة ، ورجال الاعمال الاثرياء محل اصحاب الدكاكين الفقيرة · وهنا وراء مكاتب الشركات الضخمة يتم مقايضة شتى اصناف البضائع

الواردة من مشارق الارض ومغاربها · كم وكم من مآس قائمة تمثل على مسرح هذه المتاجر ، التي هي اوكار للجشع والطمع والانانية · نعم لا بد ان يكون هناك قانون ما يحمي اعضاء المجتمع من بعضهم ، وينظم العلاقات فيما بينهم · لكنه ناموس عجيب غريب لا يستطيع رامبو ان يفقه معناه، او ان يفهم عقلية واسلوب عيش سكان المدينة ، الذين يشعر انه من غير طبقتهم وجنسهم · حتى الحي الارستقراطي الانيق المشع والنظيف ، حيث لا يوجد سوى عنصر ضئيل جدا من الفئات الشعبية ، ليس منسقا ، اذ ان بيوت اسياده المرفهين تتشعب حتى الضواحي ، وتمتد في الريف ·

كما انه في قصيدة اخرى من « الاشراقات » « مدن ــ ١ » يصف البنايات الشاهقة ، الحافلات العديدة التي تتحرك على السكك ، الصهاريج الكبرى المتوهجة في المصانع الضخمة تحت النار ، المباني ، والصخب والضوضاء ، وصفارة شرطي السير الواقف وسط الزحام على مصطبة عالية · ان هذا الواقع المؤلم المخيب للامل يسحق الروح ، ويخنق فيها كل تطلع الى المجد والبطولة والمغامرة والاحلام ، حتى ليتملك الانسان شعور بالعدم والضجر فيحن الى الانعتاق والسفر والهرب بعيدا ، وهذا ما يحاوله الشاعر بان يرنو الى السماء حيث يروح يتأمل الاشكال الغريبة التي ترسمها الغيوم : وعول ملائكية تتقدم وسط انهيارات الثلوج ، قمر يطلع محدثا اضطرابا في بحر الفضاء ، ترافق بروزه أمواج الموسيقى ، واصداء الجواهر والاصداف الثمينة ، التي تعتم احيانا فوق

حقول الحصاد متوهجة كلمع الحراب ، او الكؤوس ، قوافل من الساحرات باثواب صهباء وبيضاء تصعد من الوديـان ، غزلان ترضع من صدر الاهة الصيد وتغرق قوائمهـا فـي الشلالات والعليق ، نساء طافرات في الضواحي نائحـات ، بينما يحترق القمر ويولول ويتجول بين الغيوم ، حتى ليبـدو وكانه يدخل في كهوف الحدادين والنساك · عندئذ تستولـي شهوات غامضة على الشاعر ، وبوحي من هـذه النشـوة المفاجئة والاشراقة الروحية الخاطفة التي تسببها له مسيـرة السحب في الفضاء ، ها انه يخيل اليه ان اجراس الامل تقرع مؤذنة بتحقيق آمال الشعوب ،فتراوده الآمال الجميلة والاماني العذبة ، ويدغدغ صوت المجهول اذنه ، ويضج كيانه بالحماس والحيوية والنشاط وهو يرى الهالة التي يضفيها السحر على الحياة · زلزال يزعزع كل القوانين والقواعد القديمـة ، ويحررنا من كل الضغوط والعبوديات والقيود ، فتغمرنـا المحبة الشاملة نحو الانسانية جمعاء ، وندخل في شراكـة حميمة مع جماعات سعيدة من البشر ، تتآلف وتغني معـا اناشيد البعث والامل والانتصار على الظلم ، مأخوذة بموجة من الحنان ، مدهوشة لهذه الغبطة المباركة التي توحد صفوفها وتؤاخي فيما بينها · وفي نهاية هذه القصيدة يتساءل رامبو : ترى اية ذراع رحيمة ، اية لحظة ميمونة تنقله الى هذه المنطقة المهنوءة حيث تخصب الاحلام وتكتسب حركاتـه انسجامـا ورشاقة غير مألوفين ·

اما في « الاشراقة » التي تحمل عنوان « متروبليتان » فان

الشاعر يخلق بخياله زاوية وهمية يعيش فيها داخل المدينـــة المطوقة بالاسيجة والحيطان ، حيث يعاني من البؤس الشديد· فالفقير يزداد شعوره بالاملاق وسط غابة الذئاب المفترســـة هذه ، حيث ترتفع تكاليف المعيشة وينعدم اي حس انساني ، وحيث لا يفكر احد بالشفقة على محتاج او اعالة معوز · ان رامبو ينتمي الى تلك :

ـ « ··· العائلات الشابة الفقيرة التي تتغذى من عنـد باعة الفاكهة ··· » بمعنى انها تستعيض عن الطعام الجسدي الحيوي للمحافظة على الذات (الخبز ، اللحم ، المواد الغذائية الضرورية) بالطعام الروحي ، بالجمال ، بالترف ، بما يقصد به ادخال البهجة والمتعة الى النفس اكثر منه التشبث بالبقاء (الفاكهة) · ان المدينة هي ساحة وغى ، هي ادغال تتصارع فيها الوحوش الكاسرة ، حيث كتب على المحارب التقهقـــر والهرب وسط دخان الهزيمة الحزين الاسود ، الذي يكســو الكون بوشاح الحداد · فاذا ما خرج الشاعر الى الضواحي ، راحت الصور الشعرية تولد في رأسه : الاقنعة المنورة التـي يراها على وجوه الناس المضاءة بمصابيح تهزها الريح فـي الليالي الباردة، الحورية التي يلمحها في قاع النهر، الجماجم المشعة التي تلوح له من خلال اكواز الصنوبر ، والكثيـر من الرؤوس الاخرى · وهكذا كان رامبو ينتصر احيانا علـى قساوة صحراء الاسفلت هذه بفضل الوحي الشعري ، حين كان يستيقظ مثلا عند الصباح فيجد الشوارع مغمورة بالثلج فيتصارع اليأس والامل في قلبه الى ان تعقد الغلبة لهــذا

الاخير ، وتذيب شمس إلهامه جليد المدينة ، ويهزم بقوتـــه الروحية جبروتها المادي ·

ثم يصف رامبو في قصيدة « جسور » من « الاشراقات » سماء متلبدة بالغيوم الرصاصية تبرق فيها بعض النجوم ، ومجموعة من الجسور بعضها مستقيم وبعضها ملتو ، صاعدة حينا هابطة حينا آخر ، متشابكة تارة ومنعكسة طورا علـــى صفحة المياه المتلألئة في مجرى القنال · لكنها كلها طويلـــة وخفيفة لدرجة ان الواقف عليها يرى قناطر الضفاف ضئيلـة وواطئة للغاية · قسم من هذه الجسور لا يزال على جوانبه بقايا بيوت واطلال مبان ، وقسم آخر تستند على حافتـــه الصواري والحواجز الرقيقة ، والاشارات واجهزة ارســال الصوت من بعيد المستعملة في المراكب · وان رامبو ليتساءل حين يلمح ، عن مسافة ، سترة حمراء وثيابا اخرى وبعضـــ ادوات الموسيقى ، وحين يسمع اصداء انغام تنبعـــث عن الضفاف : هل هذه اغان شعبية ؟ هل هذه بقايــــا الحـــان ارستقراطية من العهود الخوالي ؟ هل هذه اناشيد قومية ؟ عندئذ تغمره موجة عرمة من الحب والعطف الاخوي ، والالفة البشرية المؤنسة ، ويتدافع الى فكره فيض من الاحلام العذبة ، المطبوعة بالنبل والفروسية ، ويضج كيانــــه بالحماســ ، وتعصف بشراعه رياح المجد والبطولة والعظمة · ان في مجرد النظر الى هذه المياه سكرة بخمرة المجهول ، واغراء بالسفر الى بلاد بعيدة ، وايمان بوعود المغامرة البراقة · لكن هـــذه الانخطافة الروحية المفاجئة ، والنشوة السامية ، سرعـــان

ما تتبخر بفعل شعاع صغير من الواقع يأتي ليسحب رامبو من الحلقة المسحورة التي شرد نحوها ، وليمحو هذا السراب الجميل الذي التمع امامه ، وليهدم كل هذه القصور الوهمية التي بناها بخياله الجامح ، وليلغي كل هذا الجو الاسطوري المثير الذي غرق فيه لبضع لحظات قصيرة ٠

وها رامبو اخيرا في قصيدة « مرتفع »(Promontaire) في « الاشراقات » ينقلنا الى سكاربورو ، وهي مدينة مياه تقع على مبعدة ثلاثمائة وثمانين كلم ٠ من لندن ، ليصف لنا هضبتها التي تمتد في البحر كشبه جزيرة او لسان ماء ، والتي يخيل اليه وهو يتأمل مشهدها ، في لحظات الفجر او المساء الرائعة ، انه مركب على وشك الاقلاع نحو المجهول من مرفأ احد الجزر اليونانية او اليابانية او العربية ٠ يوجد على قمة هذا المرتفع اطلال قلعة رومانية يتهيأ للشاعر ان هناك مواكب احتفالية تحج اليها دون انقطاع ، وتروح الصور المجازية تتوارد الى ذهنه على الشكل التالي : حصون حديثة مبنية لحماية الساحل ، كثبان مزروعة بورود حنونة تدور عليها اعياد وثنية احتفاء بباخوس اله الخمر ، اقنية قرطاجة الكبرى ، سدود مبنية على مياه مدينة البندقية ، منحدرات حدائق فريدة تحني رؤوسها المتوجة بدوحات من اليابان ٠ فيما يتحول زبد البحر الى نثار ورود ورغوة مياه ناتجة عن ذوبان الثلج ، وفورات بركان « الاثنا » وتنقلب الجنائن المعلقة فوق هذه الهضبة المسحورة الى غسيل منشور محاط باشجار حور المانية ٠ اما الفنادق الصغيرة التي تشع نوافذها

وشرفاتها بالاضواء ، فان خطوطا تتشعب مـن واجهاتهـــا الدائرية ، تتعرج ، تنغرز في الارض ، وتفضي الــى الفندق الكبير الفخم الانيق المبني وفقا لاروع ما توصل اليه الفــن المعماري في ايطاليا واميركا واليابان ، والـــذي ينتجعـــه السواح الاغنياء طلبا للهواء العليل ، فتسفح لهم المشروبــات الروحية اللذيذة بسخاء • وهكذا تضافر ساعات النهار بكل جمال تنوعها ، ورقصات الامواج على الشاطىء ، وهبــات الريح الناعمة ، في خلق اطار مسحور تتراءى فيه الهضبــة والفندق والقصر المشيد عليها متشحة بحلة بديعة اخاذة ، محاطة بهالة نورانية عميقة •

٤ ـ العذراء المجنونة

« الساحر المزيف يريد ان يجزىء قوى الطبيعة ، يريد اذ يفصل العلم عن الايمان ، الذكاء عن الحب ، الرجل عن المرأة ، انــــه يراهما متحدين كالمصارعين ، ويعتقد انهما يتقاتلان ، انه يجرحهما بأن يفرق بينهما ، وها هو وقد فقد توازنه هو ذاته ، سيكون دوريا رجلا وامرأة ، بصورة ناقصة دائما ، لان تحقيق الزواج محظور عليه · هنا تتكشف كل اسرار التوازن الكوني وقانون الخلق · بالفعل ان الازدواجية الجنسية البشرية هي التي تلد ، الرجل والمـــرأة طالما هما منفصلان يظلان عقيمين ، كالديــن بدون العلــم ، والعكس بالعكس ، كالذكاء بدون الحب ، كالرقة بدون القوة والقوة بدون الرقة » ·

اليفاس ليفي

ان رامبو يروي علينا في احدى قصائده ، على لسان العجوز الابله ، بعض النزعات والاهواء والاحلام الجنسية التي كانت تراوده في طفولته : كيف كان يبتعد ، اثنـــاء المعارض الزراعية ، عن اماكن اللهو السخيفة ، نحو المواضع التي تبول فيها الحمير ، ليتفرج على «ذلك الانبوب الطويل الدامي » ، كيف كان يحب ان يسترق النظر الى افخاذ امه وهي تتعرى ، او الى عورة اخته الصغيرة ، كيف كان يقمن احيانا وهو جالس على ركبة والده ان يفتح له ازار بنطلونه، وكيف كان يضطرب لرؤية الخادمة · وبعد ان يدلي بهـــذه الاعترافات الفرويدية ، ويسرد علينا كل هذه الوقائع البسيطة التي كانت في حداثته توقظ شهوته ، وتهيج غرائزه ، يتساءل : ترى لماذا تأخر نموه الجنسي بعد ذلك ، وتوقفت غدده عن افراز الهرمونات · لماذا رقدت فحولته بعد بلوغه سن الرشد· لماذا بات يشعر بآلام وخوف وندم بعد اشباع رغبته ؟

هل مارس رامبو الحب مع النساء ؟ هل عشق الفتيات حقا ؟ ام انه تعلق بهن لما كان ينسج حولهن مـــن قصص خيالية ، ومغامرات وهمية ؟ لقد حلم مثلا ان يسافر ، شتاء ، في قطار فخم هـــو وحبيبته يتعانقان في مقصورة مريحة ويتناجيان طوال الرحلة ، تنام صاحبته على ذراعه و « تغمض عيونها كي لا ترى الواقع ، واشباح الظلام في الخارج ، اي من مخاوف وبشاعات الحياة »· ولسوف يجرح لها خدها من عنف قبلاته · ولسوف يلثمها على عينها · عندئذ تظن هي ان حشرة قد عقصتها وتغلغلت بين ثيابها ، فيروحان يبحثان

عن هذه البقة المزعومة في جميع انحاء جسمها • فهل هذه الخواطر مجرد تمنيات عذبة تداعب قلبه ؟ وهل هي مجرد سراب ايضا تلك المغامرة التي يرويها علينا في « السهرة الاولى » احدى قصائده الباكرة ، وتلك الفتاة شبه العارية الجالسة على كرسيه ، والتي راح يقبل اقدامها ، ثم عينيها ثم صدرها وهي تضحك ، وتتمنع بغنج ودلال ممزوجين بالاباحية والاغراء ؟ هل هي حورية من صنع الوهم تلك الحسناء التي ينطلق معها في شعاب الوادي ذات صباح مشرق ترتعش فيه الغابة الصافية ، التي يبدو ان الحب يقطر من اطرافها ، حتى ليخيل للشاعر مع كل رعشة غصن ان هناك اجسادا عارية تهتز• وان رفيقته التي تعشق الريف، لتتمرمغ على العشب ساهمة نحو الافق بعينيها الجميلتين ، وتركض في ارجاء الطبيعة زارعة ضحكتها المجنونة في كل الارجاء ، مبتسمة له هو الضائع في سكرة وحشية ، فيشدها اليه محاولا اغراءها ومعانقتها ، وتحسس نضارة بشرتها ، التي تقبلها الريح كاللص • واذ تستسلم بين يديه كالميتة بقلب عامر بالنشوة ، مرتعشة مطبقة جفنيها ، يحملها بين ذراعيه ، ويسير بها في الدروب المليئة بزقزقات العصافير • ولسوف يحادثها واضعا فمه على فمها ، معتصرا جسدها • وفي المساء سينهجان طريق العودة المضمخة باريج البساتين والحدائق • وسيصلان الى القرية فيما تكون العتمة قد اخذت تهبط عليها ، ورائحة الحليب والاسطبلات قد راحت تفوح من هوائها الناعم • وهناك سيجدان امرأة عجوزا تقرأ في كتاب

الصلاة ، ورجالا عادوا من اعمال الحقول يشربون الجعة مدخنين غلايينهم ، او متناولين عشاءهم وراء ابواب تتراءى من خلالها التخوت والخزائن تحت اضواء القناديل الخافتة · فيما تزجر ام ابنها وتغزل جدة قرب النار · وكم وكم من مشاهد ستتجلى لهما من خلال أشعة النور على زجاج هذه الاكواخ · وكم من اسرار عجيبة سيتلصصان عليها عبر نافذة غارقة بين الورود ··· لكن هل هذه المباهج كلها مجرد احلام لم تتح له الحياة الواقعية فرصة تحقيقها ؟

على كل حال نجد رامبو في احدى قصائده « اغنية من اعلى برج » يتحسر على ايام الصبا ، حين كانت عواطفه متأججة ودمه حارا ، حين كان مهيأ لممارسة الحب · لكنه كان من الخجل والجبن بحيث كبت جميع رغباته الجنسية وحرم نفسه من المتعة ، وخنق في صدره كل وعود السعادة فلم يعرف سوى مرارة الوحدة · لقد ضاعت منه تلك الايام وما قدمته له من دعوات الى الهوى · اذ انه كان عبدا لاحكام الغير ونظرتهم ، وللضوابط الاجتماعية ، والزواجر والموانع الخلقية · وهو يتوق الان الى معرفة الحب وتذوق ثماره المسكرة ، وحلول العهد الذي تتعانق فيه القلوب وتخفق بعواطف الوحدة المقدسة · لقد عانى من الكبت والحرمان بما فيه الكفاية ، والضغط يولد الانفجار · لقد انتظر طويلا ، وها هو نافد الصبر · لقد جاع كثيرا وها هو عاجز عن المقاومة مزيدا ، والاعراض عن الصحاف الشهية المبسوطة امامه · انه ينسى كل الاعتبارات · واذ تتبخر

القيود والقيم والنواهي والمخاوف والآلام في الهواء ، يضج العطش الى الغرام في دمه ، وتجري الشهوات الدنسة في عروقه ٠ انه اشبه بمرجة خضراء اهملت طويلا وها انها تنمو مكللة بالندى ، وتزهر مضمخة بالشذا ، مما يجذب نحوها الذباب والهوام والمجنحات القذرة التي تروح تحوم حولها ٠ ان روحه المسكينة التي عانت من كل هذه الوحدة والوحشة والحرمان ليس لها من القداسة سوى صورتها ومظهرها الخارجي ٠ كما ان وجهه لا يحمل من البراءة سوى قناعها الكاذب ٠

وفي « صحارى الحب » يصور لنا رامبو نفسه على شكل فتى يافع ، متشرد ، محروم من عطف وحنان الام ، غريب في وطنه ، رافض لمجمل العقلية السائدة حوله ، متمرد على كافة القوانين الخلقية ككثير غيره من الشباب الجامح، متضايق من الحياة ، سئم بتكاليفها ، تواق الى الموت ٠ وبما انه لم يحب النساء رغم حرارة دمائه ، فانه اضطر الى تصريف طاقته الجنسية وقوته العشقية في غير الاتجاه السليم ، والى ارتكاب حماقات غريبة واخطاء مشؤومة٠ وهو سيصف لنا اثنين من الاحلام الشبقية التي بصرها ليخلص الى بعض الاستنتاجات الفلسفية والعظات والعبر ، وليبرهن على ان الدين المسيحي باحتقاره للجسد وبمحاذيره ومعاييره حول الخطيئة والعقاب قد شوه مفهوم الحب ، وساهم في خلق العقد الجنسية ، التي يعيش ابناء الديانات الاخرى براء منها ، فيشبعون رغبتهم الطبيعية ، وغريزتهم الشهوانية

بصورة شرعية طاهرة ، خالية من الشعور بالاثم والذنب ٠ اما هذا الحرمان من الغرام له عواقب وخيمة ، ولا يسعنا الا ان نتمنى للنفس التائهة التي تعاني منه ان تجد تعزية ما ، وتعويضا من العطف والحنان يساعدها على تحمل الحياة ٠ وسنعرض لهذين الحلمين اللذين يصورهما رامبو بشيء من التفصيل :

انه يرى ، في اولهما ، نفس الريف الذي سبق له ان بصره مرارا في احلامه ٠ منزل اهله القروي اياه ، نفس الصالة المنقوش فوق ابوابها مناظر رعوية ، واسودا ، واسلحة صدئة مزنجرة ٠ يوجد غرفة للطعام فيها شموع وخمور واثاث من الخشب الفلاحي المحفور ومائدة كبيرة جدا٠ كما انه يوجد هناك الكثير من الخادمات، بالاضافة الى كاهن من رفاق المدرسة القدامى لا يزال يذكر غرفته الحمراء ذات الزجاج المغطى بالورق الاصفر ، والكتب المحظورة التي كان يملكها ٠ لقد كان رامبو مهجورا في هذا المنزل الريفي الواسع حيث كان يقرأ في المطبخ ، ويجفف ثيابه المبللة بالمطر والوحل امام الضيوف الذين يتجاذبون اطراف الحديث في قاعة الاستقبال ، حساسا لجمال ساعات النهار ، متاثرا حتى الدموع لشاعرية لحظة الفجر او المساء ٠ وها هو في غرفة معتمة لا يدري ماذا جاء يفعل فيها ٠ وها ان خادمة تقترب منه : انها تستكين عند اقدامه بتواضع وذل الكلبة، مع انها حسناء تنضح بذلك النبل والعطف والحنان الامومي، الذي هو في امس الحاجة اليه ٠ انها بريئة وطاهرة ، انها

امينة واليفة ، يطمئن اليها ويرتاح الى حضورها المؤنس ، وينسحر بفتنتها وجاذبيتها الطاغية · انها تقرصه في ذراعه · لكنه لم يعد يتذكر لا وجهها ولا معصمها الذي كان يدعك جلده باصبعه ، ولا فمها الذي كان يعتصره بشفاهه كموجة صغيرة يائسة تعلق بأي بر نجاة ، وتستهلك شيئا ما دون توقف ، ممتصة رحيقه · جل ما يعرفه انه اوقفها في زاوية مظلمة في سلة مليئة بالمساند واشرعة السفن · ثم غفل عن كل شيء آخر ما عدا سروالها المخرم · وفجأة اذا باطار الحلم يتغير ، ليأسه الشديد ، وينتقل به دون سابق انذار من حالة العشق ، وجو ممارسة الحب الى مناخ قاتم : ظلال اشجار معتمة ، رماد وجد مكبوت ، حاجة ملحة الى الحب ، جوع مؤلم الى الوطن والحنان ، نار من الشوق والرغبة يلتهم بها المحروم نفسه لانعدام شريك يمنعه ان يكون وحيدا في ظلام الليل ·

اما الحلم الثاني فهو يتعلق بامرأة اخرى قابلها في المدينة وحادثها · وها هم يعلمونه انها جاءت الى عقر داره بغية الاجتماع به · وها هو يراها في سريره مستسلمة له في العتمة · ولقد تأثر وانفعل كثيرا ، ولا سيما وانه في المنزل الابوي · ولقد حزن لانه امام امكانية اشباع رغبته الجنسية اخيرا · لكن هناك زواجر وموانع واعتبارات عائلية وخلقية تأتي لتمنعه من ذلك · ومما يزيد في اسفه وحسرته هو انه يرتدي الاسمال بينما شريكته سيدة مجتمع ارستقراطية ، انيقة ، مترفعة ، تشعره بنقصه · لكنه يصاب

بخيبة امل كبيرة ، وأسى عميق ، عندما يعلم ان الحسناء قد تهجره لانها مضطرة الى الذهاب ، لذلك يتشبث بها ، فتقع من السرير عارية ، ويهوي هو فوقها وقد بلغ ذروة الضعف والخوف من ان تفلت من يديه ، وراح يتجرجر معها فـوق سجاد الغرفة المعتمة • فيما كانت الاضواء العائلية تشع من القاعات المجاورة وتلقي اشعتها الفضاحة على هذا المشهد الغرامي المشين في نظرها الذي تشجبه وتحظره • الى ان اختفت المرأة ، واخذ رامبو ينتحب بشدة لانسلابه من فرصة الحب النادرة هذه التي اتيحت له اخيرا •

ثم هام على وجهه في المدينة اللامتناهية ، تعبا ، غارقا في الليل الاصم الذي لا يرحم مطاردا طيف الفرح الهارب امامه• لكأنه يركض في امسية شتائية قارسة تتراكم فيها اكوام من الثلج كافية لخنق العالم بكامله • اما الاصدقاء الذين كان يسألهم عن محل اقامة الفاتنة التي سلبت عقله ، فانهم كانوا يردون عليه باجابات خاطئة • ها هو يصل اخيرا امام واجهة المكان الذي ترتاده كل مساء• وانه ليركض في حديقة مطمورة تحت الارض ، ويبكي كثيرا عندما يطردونه ويدفعونه بعيدا • حتى اذا ما نزل الى موضع مليء بالغبار ، جلس على الواح من الخشب وظل ينتحب الى ان استنفد دموعه قبل انتهـاء الليل • لكن العبرات لم تنفع في تفريج كربته وتصريف حزنه الى الخارج • عندئذ ادرك ان فتاة احلامه منصرفة عنه الى شؤون حياتها اليومية ، وان دور الطيبة والحنان الذي لعبته معه لن يتردد ثانية قبل مدة طويلة جدا (هذا اذا تكرر ابدا) •

ان هذه الفرصة الثمينة في اشباع حاجتـــه الـى العطف الانساني ، التي لم تمنح له الا لكي تنتزع منه بنفس السرعة ، لن تسنح له مرة اخرى بهذه السهولة · ان نجمة الامـل هذه التي اشرقت في سمائه الملبدة بغيوم الكبت والحرمان لن تظهر قبل أمد بعيد · ان الواحة التي لاحت في صحراء عطشه الجنسي ، لن تلوح امامه من جديد قبل أبد من الدهر· ان هذه الحورية التي زارته في احلامه لم تعد ولن تعود قط ، الامر الذي لم يخطر له في بال حين كان في سكرة النشوة ، وذروة الانسحار ، وهو يبكي ذهابها وغيابها اكثر من كل اطفال العالم مجتمعين ، اكثر من كل الصغار الوحيديـن المستوحشين المحرومين من الحنان ، ودفء صــدر عطوف يسندون اليه رأسهم الضعيف ·

ان الانسان المزدوج الجنس هو ، بحسب قصيدة «انتيك» « Antique » « الاشرقات » ، احــد الحيوانات الجميلـة السارحة في غابة العالم · انه احيانا تربة صالحة وخصبة للوحي والالهام · ان عيونه مهيأة اكثر من غيره لرؤيـــة الجمال، واكتشاف الكنوز الثمينة المخبوءة في جوف الارض· انه كائن شقي عرضة لهموم ، قليل الحظ ، لكنه يحب الحياة رغم ذلك ، لان اندماج عنصري الذكورة والانوثة في جسده يخلق فيه قابلية هائلة للفرح والرضى ، مثلما ان اتحـــاد الرجل مع المرأة ينتج عنه نشوة الاكتمال ، ولذة الوصال · انه مفطور على التأمل والحلم لا على العمل والنضال · انه حساس جدا بفضل عاملي السلب والايجاب المتفاعلين فـي

نفسه ٠ انه محكوم عليه بالعزلة والحرمان والعجز عن اشباع شهوته بصورة طبيعية ٠ وعندما تستيقظ غريزته يخرج ليتنزه وحيدا في الليل ، متخفيا كاللص تحت ستار الظلام ٠

كما يعتقد لوتريامون ايضا ان الانسان المزدوج الجنس يتمتع بمنطق اعمق العقول المفكرة ، وحساسية ارهف القلوب الرقيقة ، ذكاء الرجل في اسمى واعظم معانيه ، وعاطفة المرأة في ذروة ما تستطيع الوصول اليه ٠ انه يملك حسا سادسا غير موجود عند الآخرين ، وجمالا خلقيا متفوقا ، وكنوزا من الحنان والعفة لا تقدر بثمن ، وهو يصفه في الفقرة السابعة من النشيد الثاني لـ « اغاني مالدورور » كيف :

ـ « ٠٠٠ طفق يبتسم وهو يتلقى الضربات ، وكلمهم بفيض من العاطفة والذكاء عن كثير من العلوم الانسانية التي درسها ، والتي تظهر ثقافة كبيرة في ذاك الذي لما يتجاوز بعد عتبة الشباب ، وعن مصائر الانسانية حيث كشف النقاب كاملا عن نبل روحه الشاعري ٠٠٠ »

ان رامبو يعترف في « فصل في الجحيم » بأنه مصاب بعاهة جنسية تضرب بجذورها السامة والمؤلمة في جسده منذ بلوغه سن الرشد ، وتسكنه بشيطانها اللعين الذي يمزق كيانه ، يشده الى اعلى ، يجذبه الى اسفل ، يقلبه ، يجره ، يتلاعب به كالدمية ، ويمرمغه في حمأة الوحل ٠ لقد مضى عهد البراءة والطهارة والعفة ، لقد ولى الخفر العذري والحياء

البكر ، والخجل الذي يستشعره الآثم الذي يرتكب المعصية لاول مرة · ان معاشرة النساء وحفلات الفسق والمجون والليالي الحمراء التي يقبل عليها الرجال الاحقاء محرمة عليه بالعزلة داخل جدران ذاته، العاجز عن الاتحاد والاندماج مع شخص آخر من غير جنسه ، او اقامة صداقة حقيقية مع فرد من نفس جنسه ، لانه لا يملك هوية جنسية واضحة محددة المعالم ·

عندما يقول رامبو « فلنسمع اعتراف احد رفاق الجحيم » فان هذا الرفيق ليس احدا آخر غير فرلين الذي ارتبط مصيره بمصيره لفترة من الوقت معاصرة لكتابة « فصل في الجحيم » · فماذا يقول فرلين بحسب رواية رامبو ؟ انه يعتبر نفسه اتعس مخلوقات الله · انه مدمن على السكر يعيش حياة قذرة مشوهة ملطخة بالوحل · انه يبكي ندما على ضلاله ، ويعرف انه سيذرف مزيدا من الدموع في المستقبل · انه يخاطب « الزوج السماوي » اي امرأته الشرعية التي كان يمارس معها الحب الطبيعي الذي يرفع النفس ويشدها نحو السماء ، ويستجير بها من هذا « الزوج الجهنمي » اي رامبو الذي كان مرتبطا معه بعلاقة مريبة تنحدر به الى اسفل دركات الجحيم · انه ممزق بين هاتين النزعتين : الرجولة التي تؤهله للعشق السوي الذي هو السعادة الحقة ، وبين الانوثة التي تنجرف به نحو ذلك الهوى الخاطىء الذي هو الشقاء المقيم ، وهو الان يخضع لهذا النوع الثاني من الغرام ، الذي يذله ، ويتدهور

به حتى اخر درجات الانحطاط ، ويذيقه الوانا من العذاب ما عاناها انسان قط · انه يتألم ، انه يصرخ ، انه يكتوي باوجاع مبرحة حقا · لقد اصبح عرضة لاستهزاء وازدراء الجميع · حتى احقر عباد الله باتوا يشمتون بحاله · ولم يبق عنده ثمة ما يخجل به ، ولم يعد يملك اي رصيد معنوي يخشى اضاعته بما انه قد فقد كل شيء · انه اشبه بعاهرة خالعة كل عذار ، مات فيها كل حس اخلاقي · انه عبد لذلك « الزوج الجهنمي » ، لذلك الشيطان الذي تسبب في هلاك ارواح اخرى كثيرة ، والذي لا يستطيع التخلص من ربقته ، والتفلت من اساره · لقد فقد عقله ، لقد حقت عليه اللعنة ، لقد اغترب عن احداث العالم الواقعي ، وانسحب من الحياة · مع انه لم يكن على هذه الدرجة من الفساد ، لم يكن منحلا ، عبدا لغرائزه ،مستسلما للرذيلة ، بل كان انسانا رضيا عاديا يسلك بصورة طبيعية مع زوجته ، الى ان تعرف على رامبو وكان هذا الاخير ولدا مراهقا بعد ، فاغواه برفقته الساحرة ، وحمله على ترك كل شيء وتناسي كل واجباته الانسانية ليتبعه · ويا لها من ايام فظيعة تلك التي امضياها معا · وعلى كل حال :

ـ « ··· الحياة الحقيقية غائبة · لسنا في العالم ··· »

وراح ينجر وراءه اينما يقوده كما ينساق المـــرء وراء قدره المحتوم · وغالبا ما كان رامبو يثور ويغضب علـــى ضحيته المسكينة ويروح يعنفها ، لانه شيطان وليس رجلا ولا انسانا عاديا · انه يقول : انا لا اهوى النساء ، ولا اؤمن بالحب ولا تنطلي علي خدعته · المراة لا تبغي سوى الزواج

كما يتوق العاطل عن العمل الى العثور على وظيفة ، وعندما تحصل على مرادها لا يعود هناك جمال ولا غرام ، ولا عاطفة متبادلة ولا سعادة بيتية بل احتقار بارد ورتابة مميتة ٠ لكنه كان يحلم احيانا ـ وقد بقي هذا مجرد سراب ـ ان يلتقي بحبيبته يعرف الهناء قربها ، يطفىء شهوته بين ذراعيها الدافئتين ، ويشبع على صدرها الحنون جوعه الى العطف الانساني ، وحاجته الى الرفقة المؤنسة ٠ وبدل ان يخجل رامبو من الاعمال الحقيرة الشريرة التي كان يقترفها،فانه كان يجد فيها مدعاة للفخر ، ونوعا من الجمال والسحر ٠ كما انه كان يتباهى بأنه ينتمي الى جنس متوحش ، يسكنه ابليس رجيم ويستمرىء الانزلاق في حمأة القذارة والبشاعة والوحل٠ وغالبا ما كان يهدد فرلين بأنه سيأخذ بالزعيق وسط الشارع لاثارة الفضيحة ٠ وغالبا ما كان يتعمد الدخول في نوبات جنونية من الغضب ، او كان يصرح بأنه يرفض ان يشتغل وان يربح رزقه بعرق جبينه ، متصرفا كفتى مدلل لا يتحمل اية مسؤولية ، ويريد ان تقدم له الحاجات على طبق من ذهب٠ انه يحب الترف والبذخ وحيازة ثروة لم يبذل اي مجهود لاقتنائها ، تتيح له حياة رغيدة كابن ذوات ، يعيش من ريع ارزاقه الموروثة ٠ وكم من ليلة حمراء امضاها الشاعران الصديقان معا ، يتشنجان ويدمران نفسهما في سرير ذلك الشيطان اللعين الذي استولى على روحهما ٠

وكم من مرة وقف فيها رامبو متعتعا من السكر وسط الشارع ، او في ارجاء المنازل لافتعال فضيحة ، واثارة هلع

رفيقه المسكين المرتعد حتى الموت تحت تهديدات هذا المراهق الحرون الضعب المراس ، الذي تتقمصه ارواحه الشريـــرة على حين غرة ، فيروح يستنجد من اعداء وهميين ويستجير من اخطار اعتباطية ، ويستسلم غصبا عنه لاغراءات طبعـــه الاجرامي ٠ ولقد كانت تأخذ رامبو احيانا موجة من الحنان ، يروح اثناءها يتكلم عن الموت والندم الذي يستشعره المحتضر، الذي لم تسمح له فسحة العمر الضيقة تحقيق ما كان يصبو اليه ، فيذهب الى القبر مليئا بالخيبة والمرارة ، آسفا على اخطائه الماضية ، عن البؤساء الذين تعج بهم الدنيا ، عـــن الاعمال الشاقة المرهقة التي يقوم بها الكادحون ، عن الوداع والرحيل المؤثر الذي يمزق نياط القلب ٠

وفي الحمأة الموبوءة ، في الخمارة الحقيرة التي كان يعربد فيها مع فرلين ، غالبا ما كان يبكي من الشفقة لرؤية كل هذا القطيع البشري المحيط به ، السائر تحت سياط الفقر والعذاب والانحطـاط ٠ وغالبا ما كـان يقيـــل السكـــارى مـــن عثراتهم في الشوارع المظلمة ، راثيا لحالهم ، كما تعطف أم شريرة على اولادها الصغار ، حانيا عليهم برقة تلميذة مدرسة تمر في نوبة من الورع الديني ، والتقوى الصوفية ٠ وكان يدعي انه مطلع على كل شاردة وواردة في التجارة والفـن والطب ٠ وكان فرلين يتبعه صاغرا ، عاجزا عن مقاومـــة اغرائه ، واقعا تحت تأثيره كما تحت سحر التنويم المغناطيسي، وتحت سطوة قدر لا مهرب منه ، محاولا ان يضع نفسه مكانه، ان يفكر بعقليته ، وان يحلم بمخيلته ٠ لكن لقد كان مـــن

المستحيل عليه ان يدخل الى عالم رامبو الخاص ، ويفهم وجهة نظره ، ويحس باحساسه ويرى الاشياء بعينيه • فرامبو كائن عجيب غريب يتعذر على المرء تلبس شخصيته ، والدخول في جلده •

ولكم امضى فرلين من ساعات وليال ساهرا قرب جسد صديقه العزيز النائم يتساءل : ترى لماذا يحاول هذا المخلوق الناشز ان يتهرب من الحقيقة • فما من انسان عاقل يفعل ذلك عامدا • ان شخصا من هذا النوع يشكل خطرا حقيقيا على المجتمع • انه يملك ربما سرا خاصا لتغيير العالم • لا ، لقد صرح ان ليس في ذهنه اي مخطط واضح من هذا القبيل • انما هو يسعى الى البحث عن واحد • ان فرلين هو اسير غواية هذا الصبي الشيطان الذي اجتذب قلبه برقية سحرية• ولا يوجد انسان آخر يتمتع بمثل قوته على مجالدة اليأس ليتمكن من تحمل عبء هذا الحب اللعين ، والرضى بالعيش تحت جناح هذا العشيق الجهنمي • ان كل فرد يرى مزاياه ولا يرى خصال الآخرين • وهكذا يعتقد فرلين بانه يتمتع بصفات غير متوافرة عند سواه ، تتيح له وحدها ان يصبر على عشرة رامبو ، الذي يعجز لهذا السبب عن تصوره برفقة احد غيره • ان رامبو يتظاهر بالبرود والجفاء تجاه فرلين ، لانه يخجل بتعرية عاطفته نحوه ، والاعتراف بها • انه يدعي ان قلبه خال من الهوى ، ويفرغ ردهات قصره الداخلي ، لانه يأنف من رؤية متسول حقير كفرلين يتجول فيها • لكن هذا الشحاذ المسكين يعيش تحت سطوة محسنه ، ولا يستطيع

الخروج من تحت ظل سيده مهما طرده هذا الاخير · انه متعلق به · انه عبده لكن ماذا يريد هذا الحاكم المستبد بحياة تابعه التافهة الوضيعة العديمة المعنى ؟

انه يبغي تدميره ، ودفعه درجة درجة على سلم الهلاك وجره على دروب التحلل والفساد ، واقتياده الى الموت ·

ولقد كان فرلين يقول احيانا لرامبو بأسى : « اني افهمك » · لكن هذا الاخير كان يهز كتفيه بشماتة ، مدركا ان صديقه لا يمكن ان يكون قد سبر غور نواياه ، وتقمص شخصيته ليعي حقيقة مشاعره ، وطبيعة سلوكه ، لانه من غرابة الاطوار بحيث لا يستطيع احد ان يكتنه جوهره ، ومن اللامعقولية بحيث يعجز العقل عن استيعابه · وهكذا كان عذاب فرلين بعشرة رامبو يتفاقم ويتجدد يوما بعد يوم · وكان يحتقر نفسه ، ويعرف ان الجميع يشمئزون منه ، ويشجبون ضلاله · هذا اذا صح انه كان قد بقي بعد ثمة من ينتبه الى وجوده ، ويتنازل بالقاء نظرة عليه · منذ ان نبذه معارفه بسبب آفته وعاره ، ولفظوه بعيدا ، وعزلوه عن دائرة الاسوياء الشرفاء ، ومنذ ان تجاهله بنو جلدته وتناسوه وتنكروا له · ومن منفاه ،من خلف هذا السياج والنطاق الذي يضربه المجتمع من حوله ، كما يقيم الاصحاء عازلا حول الابرص خوفا من تفشي الوباء ، ها ان حاجته الى عطف وحنان رامبو تتضاعف لانه اصبح ملاذه الوحيد · انه يدخل بفضل الفته وصحبته الحميمة الى سماء قاتمة يحب ولوجها ،

والبقاء فيها فقيرا اصم ابكم اعمى · لقد آنس الى هذه الحالة كما يعتاد المدمن على الافيون والخمر ·

وكان الرفيقان الشاعران يتجولان بحرية كولدين هائمين في فردوس التعاسة ، كانا على وفاق ، وكانا يعملان معا بود مؤثر · لكن رامبو كان يصارح فرلين فجاة بعد ملاطفة عميقة: ان وضعنا هذا سيبدو لك غريبا للغاية بعد ان اهجرك · عندما تستيقظ فلا تجد ذراعي حول رقبتك ، ولا فمي على عينيك ، ولا تعثر على قلب حنون ترتاح اليه ، او ساعد قوي تتكىء عليه · لاني يجب ان اذهب يوما ما بعيدا ، بعيدا جدا · وبعد سماع هذه التهديدات ، وما ان كان رامبو يدير ظهره ، حتى كان فرلين يصاب بدوار ، ويقع فريسة لآلام مريعة تضعه في ظل ملكة الموت · ثم كان يلح على شريكه الصغير الى ان يحمله على التعهد بأنه لن يهجره · وكان هذا الاخير يأخذ على نفسه مثل هذه الالتزامات مئات المرات دون ان يفي بها ، تماما مثلما ان الاول لم يكن صادقا عندما كان يدعي انه قد فهم مزاج صاحبه · لكن فرلين سرعان ما كان يطرد من ذهنه افكار الغيرة هذه ، ويروح يقنع نفسه بأن رامبو لن يغادره لانه فتى غر ، شارد حالم ، يريد ان يعيش كالدائخ السكران ، رافضا التعامل مع الحقائق الحسية الملموسة ، عاجزا عن العمل وشق طريقه في الحياة ، والتلاؤم مع ظروف الواقع ·

واحيانا كان فرلين يتناسى ويتجاهل هاوية الشقاء ، التي يتردى فيها ليحلم بأن رامبو سيجعله قويا وسعيدا · بأنهما

سيسافران سوية ، سيصطادان معا في الصحارى البعيدة ، وينامان في شوارع المدن المجهولة بقلوب خالية من الهم ، متحررة من كل الروابط العائلية ، متخففة من كل الواجبات والاعباء الاجتماعية · او انه سوف يستيقظ ذات صباح فيجد ان الانظمة والقوانين ، ان العادات والتقاليد قد تغيرت بفضل قدرة رامبو العجائبية · الم يصرح هذا الاخير بأنه يريد ان يغير العالم ؟ فطالما بقيت الامور على حالها ، فان فرلين سيظل ضحية شهوانيته وكسله ، ومجونه · ولا امل ولا خلاص له الا في حدوث انقلاب جذري في سنة الكون · لقد تألم كثيرا فهل يستطيع رامبو ان يقدم له حياة المغامرات الحافلة التي يصادفها المرء في الاحلام بمثابة تعويض له عما عاناه ؟ لا ! انه يجهل كل شيء عن رامبو ، انه لا يملك اية معلومات عن ماضيه او مستقبله، انه لا يعرف ان كان مؤمنا او ملحدا· فهل يستجير بالله ويطلب منه ان يساعده على رفيقه الشيطان هذا ؟ ان من ينحدر الى قعر الهاوية لا يعود بمقدوره الصلاة· لكن على افتراض ان رامبو قام يشرح له احزانه ومسراته ، فهل هو مؤهل لان يفهمها ؟ ان الاول يتهجم على الثاني ، ويمضي ساعات في جرح احساسه وتحقير كل ما يعجبه ليحمله على الخجل بعواطفه وذوقه والبكاء من المهانة والذل· وعندئذ كانت تثور ثائرة رامبو ، ويستنكر دموع فرلين ، الذي كان يبلغه احيانا : انك ستتسبب بموتي لفرط ما تذيقني من الوان العذاب ، وهذا قدرنا جميعا نحن ذوو القلوب الرقيقة ·

واحيانا كان البشر الجادون الرصينون المنغمسون في مجرى الامور العملية يبدون في عين رامبو دمى متحركة خيوطها ايدي العبث ، وتعصف بها رياح الهذيان ، فيروح يضحك ويضحك في قهقهات مرعبة وهو يرى الحياة مسحرة ينخدع بها بعض الناس ، ويأخذونها عن جد ، ويتراءى له العالم وهما خادعا ينطلي زيفه وبطلانه على السذج وحدهم ، الذين ينظر اليهم من خارج فيهزأ منهم في سره وهو يراهم مندمجين في مسرحية الحياة ، حيث يمثلون ادوارا هزلية ينفصل هو عنها ، ويتفرج عليها من بعيد فاضحا الالعوبة كلها ·

ثم كان رامبو يتبدل فجأة ويروح يعامل فرلين بود ، ويصبح اكثر عطفا من ام شابة ، واكثر رقة من شقيقة محبوبة · لكنه متعب وقاتل حتى في لطفه وحنانه · لو انه اقل وحشية لكان في ذلك خلاصا لكليهما · ان فرلين المجنون المسكين خاضع له ، واقع تحت سيطرته لا يستطيع منه فكاكا · انه يحدس بأن رامبو لا بد ان يختفي في لحظة ما بطريقة لا مألوفة · فهل سيكون اختفاؤه خروجا من الجحيم ومن حمأة الرذيلة والشر ، وصعودا الى السماء محاطا بهالة من القداسة ، وايذانا بحصوله على الخلاص اخيرا · ان فرلين ليتمنى له كل خير · على كل حال ما اعجب هذه الرابطة الحميمة التي توثق بين قلبي هذين الشاعرين الضالين ، اللذين يبعث سلوكهما غير الطبيعي ، ومنهج عيشهما المحير على الضحك والاستغراب ·

كما ان رامبو في قصيدة « متشردون » في «الاشراقات» يعبر ايضا عن تجربته مع فرلين ؛ ذلك الاخ المسكين المثير للشفقة ، الذي امضى برفقته الكثير من الامسيات المريعة . انه لا يفهم هو نفسه طبيعة عاطفته نحو هذا الشقيق البكر ، والتي هي مزيج من المحبة والرثاء لحاله والارادة الصادقة في انقاذه وتفهم وضعه ، بعد ان استغل ضعفه وآفته ، وتسبب في هلاكه ، وجره الى حياة التشرد والشقاء . لقد كان فرلين يعتقد ان رامبو هو طفل بريء وقليل الحظ . واذ كان يعرب عن بعض الهواجس الباعثة على القلق كان رامبو يجيبه هازئا ، ويبتعد عنه نحو النافذة متابعا الاحلام التي تتوارد الى ذهنه تحت تأثير الافيون ، الذي لا يكاد ينتهي مفعوله اللذيذ ، الفظيع ،والسريع العطب ، حتى كان رامبو يتمدد على فراشه ، حيث سرعان ما كان فرلين يستيقظ من رقاده ، ومن كابوس يلقي في روعه ان اسنانه متآكلة وعيونه مقتلعة ، ويسحب رامبو من ذراعه الى الغرفة مولولا ، مفصحا عن الحلم المزعج والسخيف الذي رآه . بينما اخذ هذا الاخير على عاتقه بكل اخلاص ان يحرر صديقه من كل العبوديات والضغوط الخارجية ، ويعيده الى حالة البراءة والطهارة ، الى دنيا البكارة والعفوية التي خلقت عليها الطبيعة الانسان، تلك الفطرة الاصلية التي يسعى رامبو الى العثور على اسلوب لبلوغها ، والى التفتيش عن المكان الذي تستوطنه متشردا من اجل ذلك مع رفيقه يجوبان الدروب وينامان في الاقبية .

فهو ذا رامبو في فقرة من « جمل » في « الاشراقــات » يقول بأن فرلين رفيق فقير ، وطفل مريض ، لا مبال حيال بؤس العالم ومشاكله وتعقيداته ، ومصاعب وهموم صديقه رامبو ، الذي يرتاح لوجود انسان لا واقعي خيالي مثل فرلين الـى قربه لانه بفوضويته وتهوره الجنوني ، بغفلته وانعـــــدام كل حس عملي فيه وبتجاهله للكارثة التي تحيق به ، انما ينجح في ان يلهي شريكه عن هذه المأساة ، وينقذه من اليأس الذي تحتمه كل وقائع حياته · وفي فقرة اخرى من « جمل » يعلن رامبو انه قد انسى فرلين كل علاقاته الماضية ، وربطه اليه بوثاق محكم لا فكاك منه ، وسيخنقه بحبه ، ويتسبب في هلاكه · اما في فقرة ثالثة من « جمل » فان الشاعر يهتف بأن الحب هو عيون تنظر بدهشة الى لغز الحياة المحيــر ، ومشهد الكون المسحور الذي يسلب الالباب ، هو طفـــلان مخلصان هائمان على الشاطىء يحلمان بالسفر والمغامـــرة ورؤية المجهول ، وهو بيت آمن يسوده الهدوء والانسجام ، يعيش فيه كائنان متآلفان يغدقان الحنان والعطف المتبادل على بعضهما · بينما تعرف فقرة رابعة من « جمل » الحب بأنــه شعور بالاكتمال والاكتفاء ، بالطمانينة والخشوع ، بالثقــة بالنفس والايمان بجمالها ، والقدرة على الاستغناء والاستقلال عن الآخرين · واخيرا تجاهر فقرة خامسة من « جمل » بأن العالم لا يعبأ بنا · ان احدا لا يخاف منا ان كنا اقوياء ، او يحفل بنا اذا عبسنا · اما اذا ابتسمنا فاننا لن نجد مـــن يشاركنا مرحنا ، ويضحك لنكاتنا · ان شرنا او خيرنا لن

يؤثر على سير الاحداث ومجرى الامور • وكما ان العالم لا يهتم بنا ، كذلك علينا نحن بدورنا ان لا نكترث له ، وان لا نخضع لضغوطه وقوانينه ، لاصوله وتقاليده ، وان نمنعـه من الحؤول بيننا وبين الاستجابة لدوافع الحب بحرية مطلقة• فنضرب عرض الحائط بهزئه واستنكاره ، باعرافه وشكلياته لنطيع اهواء ونزوات قلبنا •

ان الغرفة التي كان يقطنها فرلين ورامبو في باريس عام ١٨٧٢ لا تكاد تتسع لفوضى الثياب والاطعمة المنثورة في ارجائها • ولا تكاد جدرانها تكفي لحماية الشاعرين الصديقين من اقاويل الناس الذين يشجبون مسلكهما الغريب ، ويتدخلون في شؤونهما ، محاولين تعكر جو حياتهما ، ومن احكـام المجتمع القاسية الذي يتخذ موقفا عدوانيا تجاههما ، ويشكل مصدرا للازعاج المتواصل لهما ، ويحيك ضدهما مؤامراته اللامجدية سعيا للتفريق بينهما • ان العنكبوت يعشش فـي زوايا هذه الغرفة ، وحتى بين حنايا الخزائن ويبقى هناك • لان شاغليها لا يقومان قط بترتيبها وتنظيفها ولانهما غالبا ما يتغيبان عنها دون ان يكون عندهما اعمال ضرورية وجديـة تقتضي ذلك ، بل لمجرد التشرد والتسكع في الخارج • ان الرياح غالبا ما تقتحم هذه الغرفة الحقيرة اثناء انصـراف ساكنيها عنها ، وحتى مياه المطر تتسرب اليها وتتجمع حول سريرها •ان الصديقين بعد ان يمضيا فيها ليلـة مهتوءة تنتهي السكرة ويحين دورهما كي يدفعا غاليا ثمن المتعة التي ذاقاها ، وكي يشبعا ازعاجات ومضايقات وخاصة من قبـل

ماتيلد موتيه زوجة فرلين · نعم لقد كانا يعرفان السعادة الحقيقية ان لم يأت انذار من العالم الخارجي يعكر عليهما صفوهما · نعم لقد كانت اشعة القمر الحالمة الناعسة البيضاء تحيط نافذة غرفتهما بهالتها السحرية ، ان لم يلتمع البرق على زجاجها كطلقة بندقية بعد الغسق ·

ـ « ··· معي انا وحدي تستطيع ان تكون حرا ··· »

كتب رامبو الى فرلين في تموز عام ١٨٧٢ ، مع انه ، في نهاية « فصل في الجحيم » يطلب مساعدة ، يتوق الى يد صاحب تمتد اليه · لكن هل الصداقة ممكنة ؟ ألم يختبر مرارتها واستحالة اقامة اية علاقة مخلصة بين انسان وانسان؟ ألم يفتضح اوهام الحب الكاذبة وزيف هذه الرابطة المزعومة التي تشد بين كائنين ، والتي هي اوهى من خيوط العنكبوت ؟ ألم يكتشف العزلة المطلقة التي حكم عليه بها ، والمنفى المؤبد الذي هو مسجون فيه ؟ ألم يتبين له انه محصور ضمن جدران ذاته ؟ لكن هنا في هذه الفسحة الحميمة الضيقة فقط سيكتب له اكتشاف الحقيقة ، وامتلاكها ، والتعبير عنها ·

ان بشاعات هذا العالم تجرح الانسان المثالي في صميم قلبه ، فيروح بملء كيانه يبحث عن الخلاص · لكن اين عساه يجده ؟ اعند المرأة ؟ انها ليست « شقيقة الرأفة » المنشودة · انها لا تستطيع ان تساعده ، انها بالاحرى تطلب العون منه · انها عاجزة عن العطاء ، مفطورة على الاخذ · اعند الفن او العدالة ؟ اعند العلم او الطبيعة ؟ كل شيء يخذله والعزلة

المخيفة هي قدرة الوحيـــد · فلئن فكر بالاهداف السامية والاحلام الجميلة ، بالنزهات الرائعة والحقائق الخالدة · فانه في اعماق روحه وبكل فلذة من اعضائه المريضة انما يتوق الى الخلاص النهائي ، الى « شقيقة الرأفــة » الحقيقية : الموت ·

لقد وعى رامبو كل تناقضات الوجود، ولا معقولية العلم· لقد ادرك اننا نفنى وتستنفد ايامنا دون انقطاع · الثمـــار تقطف ، الازهار تذبل ، وفي اليقظة كما في المنام ، في السراء كما في الضراء ، لا يكف نهر عمرنا دقيقة واحدة عـــن الجريان · فالانسان اشبه بمركب شراعي يغرق حتى قبل ان يتاح له ان ينشر قلاعه ، ويجهض مشاريعه دون ان يتمكن من تحقيق اي منها كما كان يحلم · انه يفشل منـــذ خطواته الاولى · ان رامبو لا يؤمن بالحب لان العاشق اناني يريد استغلال عشيقته لمتعته الخاصة · انه لا يقيم وزنا لمشاعرها ولا يستهويه فيها سوى لذته الشخصية · كما انه لا يثـق بالصداقة لانها لا تستطيع ان تتنزه عن الاثرة وحب الذات ، وان تقوم على تفهم كل من الرفيقين لنفسية الآخر ومراعاة احساسه · ان الحب والصداقة لا يدومان ، انهما خدعتان · كما انه لا يوجد عنصر في هذه الحياة يظل ثابتا على حاله · فاننا سرعان ما نحتقر ما كنا نقدس من قبل ، ونكره ما كنا نعبده سابقا ، ونحزن لما كان يفرحنا بالامس · فما اسخف اولئك الذين يأخذون الامور عن جد ، ويعتقدون بالقيم المطلقة، ويعتزون بشرفهم وجاههم جاهلين ان كرامتهم ومكانتهم قـد

تزولان بطرفة عين ·

ان جمال المرأة مكون من مادة قابلة للتحلـــل والفساد · ان اعضاء الجسم اذا تأملناها بما هي خلايا من لحـم ودم خاضعة للتلف ، لاصبحت مثيرة للقرف · ان اجمل حسناء اذا تمعنا في انحاء جسمها بما هو بؤرة للفنـــاء لاصبنا بالاشمئزاز : العنق العبل ، عظام الرقبة الثخينة النافرة ، الظهر المنحني الذي يتقوس ويستقيم ، بطة الرجل ، الشحم المتكاثف تحت الجلد ، القلب الاحمر · عندما نتفحص كلا مــن هذه الاجزاء على حدة ، ونفكر بوظائفها الحيوانية يخيــل الينا اننا نشم رائحة كريهة تنبعث منها ، انها قبيحة منفـــرة بشكل مخيف ، انها عورات وشوهات تحتاج الى عدسة مكبرة كي تظهر ·

الحب وهم تخلقه فينا بعض اللحظـــات الشاعريـــة العابرة : جولة تحت سماء عاد اليها صحوها بعد زخة من المطر · نزهة تحت اشجار الربيع المزهرة نرنو اثناءها الى سرب من الفتيات السائرات امامنا ، او مشوار تحت ضوء القمر نصادف خلاله بعض الصبايا في طريقنا · وان رامبو ليسخر الان من كل مغامرات الهوى التي سبق له ان عرفها ، ويكتشف انها لم تكن سوى مجرد اضاليل · فلطالما خيل اليه في مثل هذه السورات الوجدانية انه شاعر ، وهو يغضب على نفسه الآن لانه استسلم لميوعة عاطفية من هذا النوع ، وانخدع بخزعبلات مضحكة من هذا القبيل تدغدغ الغرور ، تتلاعب بالمخيلة ، وتضفي على من يقع ضحية لها عظمة كاذبة

وامجادا زائفة · ثم ها هو يصف كل الغثاثات التي ترافق عملية الحب : رائحة الشعر ، الخصلات التي تدخل الفم ، اللعاب الذي يسيل على النهد المدور ، العضات واللطمات التي تترك آثارها على الصدر العاري · نعم انه ليتقزز الآن من صراعات الهوى وكل هذه الفورات الانفعالية الرخيصة التي انطلت عليه بدعتها لفترة ما ، لا سيما عندما يفكر بأن هؤلاء الفتيات اللواتي وقع في غرامهن ، وتراءين له في لحظة آنية اشبه بحوريات ساحرات سيتقدمن في السن ، ويصبحن يوما ما عجائز شمطاوات يعرجن ويزحفن بتثاقل· فيتعجب ، نادما حانقا على نفسه ، كيف انه تعلق وتغزل بمثل هذه المسوخ المشوهة ، والكتل من الشحم واللحم التي تنخر فيها سوسة البلى فتتفسخ وتتعفن مع الوقت ، هذه الجثث المنتنة التي سيؤول مصيرها في النهاية الى نفايا مهملة في الزوايا ، أو الى راهبات هرمات يخدمن في احد الاديرة بذل وخنوع ، او الى ربات بيوت مسنات يعشقن كل تفاهة الحياة البورجوازية البليدة الخالية من الشعر ·

٥ ـ الابدية المستعادة

« ليس عنده شيء آخر يكشفه سوى انه عثر على الابدية ، ليس عنده شيء آخر يكشفه سوى أننا لسنا في العالم » ٠

بول كلوديل

لقد رفض رامبو كل معطيات الحياة ما عدا امرين : الطفولة والطبيعة ، اللذين يندمجان معا ليؤلفا جنة خضراء ، ما انفك الشاعر يحن اليها ، بنوع ان كل مجهود عمره لم يكن الا السعي للعثور على بديل ومعادل لهذا الفردوس الضائع ٠ انه يعشق الارض بشهوانية ، ويجني عسل قصائده من مروجها الزاهرة ٠ ان ابسط الوقائع الحسية تغذي شعره ٠ فالمادة هي منطلق الى الروح ، والفن هو ما تقدمه لنا حواسنا مختلطة ممتزجة بعضها ، حيث اللمس يطغى على الرؤية ، والشم على السمع ٠

ان سر الطرافة والابتكار في نظرة رامبو الى الطبيعة هو في انه لا يصفها بصورة سكونية ، في انه لا يراها وهو واقف او قاعد ، لكنه يبث فيها الحياة ، ويفاجؤها وهو متشرد او تائه ابان جولاته ورحلاته وهروباته المتواصلة ،

او يوحي بها في فيض من الافعال والعبارات النابضة بالحركة · اذ انه عاش قريبا منها ، نام في الهواء الطلق على دروبها ، واستلقى على هضابها ، قرب خمائلها ، وعند اطراف غاباتها ·

انه في احدى قصائده المبكرة « نائم الوادي » ، يصور لنا من جهة جمال الطبيعة وسكينتها : الوادي الاخضر المشع بالاضواء ، الجدول الرقراق ، قطرات الندى ، الجبل الاشم ، الجرجير الازرق ، والورود الشذية ، ومن الجهة الاخرى فظائع الحرب واهوالها : البشاعة والضراوة والوحشية وفساد الانسان الذي لا يزال ذئبا لاخيه الانسان ·

لقد كان مركب رامبو السكران اثناء طفراته المغامرة وهروباته الهوجاء ، يجد الطبيعة تفتح له صدرها الرحب ، وتبارك حماساته المتوثبة ، فيروح يهيم في جنباتها ، متخففا من كل اعبائه وهمومه ، سعيدا ، مستسلما بين احضانها ، غير هياب او خائف ، مقدما على اعنف المجازفات ، مرتادا المجاهل والمخاطر ، غير آبه للتحذيرات والتنبيهات التي تحاول ان تنهاه عن ارتيادها · وهكذا كان يشرد اياما بطولها دون مأوى ولا مأكل او امان ، غير آسف على العالم القديم الذي هجره ، وعلى الاناس التافهين الصغار الذين غادرهم ، غير مبال بنظرات التقريع واللوم والوعيد والشماتة التي يشيعونه بها · ولقد كان يختبر متعة حسية فائقة للوصف اثناء احتكاكه بالطبيعة ، التي كان يقرن بذهنه دائما بينها وبين اية فكرة عن الفرح ·

قال ارنست دلاهاي لرامبو فيما كانا يتنزهان معا في اوائل الربيع : ان عصر الديمقراطية والعلم والمساواة سيقود الى التفاهة ، وانه لن يعود هناك فن ولا جمال ولا عظمة • فما كان من الشاعر الا ان قطف زهرة عن حافة الدرب واجاب صديقه : انظر الى هذه الوردة ! اين تستطيع ان تشتري تحفة مشغولة فاخرة تضاهيها بهاء ومهارة صنع • عندما ستزول كل المؤسسات الاجتماعية ، فان الطبيعة ستظل تقدم لنا بتنوع مذهل ملايين الجواهر •

ان رامبو المتنزه علي ضفاف نهر مجهول ، ينساب بين الوهاد الغريبة ترافق هديره رفيف اجنحة الملائكة ، ونعيب مئات الغربان ـ التي يحب ان يتأملها وهي تحلق فوق البراري الباردة والاكواخ المنهارة ، بعد صمت اجراس المساء كجيش غامض يرسل اصواتا وحشية حادة فوق ساحات الوغى المزروعة بجثث قتلى المعارك الغابرة ـ يمتلىء بالخيالات والاحلام : سفرة في الزمان والمكان نحو بلاد قصية واجيال سحيقة القدم ، زيارة حصون منيعة وحدائق غناء ، اكتشاف اسرار مغرية ، تصور قصص غرام ملتهبة وحكايات مثيرة حول مغامرة فرسان تائهين ، والاستمتاع بطراوة الهواء اللذيذ المنعش • ان السائر على ضفاف هذا النهر ، تنتفخ رئتاه برياح البطولة والشجاعة ، ويمضي قدما بحماس ، ناسيا تفاهة العالم البغيض كلية •

يصف رامبو في احدى « اشراقاته » « عيد شتاء » شلالات المطر حين تهدر حول غرفته طارقة زجاج نافذتها ،

داوية على سقفها ، الرعد حين يقصف ، والبرق حين يلتمع في السماء كأسهم نارية حمراء بلون المغيب وسط نشيش المياه في الحدائق والممرات المجاورة · فتستيقظ غريزتـــه الجنسية ، ويشعر بحاجة الى دفء الانثى وحرارة جسدها ، هي القادرة وحدها على اشباع جوعه الهاصر الى الاحـــلام والعطف · ويتوق الى مزيد من المطر وقد اخذته موجة مــن الحنان ، وبعث فيه ذلك الكائن الذي يحب الشتاء ، ويتمنى ان يغمر العالم الطوفان ، او ان يسد الثلج كل المنافذ ، ليبقى هو قرب المدفأة مقطوعا في غرفته عن المحيط الخارجي ، ويعصف به الحنين الى السفر والرحيل نحو قارات بعيـــدة واجواء اسطورية يرى فيها العجائب والغرائب ·

وفي قصيدة اخرى عنوانها « دمعة » يصور لنا رامبو نفسه وهو يشرب من نبعة ماء في دغـــل محاط باشجار البندق لا تؤمه العصافير ولا القطعان ولا القرويات ، ذات بعد ظهر مغمور بالضباب تمازج جوه رطوبة مخضوضرة · انه يعاني من الضجر والتفاهة بين هذه الشجيرات ، فوق هذا السندس الذي لا تزهر عليه اي وردة ، وتحت هذه السماء الملبـــدة بالغيوم التي تنذر بالعاصفة · وفيما هو حزين على هذه الحال اذا بالرعد يدوي فجأة وينطلق الاعصار فيغير وجه السماء حتى المساء ، ويتحول المشهد على مسرح قلب رامبو لصالح الفرح · وها هو يرى إقطارا مجهولة ، وبحيرات ، واسماكا نادرة وقناطر محطات ينطلق منها في الليالي السنية ، مسافرا الى مدن جميلة طالما حلم بها · انه اشبه بصياد عـــلى

الشاطىء ينتظر رزقه والكنز ذاهلا مخطوفا عن نفسه ، مرتويا من اكسير سماوي يعفيه من كل اشربة الارض ·

وهكذا يمر رامبو في فقرة من احدى « الاشراقات » : « جمل » في نشوة جمالية وهو يتأمل الضباب المتصاعد من المستنقع فيخيل اليه ان ثمة ساحرة من بنات الجن ستظهر في هذا الغسق الابيض ، وان ثمة خمائل من البنفسج تزهـــــر امامه ·

وهكذا تعلن قصيدة « ميشيل وكريستين » : اذا مــــا غادرت الشمس شواطىء الفضاء ، واستحالت الى كلب اسود يكفهر معطفه شيئا فشيئا ، ويهرب من وجه الطوفان ، ومن ساعة البروق المتفوقة، واعتمت الطرقات واشجار الصفصاف، وراح الاعصار يرمي بأول قطراته في الباحة · اذا ما هربت قطعان الغيوم كجنود شقر يحرسون الجسور المنيعة والادغال الهزيلة ، ويهبطون الى عزلة افضل ، سابحين في الكبريت والظلام ، وارتدت السهول والصحارى والمروج والآفاق لباس العاصفة الاحمر · فان خيال الشاعر يسافر بحثا عن سماوات الجليد القانية تحت السحب الالهية التـــي تركض وتطير ، ويهاجر الى سهوب اطول من القطارات · ان همومه ومخاوفه تتبخر في هذا الاصيل العاصف المخيم بخشوع ديني فوق العالم القديم ، الذي تهيم فيه الوف من القبائل الرحل ، وتخب الفرسان على احصنتهم الشاحبة معلقين حبالهم المحمرة في السماوات السوداء ، وترن الحصى تحت حوافر هذا الموكب

البطولي الظافر · وبتأثير من الحالة النفسية الجيدة التي نقله اليها هذا التحول المناخي ، وقبل ان تنتهي هذه النشوة المسحورة ، وهذا الامتياز غير المتوقع ، ها ان فيضا من الاحلام والاماني تولد في خاطر الشاعر ، فيتساءل ان كانت ستتاح له الفرصة كي يرى الغابة الصفراء والوادي المشرق والوطن العزيز ، كي يقابل الزوجة الوفية الجميلة والرجل القوي وكي يعرف الامن والسلام ·

وفي احدى « الاشراقات » وتدعى « عمال » يصور رامبو صباحا دافئا في عز شباط ، حين يذكره هذا الطقس الذي يحل في غير اوانه بتشرده وفقره المدقع وبؤسه التام · وان منظره وهو يمشي مع رفيقه فرلين ، الذي يرتدي ثيابا رثة عتيقة من العهد الفائت ، لاكثر كآبة من مسيرة مأتمية · انهما يتجولان في ضواحي المدينة (ربما لندن) تحت سماء ملبدة بالغيوم ، فتهيج الرياح الجنوبية الحارة الخانقة اشجان رامبو ، تفطنه بخيبة آماله ، وجفاف روحه · بينما لا يتضايق فرلين من هذا الجو الحزين الى هذه الدرجة ، لانه بطبيعته اللاواقعية ومزاجه الخيالي يتعامى عن التعاسة المحيطة به من كل جهة· انه لا يرى في البركة الآسنة الباقية من فيضانات الشهر الماضي ظلالا مشوّومة تنعكس على الصفحة الوسخة ، كما هو مفترض ان يفعل · بل يوحي له ركود المياه باسماك وهمية تسبح في الاعماق · ان المدينة بدخان مصانعها وضجتها الصاخبة تلاحقهما حتى هذه الدرب النائية · فيتحسر رامبو على ذلك العالم

الاخـــر ، علـــى الريــــــف الذي يسكنـــــه انـــــاس محظوظون يستمتعون بنعمة السماء الصافية ، التي لا يعكرها عبق المحروقات وبركة الاشجار الخضراء والظلال الرحيمة ٠ ان هذا الانقلاب المناخي المفاجيء ليلفت رامبو الـــى بعض الوقائع المريرة من طفولته ، الى نوبات اليأس التي كانت تنتابه احيانا في الصيف ، الى كميات من القوة والحكمة يتحسر لان القدر حرمه الاستفادة منها ٠ لا ، لقد قرر الرحيل٠ فهو يرفض تمضية فصل الصحو في هذا البلد البخيل المجحف الذي لن يكون فيه هو وفرلين سوى « خطيبين يتيمين» ٠ انه يعز عليه ان يبقى مع شخص اثير الى قلبه في هذا المناخ الكالح ، الذي انضب فيه كل معين للحب ، فتحجرت عواطفه، واصيبت ملكاته الابداعية بالعقم ٠

عندما تعبت الريح بالزهور والاعشاب في شهر نيسان، فان حالات قديمة من السعادة والطهارة تطل براسها وامقــة الى الشرب من هذا الاكسير السماوي الذي يسكبه لها هذا الطقس المحير ٠ فالضباب الذي ينتشر دائما عـــلى منوال واحد ، لا يحوي على شيء من الاشراق والبهجة ، بينما ترتاح النفس الى اللحظات اللامألوفة ، والمراحل الانتقالية ، والاجواء التي لا هي بالحارة ولا الباردة ٠

ان رامبو يحب ان يذهب مع قدوم الربيع ، حين تكتسي الارض بالبراعم ، وتتعلق الاوراق الزاهية على الاغصان كالاجراس ، ليقطف الازهار ويجني الاثمار المتـــلألئة على

الافنان كالاغاني الروحية · انه يخرج جذلا ويكاد من فرط الفرح ان يتمرمغ على العشب ، عندما يخترق اول شعاع من نور الربيع ضلوعه ، ويضج الدم الفتي في عروقه ، حين يتأمل الدوالي وقد اينعت من جديد ، والسماء وقد عادت جميلة كالملاك ، والاثير والريح وهما يتحدان متعانقين · ان الحياة مليئة ، عادة بالضجر والازعاج · لكنه الآن يتخلى عن همومه ويود ان يربط عجلته بدولاب الصيف السعيد الحظ، متناسيا وحدته وتفاهته لكي يغني في الطبيعة وجدا وهياما · انه يحسد الرعاة الذين يغارون لا شك من اهل المدن ، ولا يلقون على الريف تلك النظرة الشاعرية التي يخصه بها رامبو · انه يعشق دورة الفصول ، ويستسلم لسحرها الاخاذ بكل كيانه منتظرا منها وحدها ان تقدم له الخلاص ، وتروي كل ظمئه · وتشبع كل جوعه ، فلا خدعة من هذا العالم تنطلي عليه · في مثل هذه اللحظات المباركة يصبح المرء مهيأ لقبول الحياة كما هي ، والرضى بكل امور هذه الدنيا · لكن رامبو يرفض ذلك ، ويريد ان يسلك درب الحرية مهما اعترضه من عقبات ولاقاه على جنباتها من حظ عاثر وعذاب مرير · انه يصر على المضي في مغامرته الهوجاء الى اخر الرحلة مهما كان الثمن · الحرية لعنة لكنه يباركها ، وعبء مرهق يتحمله عن طيب خاطر · انها قدره وقسمته ، ولن يتخلى عنها مهما بلغت التضحيات ·

ولقد عبر رامبو عن احساساته لدى عودة الربيع في اولى « الاشراقات » « بعد الطوفان » : ما ان عاد الربيع

وانتهى طوفان المطر ، حتى بعث الحيوان والنبات من هجعته الطويلة ، وهب نافضا عنه وسن الشتاء وخيوط العنكبوت التي نسجتها حوله الطبيعة خــلال شهور مديدة · وراحت احجار كريمة تسفر عن كنوزها المكنونة ، وورود مبرعمــة تتفتح وتتطلع حولها بدهشة وفضول · وفي الشارع الملطخ ببقايا الامطار والوحول والثلوج الذائبة ، ها هم ينصبون اكواخ البيع ، وها هم ينزلون القوارب الى البحـر العالــي الموج الهادىء اخيرا بعد طول اصطخاب بخفــة وجمال ، وكأنهم رسوم اشخــاص في صورة مسحورة · المباغي ، المسالخ ، اماكن اللهو ، تضج بالحركة والحيوية · فأشعــة الشمس تبث دما نضرا في العروق وتهيج الغرائز · بينما تغادر الحيوانات جحورها ، وتتراكم فناجين القهوة وكؤوس الكحول في المقاهي · وفي البيت ، الذي ما امحت بعد آثار خيوط المطر عن زجاجه ، ها ان الاولاد يخلعون عنهم ثياب الكآبة التي كانوا متشحين بها ، ويتأملون بانخطاف وفرح المشاهد الفاتنة التي تتوالى امام ناظرهم · الابواب تصفق · الناس تخرج · القبضات تلوح ، تحت زخة الربيع الفجائية ، باتجاه دوارات الطقس وتماثيل الديكة على الابراج التــي تسجل سرعة تيار الريح ، مطالبة بالصحو · ويرق الهواء عازفا الحانه برفق وهدوء مبشرا بالربيع موعــد الفصح والعنصرة ، حين ترتدي الطبيعة العــذراء ثوب العفــاف والطهارة ، وتحيي على مذابحها الف قداس للجمال ، حين تستيقظ في الانسان روح المغامرة والرغبــة في السفـر ،

والقابلية اللامتناهية على الدهشة ، وحين يطلع القمر على ايقاع عواء الثعالب السارحة في براري الصعتر ، ويغني الرعاة اناشيد السعادة في المروج المزهرة ، ويتضوع البنفسج في الحدائق المبرعمة ، حيث تعلن النعمة والسحر عن حلول موسم الدفء والخير • لكن بعد الفرحة الاولى بقدوم الربيع يسود الضجر والتعاسة ثانية ، وتأخذ الارض بالانغلاق على اسرارها والانكفاء على ذاتها كما من قبل ، حتى ليتمنى رامبو لو تعود المياه الى التفجر في البرك والزبد الى التعالي فوق الجسر والضباب الى الصعود فوق الغابات والبرق والرعد الى الوميض • ولو يغمر الطوفان العالم من جديد •

لقد كتب رامبو الى اهله من عدن يتمنى لهم صيفا طويلا يدوم خمسين عاما ، ويهنئهم لانهم حصلوا على صيف جميل هو بمثابة تعويض عن قساوة الشتاء ، وهو يصف في احدى فقرات « جمل » في « الاشراقات » يوما في عز تموز لكن سماءه مع ذلك عابسة ملبدة بالغيوم ، وجوه كالح مكفهر ، وهواءه مشبع بطعم الرماد • حتى لتنبعث رائحة الحطب من المدفأة التي اضطروا بسبب رداءة الطقس غير المنتظر ، الى استعمالها في غير اوانها • وحتى لتتعطل النزهات في الهواء الطلق ، وتتبلل الورود بالمطر ، الذي يسمع خرير خيوطه الرقيقة النادرة في اقنية الحقول • لم يعد ينقص الا الهدايا وضوع البخور كي نشعر بانفسنا في عيد الميلاد وراس السنة اي في قلب الشتاء •

في آخر « فصل في الجحيم » يتساءل رامبو : ها هو

الخريف قد حل منذ الآن • لكن لماذا عساه يأسف يا ترى على افول الشمس ، وانصرام ايام الصحو طالما انه قد نذر نفسه لكتابة الشعر ، واكتشاف شعاع سماوي يغنيه عن نور الارض • وطالما انه قد انسحب من العـالم الواقعي وحياة البشر العاديين ، الذين يفرحون ويحزنون على حلول وانقضاء الفصول ؟ ويجيب بأن مرد ذلك هو ان الخريف يعني بالنسبة له موسم الشقاء • انه قارب يشق الضباب متجها نحو مرفأ البؤس ، تلك المدينة الكبيرة ذات السماء الملطخة بالنـار والوحل ، تلك الحشرة مصاصة الدم التي تتغذى بقطرات ملايين البشر ، وتميتهم لكي لا تلبث ان تنصب نفسها ديانا عليهم • ان الخريف يذكره بالاسمال البالية ، بفتائت الخبز اليابسة المبللة بالماء،بالسكر والعربدة،بمغامرات الحب المشينة المثيرة للقرف التي تترك في داخله جروحا لا تندمل • انـه يستثير في بالـه صورا عن تشـرده قذرا مريضا ، وعـن تعاسته وغربته الموحشة • لكنه يكره الشتاء ايضا لانه فصل الرخاء والرفاهية على حد قوله • وما عرفه من السعادة في هذه الحياة يقتصر على بعض التماعات خاطفة ، واشراقات مفاجئة قد تنتج عن رؤيته لبعض قطع من الغيـوم البيضاء تسبح في زرقة السماء الصافية ، او ذؤابات الفجر تشـع بالوانها الباهرة المتعددة في الريح الهادئة • في مثل هذه اللحظات كان يمتلىء بالحماس اللانهائي ويفيض قلبه بالشعر، وتملكه قدرة على الخلق فائقة للطبيعة •

اذا كان رامبو حساسا جدا كما راينا لدورة الفصول ،

فانه لا يقل تأثرا بايام الاسبوع · فها هو في قصيدة مـن « الاشراقات » « صبا ـ ١ ـ الاحد » يصف حالته النفسية ذات نهار احد راح يحاول فيه عبثا ارغام ذاته على العمل وكد الذهن وبذل المجهود · ثمة جو من الضجر والكآبة والوجـوم يسود غرفته ، وفيض من الذكريات يتدافع الى رأسه، فيتحسر على فترة الطفولة والصبا الباكر ، حين كان الالهام يستجيب له بعفوية ودون عناء ، حين كانت ملكاته الابداعية يقظـة مشحوذة الى اقصى درجة · اما حاليا ، اما في يوم الاحد هذا ، اما وسط هذا العالم الآلي الحديث ، الـذي غيرت الصناعة معالمه ، واخترقه « الطاحون الفحمي » من طرف الى طرف ، وراحت وسائل المواصلات تشق طريقها عبر كثافة مدينته ، فليس امامه سوى الفراغ والوحشة ، سوى الاسى والوحدة · حتى ليتوق من اعماق انسحاقه ويأسه القاتل الى انفجار ، الى كارثة تنقذه من وضعه الآسن ، الى سكرة من كحول قوية تنسيه بؤس حاله ، الى صدمة ، الى جريمة ، الى جرح عميق يخرجه من الفتور والبلادة والموت الروحي · لكأنه طفل متشرد مقطوع في هذه الدنيا ، عاجز عن الكفـاح في معتركها ، وتحصيل حقوقه وسط ذئاب غابتها المفترسة ، يختنق عن قهر وتخاذل التجاديف واللعنات التي تتعالى الى شفاهه ، ويهيم وحده على درب الحياة الوعر ، وفي ليلهـا الحالك الحزين · لكن يجب عليه ان يواصل الدأب ، ويواظب على كتابة الشعر ، رغم الضجة الصاخبة العدائية الصادرة عن العالم الخارجي ، والتي تحاول ان تخنق فيه كل تطلع روحي ، كل طموح فكري ، وكل عاطفة جمالية ··

كما ان رامبو يملك حساسية مرهفة تجاه ساعـــات النهار · وهو يصف لصديقه وابن منطقته ارنست دلاهاي جمال الاستيقاظ عند الفجر في باريس ، حين تزقزق العصافير على الاشجــار ، وتظهــر عنابــر المدرسة الصامتة امامــه ، وتدوي طرطقة العجلات الاولى على الطريق · ان شروق الشمس غبطة خاطفة لا تدوم اطول من صياح الديك ، تلقي اثناءها زقزقة العصافير ليل الاجتهاد والعمل فــي غياهب الماضي ، وتفسح المجال لآفاق المستقبل ، حيث يستطيع اي احتمال ان يحدث ، وتزول خلالها استمرارية الديمومة لتخلي الساحة لحظة تجل عن الوصف ، وتشبه الابدية ، تصالح الانا مع العالم في نوع من الوجود المشترك ، وتخلق فينا رغبة تصبو الى الغد ، وراحة قلب يغمره الآن الحالي بكل ما يريد · انها موعــد ساحر لا يعبر عنه ، كان رامبو يؤخذ به دائما ، وهو يكتب لمراسله من العاصمة الفرنسية قائلا :

ــ « ··· ان اول فجر في الصيف ، واماسي كانون الاول · هذا هو ما سحرني دائما هنا ··· »

انه يعطي افضلية لهذين الوقتين المتناقضين من السنة · لكن الفترة من النهار الاثيرة عنده هي الفجر ، لانها لحظة البداية المطلقة ، والولادة الجديدة · انها مرحلة انتقاليـــة حائرة بين الليل الذي انتهى ، والنهار الذي لم ياخذ مجراه بعد ، تفجر في النفس شعورا بالفرح والقوة ، بالوجـــود والامتلاء · انها نقطة اتصال ونقطة انقطاع في ذات الحين · ان سر عذوبتها ونضارتها هو انها عهد من النسيان التام ·

ورامبو لا يمل من وصفها في قصائده · فهي راقصة ستتلاشى مع الاشعة الاولى كالورود السريعة العطب، وستخلي الساحة امام الاتساع الرائع للمدينة المزدهرة التي نحس بلهاثها ، وهي حدث جميل جليل ومفيد في آن معا ، اذ انها شرارة ضرورية لانبثاق الحياة ، والشروع في مباشرة اي نشاط ، انها ومضة من الطهر تمحو كل آثام الليل ·

ان الفجر هو موضوع قصيدة « فكر الصباح الطيبة » حيث يصف رامبو الساعة الرابعة من بعد منتصف ليل الصيف ، فيما لا يكون العشاق قد استيقظوا بعد من ليلة الغرام ، وفيما يكون البناؤن بقمصانهم التحتانية مبادرين الى التوجه نحو مركز عملهم بكل نشاط وحيوية تحت الشفق المضرج بالدم · انهم يشيدون المستقبل الجديد بسواعدهم القوية ، انهم يرصفون حجارة مدينة الغد بزنودهم المفتولة · انهم يشقون ويكدون كعبيد ملك بابلي · بينما لا يزال الآخرون يغطون بالنوم · وان رامبو ليتعاطف مع هؤلاء الكادحين في هذه الساعة الفجرية التي يكون فيها القلب منفتحا لمحبة الجميع ، ويحلم لهم بماء زلال يروي عطشهم ، وببحر هادىء يتبردون فيه ويغسلون عرقهم عند الظهيرة ، ويتمنى ان لا تكون الحياة ظالمة معهم اكثر مما ينبغي ، فتأخذ من المترفين السعداء ، اصحاب الامتيازات ، وتعطيهم هم المحرومين ·

كما ان « فجر » هو عنوان احدى اجمل قصائد « الاشراقات » ، حيث يقول رامبو :

ـ « لقد عانقت فجر الصيف ... »

نعم لقد تذوق رامبو كثيرا جمال الصباحات المشرقة ، حين كان يستيقظ باكرا ، فيجد ، في هذه اللحظة المسحورة ، ان البيوت هي قصور نائمة لا تصدر عنها اية نامة او حركة ، ان جمود الموت يخيم على المياه ، وان فرق الظلال لا تزال تحتل طريق الغابة . عندئذ كان يمشي جذلا ، متنشقا بعذوبة طراوة الهواء ، مستقبلا بنشوة هبات النسيم الناعمة على وجهه ، ورفيف اجنحة الطيور التي تشق الفضاء باجنحتها ، سابحة فوق رأسه بسكون ، ونفحات الالهام الذي يعثر حوله على الف جوهرة وجوهرة تنظر اليه باغراء ، مقدمة له نفسها ، لا تطلب منه سوى ان يمد يده ليلتقطها ، ويتلقى عطية الشعر وهبة القول . ففي الدرب العابق بالنور الباهر المنعش ها ان :

ـ « ... زهرة تقول لي اسمها ... »

ففي هذه الهنيهة المباركة تنفلق امام عين الشاعر القشرة التي كانت تحجب عنه جوهر الاشياء ، التي تكشف له عن سرها ، وتمنحه حقيقتها متعرية امامه ، فتروح الكلمات تتصاعد الى شفاهه مسمية الاشياء كما هي في حقيقتها . انه يرحب بكل ما يقع بصره عليه ، ويهلل له ، ويجد فيه مادة صالحة لقصيدة . واذ تسرب اشعة الفجر من خلال اشجار الصنوبر ، التي تبزغ الشمس من وراء قممها الفضية، يروح الشاعر يرفع الحجب عن وجه الجمال نقابا نقابا ،

مجذفا بيديه في الممر من فرط النشوة والحماس ، مذيعا في السهل سر قدوم الشمس على الديك ، الذي يأخذ بالصياح مبشرا بوصول الملك وشروق عهده ، مطاردا القرص البازغ الذي يهرب امامه في المدينة ويختفي بين قبـــاب الكنائس والمباني ، على ارصفة المرمر ، وفي اعلى الطلعة قرب اشجار الغار · واخيرا يشهد الشاعر في الغـــابة تحقق الشروق الفعلي ، ويتلقى سطوع الاشعة المحيية التي يمتصها بكل جارحة من جوارحه ، يحتضنها ، يعانقها ، يضمها الى قلبه بوجد ، ولا يستيقظ من سكرته وحميته الا عندما يتجـــاوز النهار مرحلة الصباح ·

فالظهيرة مرحلة انتقالية بين صحوة الفجر الذي دالت دولته ، وبين ضجر بعد الظهر الخالي من الامل · انها تعلن افول الوجه المسحور للحياة ، التي يتباطأ ايقاعها عندئذ ، ويتوقف عن الجريان ·

وهو ذا رامبو في قصيدة اخرى من « الاشراقات » : « آثار عجلات » يستوحي ايضا فجـــر الصيف : الاوراق تستيقظ مرتعشة ، البخار يتصاعد ، الضجة تتعالى في زاوية الحديقة ، خميلة البنفسج تعكس ظلها على الدرب ، الذي تترك عليه عجلات العربات آثار مرورها · انها نشوة صافية، واشراقة روحية مباركة يخيل لرامبو اثناءها ان موكبا مسحورا يمر بعجائبه وغرائبه امامه هو قافلة السيرك المتجولة هذه التي تعبر على مقربة منه بعرباتها المحملة باشرعة وحيوانات من

الخشب المذهب ، بالواح واطارات مزخرفة ، السائرة كلها على ايقاع خبب عشرين حصانا مبقعا • فيتسارع تيار الحياة التي تفقد من ثقالتها ورصانتها ، من جهامتها وجديتها ، وتصبح مسرحية مسحورة تتوالى وسط جو مدهش ، وتعمر بمخلوقات زاهية منتعشة محاطة بهالة نورانية عجيبة ، جديرة بالاعجاب والاجلال كشخصيات تاريخية وابطال اسطوريين يشتركون كلهم معا في عيد ريفي بهيج يتم في ضواحي المدينة• الاولاد والرجال من مهرجين وبهلوانيين وممثلين يركبون اغرب الدواب، واندر العربات المزدانة بالزهور كمركبات وهمية قديمة في قصص الخرافات مليئة باطفال يرتدون ملابسهم الاحتفالية ، بينما يتوج الريش رؤوس خيول استعراض زرقاء وسوداء تتهادى في مسيرة مهيبة •

وكما يحب رامبو فجر الصيف فانه يهوى ايضا في لياليه الجميلة ان يتنزه بين الحقول متحسسا بلذة نداوة الاعشاب تحت رجليه ، ورطوبة الهواء على بشرته ، ويهيم وجدا بكل ما يراه ، ويمضي وحيدا كجواب آفاق ، سعيدا وكأنه برفقة امرأة • فالمحروم من غرام الانثى غالبا ما يملأ فراغ قلبه بعشق الطبيعة • كما ان الاشراقات تصف في مقطع من « جمل » الليل وهو يهبط قاحما بلون الحبر الصيني، ذاريا بهدوء مسحوقه الاسود على السهرة ، فيطفىء الشاعر قنديله ، ويرتمي على فراشه ويدخل مملكة الظلام ، حيث يرى فتيات احلامه ، واميرات خياله ، ويسرح في دنياوات مسحورة مدهشة •

نعم ان مركب رامبو السكران يحب العاصفة ، حين تلتمع البروق في السماء ، وتصطخب امواج البحر وتثور مرغية مزبدة ، والمساء وهو يحل اخيرا ، والفجر الباعث على الحماس كسماء مملوءة باسراب الحمام • ولقد تذوق كل جمالات الطبيعة افضل من اي انسان آخر • فتأمل مبهورا الشمس وهي تغيب محاطة بهالة من الرهبة والخشوع ، صابغة الافق بالوانها الارجوانية ، مختفية بجلال كممثلي مأساة يسدل عليهم الستار ، مرتعشة بانعكساتها الاخيرة على صفحة المياه • كان قلبه مربوطا الى عجلة الفصول التي كان يراقب دورتها بلذة وشغف ، فيحلم ان يستيقظ ذات صباح فيجد الثلوج الباهرة قد كست العالم بوشاحها السحري ، وراحت تتهاوى بهدوء ، ينتظر عودة الربيع بشوق ، مصغيا بنشوة الى دبيب النسغ اللامسموع الساري في بدن الارض ، ويستمتع بمشاهدة ارض الخريف بشحوبها الكالح ، وسماء الصيف بزرقتها الصافية •

ان رامبو مؤهل بحكم طبيعته الشاعرية البكر للعثور على الابدية في اللحظة ، على تلك الثغرة الصغيرة التي تحدث فجأة في الزمان ، وفي عالمنا اليومي ، فتجعلنا نتعالى بصورة خاطفة سريعة الزوال على ايقاع الوجود الرتيب ، ونستشرق اعلى القمم الصوفية ، ونتصل بالعالم الآخر • انه مرشح اكثر من سواه بفضل مزاجه الطفولي الطاهر البريء لان يعيش ذلك :

ـ « ••• الحاضر الابدي ، على شكل دولاب، كالشمس،

وكالوجه البشري ، قبل ان تطليه الارض والسماء ، باذى ، فيما هي تشده اليها ... »

الذي عناه رنيه شار .

بهذا المعنى فان نشيد الفرح المسحور غالبا ما يتعالى من قلب رامبو الجذل السكران . فكل انسان ، مهما كانت حياته شقية يظل له حصة من الغبطة محفوظة على اسمه هي قسمة ونصيب لا بد ان ينالها ، ولا مرد لها كالقدر المحتوم .

عندما تحل نعمة السعادة على رامبو ، وهذا ما لم يكن يتوقعه هو الملعون ساكن الجحيم ، يخيل اليه ان المستقبل سيكون مشرقا امامه ، وان ايامه القادمة لن تكون عبئا بغيضا لا يحتمل ، ويرضى عن حياته الماضية التي يشعر بأنه لم يرتكب الاثم والشر خلالها . ويتحرر من الندم وينسى الاضطرابات النفسية التي عانى منها في السابق ، حين كانت ابواب روحه التي يسهر تأنيب الضمير على فتحاتها كشماعد جنائزية موصدة في وجه الخير . فكأنه ما عرف قط مصير ابن العائلة الضال الميت قبل اوانه والمدفون في تابوت مغطى بالدموع . نعم الخطايا التي ارتكبها بالامس بشعة ويجب ان يرمي القذارات جانبا . لكنه في هذه اللحظة يشعر ان هناك شيئا آخر غير الالم والخيبة والمرارة . فهل عاد طفلا يلعب في فردوس الغفلة والبراءة بنجوة من كل الهموم والمشاكل والعذابات .

ايقاع الحياة ، التي تغدق عليه وعودها البراقة بسخاء،

يجري بسرعة فتمتد امام ناظريه امكانات مدهشة ، حتى ليقتنع بأن الانغماس في شؤون الواقع المادي تفاهة وابتذال. وان تلك الحالة من الوجد الفائقة للطبيعة والغبطة الالهية وحدها التي تحمل لنا مفاتيح المعرفة ، وتتيح لنا ان نرى الجمال والخير في الكون ، الذي يتراءى لنا مقبولا طيبا ، وان نودع ضلالات واوهام واغلاط البارحة . ان هذا الانخطاف الروحي المهنوء هو قارب الخلاص الذي يجذف فيه الملائكة منشدين اعذب الاغاني ، حيث يغمر رامبو حب لا نهائي نحو جميع البشر ، فيتمنى ان يفتديهم وينقذهم ، ويرفض ان ينجو وحده بينما يتخبطون هم غارقين في اللجة . انه يريد ان يشاركوه مصيره وان يقاسمهم الخطوة التي نالها ، الآن وقد تنزه عن الاغراض والغايات الانانية الضيقة ، وراح يبارك الحياة ، ويحب القدر الذي يمده بالقوة ، الان وقد تحرر من الضجر والغضب ، من الرذيلة والجنون والكوارث، وارخى كل حمله القديم ، وعاد الى حالة البراءة والطهارة المفقودة . لكنه لا يذهب مع القديسين والمتصوفين الى ان هذه الغبطة الفائقة للطبيعة ، وهذه النقمة الآسرة هي دليل اتحاد مع الله . ان رامبو يطلب خلاصا فرديا حرا مجردا من اي مدلول ديني ، يتحقق هنا والآن ، دونما مساعدة من اي قوة عليا . اذ انه لا يحتقر الارض ، التي لسنا بحاجة الى التسامي فوق واقعها ، والامعان في العاطفية والماورائية لبلوغ النعمة :

— « ... اني احتفظ بمكاني على قمة هذا السلم الملائكي للحس السليم ... »

ان نسمة هواء ناعمة تهب على بشرة رامبو كانت تكفي احيانا لابتعاث نشوته ، فيخفق شراع مركبه السكران بالامل، وتنبت له اجنحة للطيران ، ويتهادى ، على درب هذه المتعة الروحية التي لا تحتاج الى اكثر من اريج زهرة ، مرنـــح الاعطاف ، ثملا دون ان يكون قد ارتشف قطرة واحدة من الخمر . اما اذا ما سئم من الحياة وتكاليفها فان السفـر والتشرد على الطرقات ، وهو عزاؤه الاول وخلاصه الاكيد ، كان يقدم له مفاجآت سارة تغمره بالفرح فيظل للحظات ذاهلا، مخطوفا عن الواقع كامرأة راكعة على الارض ، مستسلمة لتيار الغبطة الساري في كيانها .

فالابدية ليست قائمة فيما وراء هذا العالم ، بل هي موجودة ضمن نقطة محددة من محيطه ، وفي لحظة معينة من تاريخه ، نستطيع استعادتها ودخول رحابها فعليا اثناء رحلة عمرنا على هذه الارض ، وذلك خلال بعض اشراقات مباركة قد تنتج احيانا عن اتفه الاسباب : عن تأمل منظر طبيعــي جميل : البحر ، الشمس . او عن التجول في الهواء الطلق ، والشرود بين احضان الطبيعة ، حين تستيقظ الروح الخالدة الهاجعة في اعماق كل منا ، وتؤكد نفسها ، متغلبة على تيار الفناء ، كاشحة حجب الظلام ، مطفئة نيران الجحيم التــي نتلظى بها عادة متحررة من حروف الايام والليالي ، منعتقة من كل الاعباء والاثقال والضغوط والهموم البشرية ، متخففة من كل النواهي والواجبات والشرائع والقوانين لتطير وتحلق طليقة من كل قيد . وعندما نعبر الى نطاق الابدية نشعر

بالامتلاء والاكتفاء والحصول على كل مطالبنـــا · هنـــا لا ماض نتحسر عليه او نتذكره ، ولا مستقبل ننتظره ونهفـو اليه ·لا التفات الى الوراء ، ولا تطلع الى الامام · فتوزع الانسان بين الامس والغد هو مصدر شقائه وعذابه · اما في الابدية التي هي غاية ذاتها ولا تحتاج الى اي عنصر خارجي غريب عنها ، فانه لا يوجد الا الحضور الدائم والتجرد من كل الرغبات والاماني ·

عندما تسمع انا الفرح في رامبو صوتها تخرس كـل التساؤلات والشكوك التي لا ينتج عنها الا الدوار ، ويستسلم لتيار الحياة السهل المرح المتفجر بالحماس كأغنية عذبـــة تجسد الغبطة وتجعلها مرئية بالعين المجردة · نعم العالم مليء بالنقص والعيب بلكنه يحتوي على بعض لحظات غنية من الغفلة والصفاء مسروقة من العمر منزهة عن الدوام ، نفلت خلالها من قبضة الفناء ، ونتحرر من الزمان ونعيش الناحية الروحية الملائكية من كياننا ، يجب ان نذعن لها حين نحظى بها وننعم بخيراتها ، متناسين كل نقص وعيـــب · كل شر وقلة حظ · نعم من بين الانوات العديدة المختلفة التي تتكون منها نفسية الانسان يوجد انا فرح تسكره بخمرة المجد دون أن تصيبه بالدوار ·

تعلن قصيدة « رحيل » في « الاشراقات » : كل المشاهد متشابهة قبلناها في كل مكـــان ، كل الاصوات متماثلـة سمعناها هي هي من الصباح الى المساء ودائما وابـــدا · كل الاحداث مترادفة · كل الاحكام على نمط واحد ومعروفة

سلفا . يجب تحطيم رتابة الحياة ، يجب ان نعيش عمرنا بوجد وحماس ، ونبحث عن الجدة والطرافة ، عن الاثارة والمفاجأة .

اما في الاشراقة « الى عقل » فان رامبو يؤكد ان لحظة اشراق واحدة تكفي كي « تفجر كل الوان السعادة ، وتحل الانسجام الكوني ، وتخلق فينا انسانا جديدا يسير الى الامام بخطى واثقة تجيش بالعزيمة والامل . وفي لحظة الابدية هذه تغمرنا المحبة الشاملة نحو كل انسان ، فحيثما تلفتنا وجدنا موضوعا جديدا لوحينا . وعندئذ نناشد ، باندفاع طفولي ، الغبطة التي تغمرنا من كل جهة ان تغير قدرنا وعجلة حظنا ، وان تقضي على كل آفاتنا وأوبئتنا واولها عبء الزمان ، ونرجوها ان تسمو بمادة احلامنا ورغباتنا وتمنياتنا ، وترتفع بمصيرنا الى اعلى درجات الرقي » لانها قدرة فائقة للطبيعة ابدية ولا متناهية :

ــ « ... قادمة من كل زمان وستذهب الى كل مكان ... » .

بينما يصرح رامبو في قصيدة « متوحش » في « الاشراقات » بانه قد بلغ درجة من الغبطة تضعه خارج الزمان والمكان . قلبه يضج بالدم الحار ، ويصبح زورقا سكرانا يسبح فوق البحور الهادئة كالحرير ، عابرا الجزر المسحورة التي يعمرها خياله بجنائن الورد المدهشة . ولقد نجي من نوبات البطولة الزائفة التي لا يزال صداها يترجع

في باله ايضا ، والتي كان يمر بها بفعل المخدر ، الـــذي تخلص من سلطانه ، جمرات متأججة في فؤاده تطفىء جليده السابق ، وتملؤه الى الابد بالدفء الانساني ، فيروح يقـذف خيراته وكنوزه الى الخارج ، حيث يصبح بكل ما تقع عينه عليه جوهرة ثمينة ، ويكتشف ، بعيدا عن الاحقاد والاطماع القديمة ، جمالات الكون وانسجام الوجود وحرارته ، التـي تثير حماسه كذوبان الجليد لدى ارتطامـــه بالكواكـب ، يا للعذوبة والسحر ! الاشكال تتلاشى ، التعـــب يزول ، المظاهر تختفي ، والعيون تنفذ الى الجوهر ، وتأخذ النفس موجة من الحنان ، حتى لتكاد تبكي من فرط النشوة ، وزخم الحب البشري الذي يغمرها من كل جهة ·

ثم يقول رامبو في قصيدة « قلق » من « الاشراقات » : ان لحظة من الفرح تنسينا كل خيبات الامل ، كل الاحـلام المجهضة ، وكل الرغبات المخنوقة في مهدهــــا · ان ردحا قصيرا من الرخاء المادي يغتفر كل فتـــرات الفقر والبؤس التي عانينا منها سابقا · ان نجاحا صغيرا يعوض علينـا كل اخفاقاتنا القديمة ، وكل ما كنا نشكو منه في الماضي من فشل وعار ، من قلة مهارة وانعدام كفاءة فطرية · ان الغبطـة هي جوهرة غالية ، هي نصر مبين ، هي الحب والقوة · انها اشراقة روحية وانخطافة عميقة تتجـــاوز كل حالات الفرح التي سبق لنا ان عرفناها في اي مكان وفي اي حين· انها طاقة الهية شيطانية تستولي علينا ، تجـــدد نضارتنا وشبابنا وحيويتنا ، وتبعث الطفل الهاجع في اعماقنـــا من

رقاده . ان المحبة الشاملة التي تعتري النفس ابان لحظة الغبطة هي الحافز الى مشاعر التآلف بين الشعوب والتعاطف بين البشر التي تنادي بها المذاهب السياسية ذات النزعة الانسانية . ان العالم المسحور الزاخر بالفضول والايمان ، بالمعجائب والمعجزات ، العامر بروح الدهشة والحماس والمغامرة الذي تقودنا اليه اشراقة الفرح ، هو الدافع الى الكشف العلمي ، وغريزة الاختراع والابتداع والبحث عن الجديد . ان واقع الغبطة يشبه الحالة المهنوءة التي عشناها في العهد السعيد الغابر ، الذي امضيناه في فردوس الطفولة المفقود . ولعلنا انما نحب الدعوات السياسية الى التآخي والمساواة والاكتشافات العلمية لانها تعيدنا الى براءة العمر الاول . لكن دودة الفناء التي تنخر عظامنا دون كلل ، ومصاصة الدماء التي تستنزف عمرنا دون انقطاع ، وهاوية العدم التي نحملها في قرارة نفوسنا ، والتي هي مبعث قلق وخوف دائم لنا ، تجعلنا مهيضي الجناح ، خافتي الصوت ، مهذبين ، سلسي القياد ، نذعن لكل امر ونرضى بكل شيء . لاننا نعرف اننا ضعاف لا نملك القدرة على الرفض وعلى فرض ارادتنا . ونقبل بالمتع القليلة المتاحة لنا في اوقات الهدنة القصيرة لانه ما في اليد حيلة ، ولاننا باعراضنا عنها لا نفعل سوى ان نزيد حالتنا بؤسا وتعقيدا وموقفنا صعوبة واحراجا . فاما ان نلتقط هذه الفضلات القليلة التي يتركها لنا صراعنا مع الفناء ، واما ان نحرم نفسنا من كل متعة فنجتر اوجاعنا وعذاباتنا في جو من الملل والرتابة ، ووسط صمت ولامبالاة العالم العدائي

الظالم ، حيث حتى آلامنا تهزأ بنا ، وتشمت بصراخنا وأنيننا ، الذي تقابله ببرودها الوحشي المخيف ، المتوالي دائما على وتيرة واحدة ·

وهكذا نجد ان الامل لم يمت في قلب رامبو رغم شقائه وحياته المجدبة ، وانه سيظل دائما يستيقظ بعد ليل طويل ومظلم ليستقبل الفجر بعينين طافحتين بالبشر :

ـ « ··· لقد مددت حبالا من قبة جرس الى قبة جرس ، عقود زهر من شباك الى شباك ، سلاسل ذهب من نجمة الى نجمة ، ورحت ارقص ··· »

وهو يحلم بعالم بكر ، وبعث جديد للانسانية ، باسلوب حديث في العمل ، ومنهاج طريف في العيش ، بزوال الطغاة والجلادين ، وطرد الابالسة والخرافات القديمة ، وبعهد من الخير والبركة والخلاص للجميع سيكون هو اول المرحبين به ، والمبشرين بقدومه ، والمهللين لتحقق وعود السماء على الارض وتقدم الشعوب وانعتاقها من عبودياتها وبؤسها وشتى انواع المظالم والمفاسد · وهو لئن كان من العبيد ، من المحرومين والمعذبين في الارض ، فانه لن يلعن الحياة :

ـ « ··· وفي الفجر ، مسلحين بصبر متأجج ، سندخل الى المدن الرائعة ···»

اما في اخر قصيدة من « الاشراقات » وعنوانها « عبقرية » فان رامبو يضعنا امام حالة من الانخطاف الروحي

العميق ، والغبطة الخارقة للطبيعة التي لا يمر بها سوى كبار القديسين والمتصوفين · انه لا يصف تجربته هذه على انها اتصال بالله (الذي قد لا يكون مؤمنا بوجوده) لكنه يصف لحظة الابدية تلك الفرصة النادرة التي نحقق اثناءها الانفصال عن جسدنا وننحاز الى ذلك الجانب الروحي من كياننا · تلك النعمة المباركة التي تحل على المختارين فيكتشفون ان ملكوت السماء موجود في داخلهم ، وانهم يستطيعون الاتحاد بالله هنا على هذه الارض · لقد اشرف النور الرباني على قلب رامبو كما لم يسطع الا في احشاء الاصفياء والبررة ، ولقد اجاد تصوير هذا الضياء ونقل اشعته السنية الى الاخرين ، وعكس وهجه الخارق على مرآة نفسه كما لم يفعل سوى الانبياء والمرسلون · لكن هل ادرك يا ترى ان هذا الوميض صادر عن الله ، وان هذه الحديقة المسحورة التي اتيح له التنزه في رحابها هي الجنة وقد فتحت ابوابها في وجهه ؟ ان الحيرة التي تنتابنا حيال هذا الامر تجعلنا نعي ما عناه كلوديل عندما نعت رامبو بانه :

ـ « ··· متصوف في حالة التوحش ··· »

وبانه نبي حل عليه الروح ، وطفل بريء ومرعب ، معهود اليه فجأة برسالة سامية لا يفقه حرفا واحدا من نصها ، وينبوع من الوحي الديني ضائع في ارض مجدبة، رافض الاستجابة لنداء الله ، والتعرف الى المراسيل التي توجهها له السماء · لكن هذا الصوت الذي تصامم عنه

رامبو واكتفى بنقل بعض نغمات منه الى شعره اثر على سمع شخص كبول كلوديل كانت اذنـه حساسة ومهيأة للاصغاء اليه ، ومن هنا نفهم ان يكون الاول هو الذي قاد الثاني الى الايمان باللـه ٠

ـ «٠٠٠ اني مدين لرامبو بارتدادي الى الدين ٠٠٠»

فلقد صرح كلوديل بان فجـر عودته الى الحظيرة المسيحية يبدأ مع اكتشافه لهذا الشاعر الملعون ٠ وكان ذلك في ايار من عام ١٨٨٦ في حديقة اللكسمبورغ ، حيث دخل ليتصفح مجلة كان قد اشتراها هي « لافوغ »(La Vogue) التي باشرت بايعاز من فرلين بنشـر القسـم الاول من « الاشراقات » على غير علم من مؤلفها الذي كان حينذاك في الحبشة ٠ ولقد كانت هذه القصائد بالفعل اشراقات بالنسبة لكلوديل ، فتغيرت حياته كلية بفضل هذه المقتطفـات القليلة التي ظهرت في هذه المجلة الصغيرة ، التي كانت كافيـة لتقويض اركان كل الجهاز الفلسفي الذي كان يشيد عليـه حياته الفكرية حتى ذلك الوقت ، والتي كشفت له ان الفائق للطبيعة هو المرافق الدائم للطبيعة ، حتى لقد بعـث في ٢٦ تموز عام ١٨٩٧ برسالة الى مالارميه جاء فيها :

ـ «٠٠٠ منذ الهزة العنيفة الاصلية التي اصابتني لدى تسلمي مجلـة « لا فوغ » حيـث قرأت ، لاول مـرة ، « الاشراقات » استطيع ان اقول اني مدين لرامبو بكل ما انا اياه فكريا وخلقيا ، ويوجد ، فيما اعتقد شواهد قليلة على مثل هذا الزواج المتين بين روحين ٠٠٠ »

كما انه يقول في رسالة اخرى بعث بها الى باتيـــرن بيريشون صهر رامبو :

ـ «··· هناك كتاب اخرون قد علموني ، لكن ارثور رامبو وحده بناني ···»

وهكذا مع ان مؤلف « الاشراقات » يدير ظهره لكل دين، مع انه ليس متصوفا ، فانه يقودنا الى الايمان ، لانه يشير لنا الى وجود عالم اخر غير هذا الذي نعيش فيه ، ويثيـــر حنينا اليـــه ·

فكيف تصف لنا قصيدة « عبقرية » تلك الغبطة الخارقة للطبيعة : انها حالة من الوجد ، والحاضر الخالص · انها آن ابدي متحرر من معايير الزمن ، يتطهر خلاله كل شيء ، ويستعيد نكهته وعذوبته ، ويبدو ممتعا ولذيذا · الرحيل يتراءى لنا جميلا والبقاء كذلك · انها نعمة خارقة يحـــل علينـا أثناءها الامل والقوة والحب ، وتبرق كالشهـــاب الملتمع في سمائنا ، حيث تخفق فجأة ببيارق الغبطة ، التي نتوق اليها من اعماق وضعنا العادي المثير للغضب والازعاج ، وواقعنـــا المؤسف الغارق في الالم والمرارة التي هي نصيبنا المألوف من الحياة · انها المحبة وقد اعيد خلقها من جديد · لا حب شخص بالذات ، او امر محدد ، بل التعـــاطف مع كافة البشـــر بالتساوي ، بصورة شاملة كاملة مدهشة ، لا تستثني احدا ، ولم يسبق لنا ان شعرنا بها ، تفتح قلبها للجميـــع ، وحتـــى لاولئك الذين لم نكن نتوقع ان نشرع لهم ابوابنا في يوم من الايام · فالمرء :

– «... لا يستطيع وهو يخرج من الطفولة ان يخنق قريبه الى ما لانهاية ...»

كما يقول رينه شار . انها الابدية هبة القدر المقدسة ، واعز مطلب للانسان . انها جوهرة غالية . نحرص عليها اشد الحرص ، ونخاف على فقدانها . لاننا اذا اضعناها خسرنا ذاتنا وكل كنزنا في هذه الدنيا . انها دليل على بلوغنا اعلى درجة من الوجود ، وهي بالتالي فرحتنا بتمتعنا بالصحة ، ورسوخنا على أرض البقاء . انها تفجر كل طاقاتنا الخلاقة ، وتخصب كل ملكاتنا الابداعية . اننا نتعلق ونتمسك بها ، ونتعبد لها تماما مثلما انها تعشقنا بكل زخم شغفها اللانهائي . حتى اذا ما غابت عنا رحنا نستدعيها بكل جارحة من جوارحنا . لكن لئن ابتعدت عنا فان الوعد بها يستمر بمداعبة وجداننا ، وتبشيرنا بانتهاء عهد الخرافات والتعاسات القديمة ، وايقاعات الرتابة السابقة ، والايام الشائكة الحالكة . انها اذ تهجرنا لا تغادرنا الى الخارج ، واذ تحل علينا لا تحط من اجواء غريبة بما انها كامنة في قرارة كل منا . انها لا تفتدي آلامنا ونقصنا وخطايانا ولا تعدنا بالثواب في الاخرة ، ولا تعللنا بفردوس قائم فيما وراء هذا العالم . انها لا ترجيء تقديم الجزاء والمكافأة لنا الى ما بعد ، بل تمنحنا اياها فعليا ومباشرة ، وتعطينا السعادة الموعودة والخلاص هنا والان . وهذه الهدية ليست شيئا اخر سوى هي ذاتها ، سوى ان تهبنا نفسها ، ان تكون ، وان نحبها . ما ألذ انفاسها . ما ادفأ احضانها . ما أجمل

دروبها · فتحت تأثير فعلها السحري تكتسب كل حركاتنا وافعالنا خفة ورشاقة وانسجاما ، وتتشح الاشكال الخارجية بالرونق والبهاء · ونتجلى الامتلاء والاكتمال في كل مكان ، ونرضى عن كل تصرفاتنا ، ونغتني بخصوبة روحية عميقة· واذ يتراءى لنا الكون رحبا واسعا حافلا بالامكانات نحصل على ذلك الانعتاق الذي طالما حلمنا به · وتحطم نعمة آسرة الاصفاد التي كانت تكبلنا والسلاسل التي كانت تقيدنا · واذ ثبت في اوصالنا قوة وحيوية ونشاطا جديدا ، تحررنا من كل انواع الاذلالات وأصناف الاعباء والهموم الماضية ، وتزيل كل العذابات التي كنا نعاني منها ، تخنقها ، وتكبت صوتها وسط انغام معزوفتها السحرية ·

ثم تحملنا على اجنحتها الى بلاد العجائب والغرائب ، الى مناطق مجهولة لن يتاح لنا زيارتها على اقدامنا ، او بواسطة اي من وسائل النقل الاخرى المباحة لنا في الظروف العادية، مهما جمحت بنا الرغبة الى السفر ، وعصفت بشراعنا رياح المغامرة · وعندما نستأثر بهذه الخطوة المباركة التي ترفعنا عاليا فوق مستوى القطيع البشري ، وتميزنا عنه ، نصبح معرضين لان نقع ضحية للكبرياء وفريسة للغرور · لكننا لا ننزلق الى تلك الغطرسة الانانية والتفرد عن الاخرين ، والاستعلاء على من هم دوننا مقاما ، الذين لا نجافيهم او نبتعد عنهم ، لا نأنف من مصافحتهم او ننفر من التعامل معهم · بالعكس اننا نعطف عليهم ونشفق على بؤسهم ونحنو على حقارتهم · اننا لا نستغل تفوقنا للحط من قدرهم واقامة حاجز

بيننا وبينهم · بل نندفع نحوهم لنساعدهم ، ونغدق عليهم من العطايا التي هم محرومون منها ونؤاسيهم · اننا اشبه بملك متواضع يترأف بالفقراء · ان هذه الغبطة الخارقة للعادة تنشلنا من هذا العالم الذي نعيش فيه ، حيث لا يوجد سوى حالة من الالم تتجدد دون انقطاع اصنافا وألوانا · وبما ان لكل فرد منا حصة في وليمة الفرح هذه التي هي قدر لا مرد له ، فيجب ان لا نيأس عندما يخيم علينا ظلام الليل ، وتعصف من حولنا الانواء ، بل ان نعرف كيف ننتظر شروق النور ، وعودة الهدوء · وكيف ندعو الخلاص ونستجير به ، فلا ندع رؤيته تغيب عنا بل نظل مؤملين به في احلك لحظات العمر ، في الاخطار والشدائد ، في التفاهة والضجر ، في مباذل الحياة اليومية ورتابتها المميتة ، في الذل والهوان · وان نلمح صورته وراء قشور واعراض وامجاد هذه الدنيا الزائلة ، تواقين دائما اليه ، متطلعين ابدا الى نجمته بنفاد صبر ، تعبين سئمين من كل ما ليس هو ، متابعين طيفه باستمرار ، ملاحقين دون انقطاع انفاسه وشمسه وطلاقة اجوائه الرائعة·

٦ ـ الرائي

« الشاعر هو الذي يرى ، وماذا يرى ؟ الفردوس !٠٠٠»

اندريه جيد

الالهام شرارة لا يعرف الفنان متى تندلع في باله ، وتفجر الطاقة الابداعية الثاوية في اعماقه ، فتقتصر مهمته عند ذاك على مد يده لاغتراف الخيرات ٠ لكن العالم لايساوي شيئا خارج نطاق الشعر ، الذي هو الحياة الحقيقية ، والذي لا يتم الا في الابدية ، التي لا نرقى اليها الا نادرا ، وخلال بعض ومضات خاطفة كالبرق يصعب علينا بعدها ان نعود الى ايقاع الرتابة البطيء ، وفي الظلمات التي تعقب هذه اللحظات المشرقة ، فان :

ـ « ٠٠٠ الزمن بين الفراغ المريع الذي يفرزه ، وبين امل ـ احساس باطن لا ينبع الا منا ، وليس هو سوى الحالة المقبلة من الشعر الاقصى ، والرؤيا التي تعلن عن نفسها ، الزمن سيجزىء نفسه ، سينساب ، ولكن لصالحنا ، نصفه بستان ، ونصفه صحراء ٠٠٠ »

على حد تعبير رينه شار ٠

ان قصيدة « سحر » في « الاشراقات » تعلن ان اللحظة الجمالية تضفي رونقا وبهاء على ساعات النهار ، وتبث فيها النبض ، فيجري النسغ في عروقها :

ـ « ··· في الظلال العذراء والاشعة الهادئة في الصمت الكوكبي ··· »

انها تزيد تعاقب الفصول روعة حتى لتتراءى لنا حرارة الصيف اشبه بـ :

ـ « ··· عصافير خرساء ··· »

توحي بالهدوء والسكينة النفسية · ويبدو لنا ان تراضي وخمول الطقس الدافىء هو قارب مأتمي جليل يوعز بالهيبة والوقار ، ويثير في القلب موجات قديمة من الحب ، ويبعث ذكريات باهتة ميتة · ان اللحظة الجمالية قد تتولد عن الاحتكاك بالطبيعة : الشلالات والفيضانات ، الينابيع والانهار بهديرها ، الرياح بصفيرها ،الهواء الطلق بانفاسه الرحيمة، الغابات بحفيف اوراقها ونداوة ظلالها ، الحيوانات المرجعة اصداء اصواتها في الوديان · كما أنها قد تصدر عن روح الطفولة المفعمة بالحب والحنان ، الغنية بالتعاطف مع كل المخلوقات والاشياء ، والقادرة على احاطة الكون بهالة اسطورية مدهشة · ان قابليتنا على الاعجاب والحماس أثناء لحظة الابدية يفوق اضعاف المرات كل ما تستطيع الحياة ان تقدمه لنا ، سواء على صعيد ساعات النهار ، او توالي الفصول ، او سحر المناظر ، او فرادة الوقت · ان جوعنا

الى الجمال في مثل هذه الهنيهات لا يستطيـــع قوت اشباعه مهما بلغ من الندرة والقيمة ، لانه توق وعطش الى المطلق ·

وفي الاشراقة « كائن الجمال » يقول رامبو : ان طيف الجمال المهيب يطل علينا خلال لمحة استثنائية خاطفة ، تحل فجأة كالثلج وتذوب بسرعة مثله ، تعصف به رياح الحيـاة والموت فيظل متأرجحا بين هذين القطبين ، يرتفع وينخفض ، ويهتز ويرتعش كشبح محبوب مهدد بالزوال في اي حيـــن ، بفعل بذرة الفناء المزروعة في جسده · ان الرؤيا الجماليـة تغير العالم من حولنا ، فاذا بالوانه الباهتة من قبـــل تصبح نضرة زاهية واضحة المعالم ، واذا باشكالـــه ترقص امامنـا متحررة من ثقالتها المادية · ان رياح الدمار تصفـر من كل جهة محاولة تحطيم الجمال أمنا الرؤوم ، متضافرة مع امواج البقاء والفناء الآتية وراءنا من بعيد من العالم الذي هجرناه، في الاطاحة بها ، فتجفل ، تتراجع ، وتشرئب بعنفوان للصمود بتحد واباء في وجه كل التهديدات · وكأن كونهـــا عرضة للزوال والاختفاء ليس الا ليزيدها بهـــاء واصرارا علـى الاستمرار ، ويعلي من قيمتها في نظرنا ، ويجعلنا اكثر تعلقا واحتفالا وقابلية على الاستمتاع بهـا ، فنتأملهـــا بنشوة ، لكأننا نولد ثانية ، وننظر الى الدنيا بعيون بكر ، فنعشق كل ما نراه :

ــ « · · · آه ! ان عظامنا تكتسي بجســـد عاشـــق جديد · · · »

لكن الجمال سريع العطب ، ينقطع فجـأة ويخبو اواره

كلمع السراب · وما أصعب حالة الموت التي نعيشها بعد زواله ، حين يذوب الثلج فنعود الى رتابة الحياة اليومية ، وايقاع الدقائق البطيء ·

بينما يؤكد رامبو في قصيدة « ملكية » في « الاشراقات » انه ، حين تستولي السكينة النفسية والهدوء الداخلي عليه فيحس بجلال وسمو روحه وروعة وجمال عالمه الباطن ويتوهم نفسه ملكا ، انه ، في لحظة مسحورة مباركة كهذه ، يهلل فرحا وحماسا ويهتز تأثرا وهو يكتشف ان الالهام يستجيب له أخيرا ، وان جهوده الفكرية قد اسفرت عن نتيجة واعطت أكلها ، واجتاز الامتحان بنجاح ، مبرهنا عن مقدرة وكفاءة · وعندئذ يعشق ذاته معجبا بها ، راضيا عنها ، ويغيب عن الوعي من فرط الغبطة · ان لحظة الالهام قصيرة جدا · لكنها مليئة وغنية بنوع ان الشاعر يخيل اليه أثناءها انه قائد مظفر يدخل المدينة التي فتحها ، بينما الحشود المتزاحمة عن الجانبين تراشقه بالورود ، وتضفر أكاليل الغار حول جبينه ·

ان الفنان يخترق قشرة الواقع الذي هو ألم وبشاعة الى الجمال والحقيقة الكامنة فيما وراء المظاهر الكاذبة · وهكذا يعيش في قلب الطبيعة مكتنها جوهرها ، منتشيا بالخمرة المديرة للرأس التي تسكبها له ، ذاهلا من هذا الفرح الخارق للعادة الذي تغدق عليه · اننا ننطلق من دنيا الحس الى دنيا الروح · ان أبسط الوقائع الارضية قد تكون احيانا الشرارة التي ننبثق منها الى أجواء السماء · ان الرؤيا الشعرية الابداعية تولد عن تدمير الواقع · انها ليست مجرد

حلم لامادي ، وليست وهما تبتكره الحاجة الى الهرب من الحقيقة ، وليست مهزلة تكفي اقل نسمة هواء كي تجعلها تتبخر · انها ارادة خلق ·

وهكذا فان رامبو ، ضحية بشاعة هذا العالم الترابي الذي يسحقه ، يبحث عن الخصوبة المنشودة بان يفتح بابا على الجانب الآخر من كيانه ، على الناحية الروحية حيث يجد أشياء جديدة مدهشة ورائعة ، جديرة بالرؤية ومتحررة من كل تحلل وفساد مادي · من هنا ان رامبو اذا ما غامر في اصقاع ذاته فليس ذلك بغية الضياع عن الواقع ، بل سعيا الى فهم نفسه وسبر غورها · انه يريد ان يبني بقوة خياله دنيا جديدة خالية من القبح والظلم ، من الالم والبغض تكون ملكه الخاص · وان ينسخ معطيات الحس داخل قلبه الى هبات روحية ، فتكون ثمرة هذا التحول قصيدة · ان مشاهدة ما لا يرى ، والاصغاء الى ما لا يسمع يتطلب طاقة فذة من غير معدن تلك الروح الميتة ، التي نستشرف بها الاشياء عادة · ان ألفريد دي موسيه :

ـ « ··· لم يحسن فعل شيء ، كان هناك رؤى خلف غلالة الستائر : لقد اغلق العينين ··· »

كما يعيب عليه رامبو ، الذي هو ، بحسب بول اليوار ، احد الفنانين الذين « يخلقون عيونا جديدة » · اذ انه لا يكتفي بان يكشف لنا عن الاشياء الغريبة والطريفة ، انه يريد ايضا « أن يحرر حواسنا » · انه يجدد ليس فقط الصور،

بل وأيضا طريقتنا واسلوبنا في معاينتها ، انـــه يغير حاسة الرؤية ذاتها · انه يدرب خياله على اكتشاف الرؤى الشعرية، واقتناص الصور المجازية · انه ينظر الى الاشياء فلا يكتفي بتسجيل مظهرها الخارجي ، بل يخلق القشرة السطحية ، وينفذ الى الجوهر حيث تكمن الاستعارة الفنيـــة ، يمزق الغشاء الكثيف الذي تقيمه العادة والمنفعة بيننا وبين الاشياء ، التي يفجر منها بهذا الشكل امكانات غير معهودة ، ويكتشف لهـــا نوعا من الطبيعة الثانية كانت محتجبة عن أبصارنا · وهـــذا مطابق لتقرير جاك ريفيير :

ـ « ··· ان ننظر شيئا هو أن نـــراه ينفتـــح ، يغور ، يختفي أمام ما كان يخبئه » ·

وهكذا فان عينا عادية ترى في هذا المبنى مصنعا · بينما يتجلى فيه بصر الشاعر ، عندما يطل عليـــه من كوة الفن ، مسجدا · وتتراءى له الغيوم :

ـ « ··· مدرسة من طبول صنعها ملائكة ··· »

او

ـ « ··· عربات على دروب السماء ··· »

اما عندما يحدق في قاع بحيـــرة ، حيـــث تنطبع الانعكاسات المسحورة ، فانه يشاهد غرفة استقبال · انه يعثر على العجائب والغرائب في كل مكان · وكل مادة تتحول تحت عينيه الدهشتين الى جوهرة فريدة · ان أقل مشهد ، ان اتفـــه

عنوان، ان أبسط حادث يصبح تحت نظرتـــه الشاعرية غنيا مكتنفا بالاسرار المغرية ، يشكل حافزا لخيـــاله الجموح ، فيمضي يشيد حوله التصورات المذهلة · انه يدرب نفسه على هذه الحالة من الهلوسة والهذيان ، وهذه الفوضى الروحيـة التي يجدها مقدسة ، لانها وحدها المؤاتية للابداع الشعري · في لحظة الرؤيا :

ـ « كل موضع يصبح مكانا لشيء آخر ··· »

كما يقول جاك ريفيير · وبهذا الاسلوب يندمج عنصران متضادان ببعضهما ، وينصهران معـــا لتكويـــن الصورة الشعرية · وهكذا يخيل للشاعر في احـــدى « الاشراقات »: « بحرية » ان المراكب السابحة على المـــاء تقتلع جـــذوع النبات · وتتداخل الوان متنافرة مأخـــوذة من لوحتي البحر واليابسة المتناقضتين على رسم التشابيه والمجـــازات · بهذا المعنى تتكلم القصيدة عن تيارات السهل ، وعن الخطوط التي تحفرها عجلات العربات على صفحة المـــاء ، والتي تنساب دائريا نحو الشرق ، عن صواري الغابـــة ، وعن اشجـــار الاحواض التي تصدم حوافيها زوابع من النور ·

ان هذا يذكرنا بالرسام الستير (Elstir) في رواية « البحث عن الزمن الضائع » ، الذي ينعت بروســـت احدى المجازات المألوفة في لوحاته البحرية بانها تقوم على التشبيه بين الارض والبحر ، والغاء كل حد فاصل بينهما · فهو في تحفته المسماة « مرفأ كاركو تويت » لا يستعمل للتعبيـــر عن

البلدة سوى استعارات مأخوذة من عالم البحـــر ، الـــذي لا يستخدم للدلالة عليه سوى كنايات مستوحـــاة من واقـــع البلدة ، سواء لان البيوت تخفي قسمـــا من المرفأ ، او لان الخلجان تتوغل بعيدا في اليابسة · وهكـــذا تختلط سطوح المنازل بصواري السفن التي تكتسب طابعا معماريا ، وكأنها مشيدة على الارض ، وكأن ركابها سكان بنايـــات متجاورة يتحادثون مع بعضهم · وهكذا يبدو قارب الصيد وكأنه لا يمت بصلة الى العباب الذي يطفو فوقه ، تماما مثلما ان الكنائس البعيدة المرسومة على اللوحة تتراءى ، محاطة بالماء من كل جهة ، منفصلة عن البلدة ، متلفعة بغبـــار الشمس ورغوة الزبد ، وكأنها تنبثق من الامواج وسط هالة من قوس قزح ، مشكلة هكذا مشهدا لا واقعيا وصوفيا · الى هذا الحد نجح الفنان في الغاء التخوم القائمة بين عاليـــن متناقضيـن · فالرجال الذين يدفعون المراكب في اليم يتحركون بذات الوقت وسط الثبج ، وفوق الرمال المبللة ، التـــي تنعكس عليها ، وكأنها تتمرأى على صفحة الماء ، خيـــالات مراكب يوهمنـا بعضها انه يسبح وسط البلدة · والنســـاء اللواتي يلتقطن الاصداف عن الشاطىء يضطربن في مغارة بحريـــة مطوقـة بالسفن والطوفان · في حين يبدو القـــارب ، الذي يستقله المتنزهون ، عربة ، والنوتي الذي يقوده حوذيا يلجم أرسنة الخيول ، والركـــاب الذين يجربون ان يحفظوا له توازنـه جماعات سارحين في حقول مشمســة ومرابـــع ظليلـــة او منحدرين الوهاد · ان سطح اللجة يشبه في جزء منه رصيفا من الحجارة ، او حقلا مغمورا بالثلج يترنـــح زورق على

قمته • فرب اوقيانوس ، مرسوم في جو صيفي حار ، يبدو ، محصورا بين حيطان من الغرانيت الوردي ، انه ليس ذاته ، وانه لا يوحي باستمرارية خضمه سوى بعض طيـور النورس التي يخيل للناظر انها تدور حول الاحجار ، في حين انها في الواقع تشم رائحة الامواج • اما المراكب الشراعيـة فانها تلوح كالفراشات البيضاء • بهذا المعنى كـان يحلو لألستير احيانا أن يرسم سرابات حقيقية ، يتراءى له خلالها القصر المتوج ببرج واحد قلعة دائرية كلية يوجد في اعـلاها بـرج ينعكس على صفحة المياه الصافية ، فيوهمنا ، اما بفضل الجو الصاحي او بتأثير ضباب الصبـاح الذي يجعل اللبنـات السميكة اكثر شفافية من الظلال ، ان ثمة برجا ثانيـا من الحجر الحقيقي مدغوم بأسفل الصرح • وهكذا تتراءى له السماء بحرا ، ويشاهد في انعكاسات الضوء على صفحـة هذا الاخير سلالم من الكريستال •

رب خليج بسبب اقتراب صخوره ، او نهر بسبب انعطافة مجراه يبدوان وكأنهما يحفران بحيرة وسط السهل او الجبال• ورب نهر آخر ، ينساب تحت جسور المدينة ، يتراءى ، مأخوذا من وجهة نظر معينة ، مقطع الاوصال كلية ، راكدا هنا كبركة، ضحلا هناك كشبكة ، محجوبا هنالك خلف هضبـة متوجـة بالاشجار ، منسحقا منكفئا على نفسه في موضع رابع على ضفاف المدينة التي تغرق بيوتها في الضباب • رب كاتدرائية اعتدنا أن نراها وسط الاحياء الآهلة يصورها لنا الفن بنوع ان تظهر ثلاثين مرة أعلى من المنازل ، وفي جوار نهر هي في

الواقع بعيدة عنه • وكل المشاهد تخضع هكـــذا لخسوفات للرؤية مماثلة •

ومن هنا انه كان يتفق لمارسيل بروست بفضل انعكـاس شمس أن يرى في قسم معتم من البحر شاطئا بعيدا ، او ان ينظر بفرح الى قسم آخر من الزرقة والهدوء بحيث انه كـان يبقى حائرا لا يعرف ان كان ما يشاهده يدخل ضمن نطـاق البحر أو السماء • وهكذا كان يخيل اليه احيانا ، وهو في غرفته في باريس ، ان الضجة التي تتناهى اليه من الشارع صادرة على شجار أو مظاهرة ، الى ان كان يتبين لـــه ان الاصداء التي يسمعها انما مبعثها هدير سيارة ، تقترب من بعيد • ان الذكاء هو الذي تدخل هنا ، وميز بين الصوتين : الصراخ البشري وزئير الآلة ، اللذين يشكلان بالنسبة للاذن نبرة واحدة غير قابلة للتفريق •

ان سر السحر النابع من لوحات ألستير يكمن : •

ـ « ••• في نوع من التحول للاشياء المرسومة ، شبيه بما يسمى في الشعر الصورة المجازية ، واذا كان الله قد خلق الاشياء بان سماها ، فانما يعيد ألستير خلقهـــا بان يجردها من اسمها ، أو بان يعطيها اسما آخر • ان الاسماء التي تشير الى الاشياء تخضع دائما لمفهوم للذكاء ، غريب عن انطباعاتنا الحقيقية ، يجبرنا أن نحذف منها كل ما لا يتطابق معه ••• »

ان جهد ألستير ينصب على تحرير نفســـه في حضـرة

الحقيقة من كل المعلومات المسبقة التي يمليها علينا ذكاؤنا ، على حملنا على رؤية الاشياء ، لا طبقا لما يعرفه عنها عقله بعد اعمال ذهن ، بل وفقا لما تتوهمه حواسه حولها للوهلة الاولى · وهو بذلك انما يعلمنا ان ننظر الى العالم بطريقة جديدة · ان لوحات ألستير ، بحسب بروست ، مصنوعة من تلك اللحظات الشعرية النادرة التي يكتشف خلالها جوهر الطبيعـــة · ان الصورة التي يقدمها لنا الفنان عن الحياة تخرجنا من عاداتنا اذ تملؤنا بالدهشة ، وتدخلنا في ذواتنا اذ تذكرنـــا بأحـد الانطباعات ·

لنفرض أن رامبو يتأمل منظـــر ورود ، ويمر في نشوة كما حصل له في « الاشراقة » « ورود » فان الصور الشعرية تروح تولد في ذهنه على الوجه التالي : النقطة الـــتي هو متمركز عليها تبدو له مدرجا من ذهب ، بينمـــا تتراءى له أصناف الزهور المحيطة به : حبالا من الحرير ، او أقمشـة رمادية شفافة ، بعضها يظهر له كمخمل أخضـــر ، وبعضها الآخر كاسطوانات من الكريستال تلفحهـــا الشمس فيكفهـر لونها ، وتلتمع كالبرونز · قسم منها هو كناية عن سجادة ، او آنية نحاسية عليها نقوش فضة وعيون وجـدائل شعر ، وقسم آخر هو بمثابة قطع من الذهب الاصفر الرنـــان منثورة على البللور · نوع منها هو أشبه باعمدة من خشب الاكاجو تحمل قنطرة من الزمرد · ونوع آخر يحـاكي باقـــات من الاطلس الابيض ، او نثرات ناعمة من الياقوت تؤطر زهرة ما · ويخيل للشاعر في هذا اليوم الصافي الاديم أن السماء والبحر همـا

عينان زرقاوان يجتذب بهما اله متسربل بالبيـــاض جمهور الورود الفتية والقوية نحو شرفات الرخام ٠

وهكذا نجد رامبو في قصيدة من « الاشراقات » عنوانها « مشاهد » يعلن ان مهزلة العالم اياها توقع معزوفتها الخالدة وتعرض مشاهدها المختلفة وتوالي أحداثهـــــا ومغامراتها ، فصولها ووصلاتها المألوفة ٠ ان الحياة تتراءى له كتمثيلية ، الشوارع تبدو له خشبة مسرح ، والممر ، الذي يمشي عليه في هذه المنطقة الصخرية حيث تتزاحم وفود الشعب المتكالبة على اللهو والمتعة ، المتهافتة على مباهج النزهة ، تحت الاشجـار المعراة من أوراقها ، يظهر له كاطار كرتوني ٠ ويتهيأ له انه يعبر مماشي متشحة بمسحة سوداء ربما ترمز الـــى اقتراب المساء متتبعا خطى مارة يتهادون تحت المصابيح والاغصان ٠ ان أفواج العصافير التي تحط على الاعمدة تلوح له حينا كتلك الطيور الغريبة العجيبة التي كانت تظهر في مسرحيات القرون الوسطى المقدسة ، يتفرج عليها عابـــرو سبيل يخرجونهـا بحركتهم وتململهم من سكونها كمجموعة من الجزر تمتلــئ دون انقطاع بمسافرين جدد يحطون عليها عصـــا الترحال ، وتلوح له ، حينا آخر ، كفرق تمثيليـــــة تؤدي استعراضات غنائية على ايقاع الطبل والقيثارة ، وتحني رؤوسها لتصفيق الجمهور ، في أكواخ محفورة لها في سقوف السماء دائرة حول الغيوم المتلبدة هنا كصالات نواد عصرية أو سابحة في فسحة صافية من السماء تنعكس عليها شمس الغروب بألوانها الوردية هناك كقاعات شرقية قديمـــة ٠ ان هـــذه الحلقـة

المسحورة التي تشكلها الطيور توالي رقصاتها الاخاذة حتى قمة مدرج متوج بالغياض . انها تتحرك وتتموج فوق الزروع وفي ظلال الغابات الكثيفة المتماوجة باغصانها ، لتجعل نفسها مرئية من اولئك الذين لا يمتد بصرهم الى ما هو أبعد من طرف انوفهم . حتى ليخيل لرامبو ، وهو يسير على هـــذه الدرب المحاطة بالاشجار عن الميلين انه في دار للاوبرا تنتهي عندما تتلامس دوحتان في آخر الممر ، وأن المسافة بينه وبين القرص الغارب على الافق ، هي الفسحة التي تفصل بيـــن صالـــة العرض المعتمة ، وبين خشبة المسرح المشعـــة بالاضـــواء . وبالفعل انما المتنزهون هنا متفرجون جاؤا ليتأملوا مشهـــدا مثيرا هو غياب الشمس .

وهكذا يتراءى العالم لرامبو مسرحا هـــو متفرج علـــى مشاهده المسحورة ، يملك موهبتـــه في ان يـــرى نفسه من الخارج ، وكأنه ينظر شخصا آخر . لكنه في ذات الحين ممثل على خشبته ، فكما يقول ايف بونغواي :

ـ « ... لقد ظهر رامبو في كل نتاجه مهلوســـا بفكرة الممثل المضطرب في داخله : ذاك الذي يمثل دون أن يتمكن من أن يعيش بالفعل مهزلة الحقيقة ... »

وبفضل ازدواجية اناه : ممثل ـ متفرج ، يشاهد رامبو نفسه ، كمراقب غريب ، وهي تؤدي أدوارا متنوعة في تمثيلية الحياة : الطفل ـ الشحـــاذ ـ طريد العدالـــة ـ المتشرد ـ الغجري الجوال ـ الزنجي ـ الحاج الورع ـ القديس ـ العالم ـ الساحر ـ المشعوذ .

فالشاعر في مسرحية القصيدة يضطلع بوظيفة المؤلف والمخرج في آن معا ، والكلمة وحدها تنوب عن الديكور والخشبة والاشخاص والعقدة والمسافة بين الجمهور والستارة ، وكل هذه العناصر التي تتضافر كلها في المسرح الحقيقي على رفع الواقع الى مستوى المثال ٠

ـ « ٠٠٠ ان ترى في الفجر « شعبا من الحمام » هو ان تجعل الصباح ينفجر كعلبة مساحيق ٠٠٠ »

هذا ما يقوله سارتر ، الذي يتكلم بصدد الصور المجازية في « المركب السكران » عن :

ـ « ٠٠٠ الانفجار المظفر للمكان ٠٠٠ » ـ

اما فرلين فلقد صرح امام اندريه جيد بخصوص قصيدة رامبو « احرف اللين » :

ـ « انا ، الذي عرفت رامبو ، أعلم أنه لم يكن يهتم بقليل او كثير اذا كان حرف الالف أحمر او أخضر ٠ كان يراه هكذا ٠ لكن هذا كل ما في الامر ٠٠٠ »

ان رامبو في هذه القصيدة انما يمارس موهبة الرؤيا (التي يتطلبها في الشاعر) على حروف الهجاء ٠ فهو يتصور أول الامر للحرف لونا ينطلق منه الى تداعيات ذهنية مجانية وشخصية ٠ هذا الحرف يتراءى له أسود ، والسواد يوحي له بذباب يحوم حول قمامات منفرة او بخلجان من الظل ٠ وهذا الحرف الثاني يرمز الى البياض لون الطهارة ، ونصاعة

البخار ، وشوادر الخيام ، وكتل هفهافة من الجليد مسنونة كالحراب ، وأردية يتسربل بها ملوك فخورون ، وأكاليل من الزهر ترتعش في الريح • وهذا الحرف الثالث يحيله الى اللون الاحمر ، والاحمرار يبعث في ذهنه صور دمل ارجوانية ، دم مبصوق ، شفاه جميلة تبتسم ، فورة الغضب أو عربدة السكر • وهذا الحرف الرابع يظهر له باللون الاخضر ، والاخضرار يعني بالنسبة له : دورة الطبيعة ، تموجات البحار ، سلام السهول حيث ترعى الحيوانات الآمنة، الامل والاطمئنان والرضى عن النفس الذي يشعر به الانسان المجتهد الذي كد وثابر وتعب ووصل الى النتيجة التي كان يصبو اليها • وهذا الحرف الخامس يبرز لعينه متشحا بالزرقة اللون الذي يبعث في باله فكرة اللانهاية ، وبوق الدينونة الاخير الذي يرجع أصداءه الغريبة في أربع جهات المعمورة ، والصمت الابدي الذي يخترق العوالم ويزين فوق رؤوس الملائكة ، وعيني الله الذي هو بداية ونهاية كل شيء • هناك اذن بالنسبة لكل عاطفة لون يلائمها ويعبر عنها • فالزهري هو حنو الحب والحنان وافاضة الاسرار الحميمة في اذن حبيبة ، والابيض هو رديف الجمال والعفة والطهارة ، والاحمر يوحي بالشهوة ، والاسود يرمز الى الموت •

في مطلع رسالته الى جورج ازامبار التي يعرض فيها نظريته حول الرؤيا الشعرية ، يهزأ رامبو من استاذه الذي رفض أن يعمل مدرسا خاصا عند عائلة روسية غنية ، وآثر البقاء في مهنة التعليم في فرنسا ، وبذلك تخلى عن حياة

المغامرة والسفر المليئة بالشاعرية في نظر رامبو ، ليحافظ على مركز ثابت ومستقر في بلده · ان الفرد مدين بمعيشته للمجتمع ، الذي عليه بدوره ان يؤدي لاعضائه خدمة نافعة كي يستحق المساعدات التي يتلقاها منهم · ان الايدي المنتجة تقدم له الطعام والكساء والمأوى وكل ما من شأنه ان يعينه في المحافظة على بقائه · وهو ، من جهته ، ملزم ببذل مجهود ما ، بالاسهام بقسط في ورشة العمل المشتركة ، التي تسير عجلة الحياة ، وتصون كيان المجتمع ، وتكفل له اسباب الاستمرار · بهذا المعنى فان استاذه ازامبار هو جزء من الهيئة التعليمية · انه يمارس مهنة نافعة معترفا بها من كافة الناس ، تضمن له حياة رغيدة مستقرة وتؤمن له رزقه بأشرف اسلوب · انه أحد أبناء المجتمع الطيبين يسلك الطريق القويم ، وينهج النسق المعيشي المكرس الصالح والمفيد في نظر الآخرين · لكن رامبو يخاطب استاذه هذا ، في رسالته الآنفة الذكر ، بشيء من التحدي والاستفزاز ، والنية الواضحة في اثارة حفيظته ، وافتعال فضيحة ، مدعيا أنه هو الآخر يقوم بطريقة ما بوظيفة في هذا المجتمع ، ويضطلع بمهمة معينة : افساد اخلاق تلاميذ المدرسة بما يرويه عليهم من قصص بذيئة وخليعة ، شريرة وغبية ، يختلقها خصيصا لاجلهم ، محاولا ان يكون قدوة سيئة لهم باقواله وافعاله · وانهم ليدفعون له أجره مقابل ذلك ، وجزاء التسلية التي تقدمها لهم بدعاباته الصاخبة الاباحية ، وتصريحاته المتهورة النزقة ، وتصرفاته الهوجاء ، بان يسددوا عنه فاتورة الحساب

في المقاهي ، ويتحملوا عنه عبء كؤوس الجعة والخمرة التي يحتسيها بشراهة ٠

ان هذه الفقرة من رسالة رامبو الى ازامبار تتوافق مع تلك الفترة من عمر الشاعر التي كان يرى فيها متسكعا في شوارع شارلفيل ، وقد استطال شعره (ألم يسمع في باريس أن ما يميز الشعراء البارناسيين ليس موهبتهم بل طول شعرهم) ، واتسخت ثيابه ، ومضى يرمي عبارات التهكم والسخرية امام المقاهي والكنائس ، ويسرق الشراب ويمتهن كرامة الكهنة ، ويكتب كلمات « الموت لله » أو ما هو اسوأ منها على مقاعد الحديقة العامة ٠ حتى لقد كان صبيان الازقة يشيرون نحوه باصابعهم عندما يرونه يمر بملابسه الفوضوية ، وتسريحته المهملة ، او يراشقونه بالحصى ٠ ولقد تصدق عليه ، مرة ، احد الكتبة ، امعانا في اهانته ، بقطعة معدنية ، لكي يذهب ويقص بها شعره ٠ فما كان من رامبو سوى أن قبل العطية عن طيب خاطر ، معلنا للمحسن الساخط بانه سيشتري بهذه القروش بعض التبغ ٠

ان هذا المقطع من خطاب رامبو الى استاذه يعاصر تلك المرحلة من مراهقة الشاعر ، التي يصفه فيها ارنست دلاهاي بانه كان يحاول تحدي المجتمع بحركاته وتصرفاته ، بارائه وفوضوية مظهره الخارجي ، وغليونه الذي لم يكن ليفارق شفتيه ، بانه كان يرفض أن يشتغل وان يبحث عن مهنة نافعة يهتم بها ، وبأنه كان يقضي الساعات الطويلة متبطلا في المقاهي ٠ ان دلاهاي يسجل ذكرياته عن تلك الحقبة على الوجه التالي :

ــ « ··· كنا نذهب لرؤية المتأنقين في « مقهى النزهة » وكان يصدف لنا ان نقابل هناك بعض الرفاق القــدامى من اولئك الذين كانوا يصرخون « هوه ، هوه » · عندما كــان رامبو يخرج من المدرسة · الآن وقد تعقلوا كان البعض منهم يقترب : « رامبو ؟ يا للعجب ماذا تعمل في هذه الايام !؟···» هو ، لطيفا ، كان يدعوهم الى الجلوس قربنا ، ثم كان ، كي يرضي فضولهم ، يتلذذ بان ينســب الى نفسه أوحش المهن حقارة · كما انه كان ينسب الى نفسه أيضــا عادات ، كان ما يصفها به من اسهاب وضراوة قمينا بان يجعل كل نيران السماء تتساقط على زجاج المقهــى · كــان هؤلاء السادة يتبادلون نظرات مرتبكة ومدهوشة في ذات الوقت لانهم فهموا اكثر وأقل مما ينبغي · كانوا ، وقد أرعبهم الاستفزاز المريع، يطلقون ضحكات ماعز صغيرة ، يبحثون عن هيئة يتخذونها فلا يجدون شيئا آخر سوى أن يربتوا على ذقونهم بعصيهـم ذات المسكات العاجية · وكانوا ينتهون بالانصـراف بوجوه ودية ومترفعة · كان رامبو وهو يراهم يذهبون ، يضحــك ، متسليا قليلا بنفورهم ، وخاصة لرؤيته ايــاي وقد انزعجت لدعاباته المتهورة الى هذا الحد ··· »

ان رامبو في رسالته الى جورج ازامبار ينذر استاذه ، الذي كان يغذي بعض الطموحات الشعرية في صدره ، بانــه لن يستطيع أن يصبح شاعرا أصيلا ، منذ أن رضي بان يكون معلم مدرسة ، منخرطا هكذا في سلــك الروتين والبــلادة الروحية الذي يباركه المجتمع · وان القصائد التي سيكتبهـا

ستكون من النوع الذاتي المبتذل الذي لا ينفذ الى الاعماق لانه صادر عن الانا الفردي الزائف الذي يكتفي بوصف الجانب السطحي والمعروف من عواطفنا ، والذي ينتجه اولئك الشعراء التافهون الذين يكونون فكرة خاطئة عن الانا ويراكمون افرازات افكارهم العمياء متوهمين انهم اباؤها وخالقوها واصحابها الشرعيون ، مدعين ملكيتها المطلقة ٠ نعم ان رامبو يتنبأ بالفشل الذريع لاستاذه في مجال الفكر ، ويتوقع له العجز عن تنفيذ مشاريعه الادبية والاقتصار على صياغة بعض قصائد عديمة القيمة مثيرة للقرف ٠ وهكذا ينتهي به المطاف انسانا خامل الذكر عاش حياة عادية ، لم يغامر ، لم يبذل الجهود والتضحيات الكافية ، ولم يتحمل العذابات الحقيقية التي تتيح وحدها للفنان انماء مواهبه وتحقيق ذاته باصالة ٠

اما هو رامبو فانه يرفض الدعة والبلادة وانماط العيش التقليدية التي تقتل شاعريته ، وتمنعه من تحقيق رسالته ، وابداع ذلك الشعر الموضوعي الذي ينادي به ، والذي يصدر عن الانا الاصيل العميق ، متجاوزا العواطف الفردية السطحية ليبلغ الشمولية والمطلق ٠ انه يبغي نذر نفسه كلية للشعر لانه يصر على ملامسة الحدود القصوى ، رافضا كل التنازلات ٠ انه يريد كل شيء او لا شيء ٠ وهو اذ يقرر بذل حياته من أجل الشعر يعرف ان هذه الغاية الصعبة المنال تقتضي منه التضحية بكل سعادة وأمان واستقرار ٠

اننا نستشف من لهجة رامبو في رسالته الى استاذه انه

يرد على نصائح هذا الاخير ، الذي كان يناشده دائما ودون طائل ان ينضوي تحت لواء مهنة ما توفــــر له مصروفــه اليومي • بينما كان يعترض رامبو دائما على ارشادات ازامبار بحجة أنه قد وطد عزمه على ان يكون شاعرا ولا شيء آخر• كان استاذه يتمنى عليه أن يتقدم لفحوص البكالوريــا التي يستطيع النجاح فيها بسهولة تامة نظرا لذكائه المبكر • وهذه الشهادة تخوله الحصول على مركز صغير •نعم الوظيفة قيد بغيض • لكنها عبودية يظل المرء قــادرا على التحــرر من ربقتها بيسر عندما يناله ما هو أفضل منها • اما اذا عانـد رامبو وأحجم عن التقدم الى الامتحانات الرسمية فلم لا يسعى الى العثور على مهنة متواضعة مؤقتة : صبي سمان ، زبال ، الخ ••• وان ينصرف الى كتابة الشعر في ساعات فراغه ، تلك الفترات التي يقضيها الآخرون في المقاهي وأماكن اللهو ، واضاعة الوقت • لكن رامبو كان دائما يرفض الرضوخ للامر الواقع وتغليب الحس العملي فيه كي ينصاع لمزاجه الشاعري المتهور • ولم يكن ليعترف في الحين المناسب بان حرفة صغيرة وحقيرة يمكن ان تصبح كبيرة ونبيلة عندما تنجح في ان تؤمن للشاعر بعض الفراغ ولقمة الخبز الضرورية للمحافظة علـى بقائه وما هو اكثر من ذلك الاستقلال الذاتي الكامل • انـه يفرض شروطه على الحياة والقدر متمردا علـــى قوانينهمـا ومتطلباتهما العملية •

وبما ان رامبو يرفض القيام بأي عمل ، والانهماك في أية مشاغل تصرفه عن تحقيق رسالته الجوهرية في الحياة الا

وهي الشعر ، فانه يستبعد فكرة سفره الى باريس للمشاركة في أحداث الكومونة والانضمـــام الـــى الثوار والمناضليـن الفقراء ، رغم أنه يتعاطف معهم كثيرا · انه مضطر الى كبح جماح نوبات الغضب الجنونية التي تنتابه وهو يسمع أخبار مئات العمال والكادحين الذين يسقطون ضحيـــة الظلـــم والاستبداد · انه الآن في ذروة الهوس والحماس لعملـــه الشعري ، في سورة الوجد والاستغراق في نشاطه الفكري · وليس بمقدوره الانصراف الى أي جهد آخر غيـــر الابداع الفني · يتساءل ازامبار تعليقا على رسالة رامبو الموجهة اليه بتاريخ ١٣ ايار ١٨٧١ :

ـ « ··· يوجد عمل وعمل : « اليد ذات الريشة » هل تساوي « اليد ذات المحراث » ··· فيما بعد ، الاخيرة هي التي سيكتب لها الغلبة وحدها والثانيـة ستنهـــار : الوداع للشعر · وهذا مؤسف : لو استدعيت في الوقت المناسب لكان باستطاعة الواحدة أن تساعد الاخرى وتجعلها تعيش ··· »

ان ازمبار مخطىء تماما في رأيه هـــذا · ان الاربع سنوات التي أمضاها رامبو متفرغا للشعر قد عاشها بمـلء وزخم ، وأتيح له خلالها أن يختبر تجارب روحية عميقة أغنت نتاجه ، وهي أفضل مئة مرة من عمر طويل معـــاش بفتور ، وليس مكرسا للشعر الا بصورة جزئية متقطعة · ان مجهودا عنيفا مركزا مكثفا خلال أربعة أعوام يعطي نتائج أفضل من تلك التي يسفر عنها دأب موزع على مدى أربعين سنة باعتدال وبرود وضحالة · ان تجربة الشعر هي التطرف والتوهج ،

هي مغامرة رهيبة تتطلب من المرء ان يضحي من أجلها بكل شيء ، من يقرر أن يخوضها الى آخر مداها يستحيل عليه الاهتمام بأمر آخر ، لانها غيورة تستأثر به وتستنفد كل طاقاته ، ولا تترك له ذرة من الوقت يخصصها لما عداها ٠ كما أن موريس بلانشو يغلط هو أيضا عندما يفترض أن رامبو كان اصبح رائيا حقا لو أنه نهج ، على سبيل المثال ، مسلكا عاديا شبيها بالحياة المستقرة التي عاشها شاعر من معاصريه من طراز فرنسوا كوبيه ، بدل ان يفضي به طبعه المغامر الى مصير تاجر في هرار ٠

ان الخلاقين لا يفهمون انفسهم وهذا دليل على أن الاثر الفني ليس من نتاج صاحبه ، الذي لا بد له في اخراجه الى النور ، ولا حيلة له في الامر ، الذي لا يستطيع ان يحكم على عطائه أو أن يتحكم فيه ٠ لان الاغنية ليست مفهومة من المغني ، وليست ملكه الخاص :

ـ « ٠٠٠ لان أنا هو شخص آخر ٠ اذا النحاس استيقظ بوقا فان هذا ليس خطأه ٠ هذا أكيد بالنسبة لي : اني أشهد تفتح فكرتي : أراقبها ، أصغي اليها : اني ارسل ضربة وتر : المعزوفة تتحرك في الاعماق ، او تأتي بقفزة واحدة الى خشبة المسرح ٠٠٠ »

فكما أن الكمان ، المصنوع من مادة الخشب الحقيرة اياها التي تدخل في تركيب الطاولة أو الكرسي أو السرير ، يستطيع أن يبعث أنغاما ساحرة ، كذلك الفنان المجبول من نفس الطينة التي يتكون منها كافة البشر بمقدوره ان يتمخض عن

أثر فني · لقد أعطى له امتياز اصدار انغام علوية · لقد حلت النعمة الالهية عليه · لقد استوطنته الشعلة المقـــدسة · وهو لا دخل لـه في الموضوع اذا كانت طاقة فوق المستوى البشري قد اختارت صدره هيكلا لها · ان هذا الكائن الرباني الساكن فيه ، والذي يبدع الآية الجمالية هو شخص آخر يختلف عنه، متميز عن المخلوق العادي الموجود فيه أيضا ، والذي يأكــل ويشرب ويصرف شؤونه اليومية مثل بقية الناس · بهذا المعنى يعتقد سارتر أن :

ـ « · · · وضع التفكير قد عبرت عنه بدقة عبارة رامبو المشهورة (في رسالة الرائي) « انا هو شخص آخر » · ان مدلول النص يبرهن انه اراد ان يقول بكل بساطة ان تلقائية الضمائر لا يمكن ان تنبثق عن الانا ، انها تذهب نحو الانا ، تنضم اليه ، تجعله ملموحا تحت كثافته الشفافة ، لكنها تقدم نفسها قبل كل شيء كتلقائية مستقلة ولا شخصية · · · »

هناك الانا السماوي الروحاني المطلق الواحد المنزه عن أية أنانية او فردية الملهم ، الـــذي يبـــدع الفن الاصيـــل وما يسميه رامبو « الشعر الموضوعي » · وهناك الانا الارضي الجسدي المحدود المتكثر ، الذي ينحصر همه في المحافظة على بقائه وتأمين حاجاته العملية النفعية ، العاجز عن العطـاء الفني ، والذي ينتج ما يسميه رامبو « الشعر الذاتي » وهذان الانوان يتصارعان في دخيلة الفنان ·

في لحظة الابدية يولد فينا أنا هو شخص آخر ينبثـــق فجأة من أعماقنا الدفينة ، ويبرز الى حيز النور · ان قشرة

الانا الذاتي الجزئي الزمني تنفلق بغتة ليحل محلهـا جوهر الانا الموضوعي الشامل الابدي • وبذلك تتحرر الاشياء من حولنا من ثقالتها المادية ، تسقط عنها البراقع السطحية التي تضفيها عليها آلية العادة وبلادة المنطق ، وتتفتت متبعثرة في أربعة آفاق سماء جديدة كلية • وهكذا يتحقق بصورة عفوية مدهشة ومباشرة هذا التحرر للحواس الذي هو شرط أساسي في كل ابداع فني • قال رامبو لصديقه أرنست دلاهاي :

ـ « ••• علينا فقط أن نفتح حواسنا للانفعال ، ثم أن نجمد في كلمات ما تلقته هذه الحواس ، ويجب ان يكون همنا الوحيد هو أن نصغي ، أن نرى وأن نسجل ، وهـــذا دون اختيار ، دون تدخل من قبل الذكاء • الشاعر يجب أن يسمع ويدون أي شيء ••• »

اننا اذن لا نحتاج الى بذل أي مجهود ارادي كيما نعيش لحظة الابدية ، التي تهمي علينا من تلقاء نفسها ، وفي الوقت الذي لم نكن لننتظرها فيه ، فتتيح لنا أن نذوق لبرهة وجيزة طعم الحياة الحقيقية ، وأن نولد من جديد • لكنهـــا ومضة خاطفة سرعان ما تنقضي :

ـ « ••• ان الذكاء الكوني قد رمى دائمـــا أفكـــاره بصورة طبيعية : كان البشر يلتقطون جزءا من ثمار الدمـاغ هذه : كانوا يتصرفون بوحي منها ، كانوا يؤلفون منها كتبا : هكذا كانت تمضي المسيرة ، بما أن الانسان لم يكن يصقــل نفسه ، لم يكن قد استيقظ بعد ، أو لم يعد بعد مستغرقا في

ملء الحلم الكبير • موظفون ، كتاب ، مؤلف ، خلاق ، شاعر هذا الرجل لم يوجد قط ! • • • »

اذن من الخطأ ان أدعي أني افكر والاحرى بي أن أقول: « ان الذكاء الكوني » يفكر من خلالي • ان الشاعر الرائي لا ينتج اراءه جل ما يفعله انه يلتقط الخواطر التي تنثرها حوله هذه القدرة الخفية اللامرئية ، التي هو الوسيط بينها وبين البشر • ان مهمته تتلخص في أن يكشف عن وحدة الكون بفضل المحبة • انه نبي يملك القدرة على قراءة أسرار الماضي وعلى التنبؤ بالمستقبل ، انه يتوصل الى معرفة الفكرة المطلقة الصافية ، التي هي في أساس تكوين العالم وانسجام الاشياء :

ـ « • • • ان أول دراسة للانسان الذي يريد أن يكون شاعرا هي معرفة ذاته ، كاملة ، انه يبحث عن روحه ، يرصدها ، يمتحنها ، يتعلمها • ما ان يعرفها حتى يتوجب عليه أن يربيها : هذا يبدو سهلا : ثمة نمو طبيعي يتم في كل دماغ، لكم من انانيين يعلنون أنفسهم مؤلفين ، يوجد كثيرون غيرهم ينسبون الى ذاتهم الفضل في تقدمهم الفكري! ـ يجب أن نجعل روحنا مريعة أسوة بأكلة لحوم البشر ، ماذا! تصوروا رجلا يزرع ويربي دمامل على وجهه • • • »

ان الشاعر يستقي مادة قصائده من اختباراته الشخصية • كلما عاش تجارب روحية عميقة وفذة كلما اغتنى شعره • ان السكر والمخدرات والتهتك الجنسي قد تكون

وسيلة لان تهز كياننا ، وتتيح لنا أن نمر بحالات نفسية عنيفة وفريدة من نوعها تخرجنا من المألوف ، وتقودنا نحو عـالم خارق للعادة يخصب فيه وحده الجمال · يجـب أن يفجـر الشاعر كل الطاقات والنزعات والانفعالات الثاوية في اعماقه، وهذا ما لا يتم له اذا ظل غارقا في رتابة حياة متزنة هادئـة ورصينة · يجب أن يجوب كل مناطق نفسه الدفينة ، ويرون كل امكاناته الداخلية ، ويتغلغل الى كل اصقاعه الباطنة ، اذا أراد حقا أن يبلغ ذروة الابداع · وهذا ما لا يتوفر له ما لم يخضع نفسه لكل الهزات العنيفة ، ما لم يتجرع كل الكحول القوية ، ما لم يبتلع كل السموم القاتلة · يجب ان يعزف كل ألحان نفسه اذا أراد أن يكون فنانا كبيرا بحق ، وهناك بعض أنغام غامضة ومستترة وبعيدة الغور ، تحتاج الى أوتار سرية وخطرة كي ترجع أصداءها وتفضي بمكنونهـا وتعطي كل تموجاتها ·ان هناك أبوابا في نفسنا مفاتيحها في يد السكر والعربدة، التحشيش والانحراف، التشرد والفوضى، الخروج على التقاليد والتمرد على القوانيـن والاعراف · بما أن الشاعر مضطر ان اراد بلوغ الكمال ، ان يشرع كل مصاريع ذاته ، فهو مرغم بالتالي الى فض كل اقفاله الداخلية مع ما يتضمنه ذلك من تعرض للمجازفات الرعناء والمهالك الفظيعة ·

ـ « ··· اني أفسد خلقي الى اقصى المستطاع · لماذا ؟ أريد أن أصبح شاعرا ، وأنا أعمل على أن أجعل من نفسـي رائيا ··· الشاعر يجعل من نفسه رائيـا بواسطة تشويش طويل ، هائل ومنهجي لكل الحواس · كل أشكـال الحب ،

الشقاء ، الجنون ، انه يبحـــث بنفســه عن كل السموم ويستنفدها في داخله لكي لا يحتفظ منهـا سوى بالجوهر ٠ عذاب لا يوصف حيث يحتـاج الى كل الايمان ، كل القوة الفائقة للطبيعة الانسانية ، حيث يصبح بين الجميع المريض الكبير ، المجرم الكبير ، الملعون الكبير ـ والعارف الاعظم! ـ اذ انه يصل الى المجهول ! بما انه قد ربى روحه الفنية أصلا، أكثر من أي شخص آخر ! انه يصل الى المجهول ، وعندما طائش اللب ، ينتهي بأن يفقد الادراك لرؤاه فانــه يكون قد راها ! ليمت في وثبته عبر الاشياء التي لم يسمع بها والتـي لا تسمى : سوف يأتي فعلة آخرون فظيعون ، سوف يبدأون من الآفاق التي هلك فيها الآخر !٠٠٠ »

عندما ندع حواسنا تعيش بصورة طبيعية فانها لاتعطينا سوى مظهر الاشياء الخارجي ، وتتركنـا نطفو على سطـح العالم ، في مجال العادي والمألوف ، وفي مناخ معاد للشعر ولكل الهام فني ٠ لكن عندما نخضع حواسنا لمنهاج الاختلال فاننا نجبرها على مشاهدة العالم بصورة جديدة فـذة وعلى اختراق قشرة الواقع والنفاذ الى الرؤى الخفية الكامنة وراء المظاهر ٠ على الشاعر اذن أن يسعى جاهدا وبملء ارادته الى ممارسة كل أنواع الحـب الطبيعي والشاذ ، المعترف به والمحظور ، ومعاناة جميع الآلام ، الى اختبار كافة أصنـاف الجنون ، واقتراف مختلف الاعمال النزقة المتهورة والتصرفات الطائشة ، الى القيام بالمغامرات الهوجاء ، وامتحـان كل الشرور لكي لا يحتفظ منها سوى بتلك المادة النافعـة له في

عمله الشعري ، تلك العصارة التي تغنـــي تجربته الانسانية وترفد طاقته الفنية بروافد جديدة ٠

ان هذه الحياة الشاذة الغريبـــة المزروعة بالاشواك والالغام والتي هي قدر كل من صمم ان يصبح شاعرا أصيلا هي صليب ودرب جلجلة يحتاج من ينوي أن يقطعها حتـــى نهايتها الى ايمان جنوني برسالته وعزيمة صادقـــة علـى التضحية بالغالي والرخيص ، وطول انـــاة وقـــدرة علـى الاحتمال ، وقوة معنوية عالية تفوق طاقة البشر ٠ انه مضطر من أجل تحقيق هدفه الى انتهاج مسلك ناشز أعوج لا يرضى عنه الناس ، الذين يناصبونه العداء لهذا السبب ، فيصبـــح أشبه بطريدي العدالـــة ، والمدموغين بوصمـــات العار ، والمرفوضين اجتماعيا ، ان اسلوب العيش الصعب والعنيف هذا يفتك بصحته الجسدية والنفسية ، ويدمره ماديا ومعنويا، ويعزله عن بقية الاشخاص العاديين ٠ فكأنه أبرص أو قاطع طريق ، سفاح خطير او شقي حلت عليه لعنة القدر ٠ لكن كل هذه الآلام والتضحيات هي الثمن الذي لا بد من دفعه للوصول الى المعرفة الاشراقية ، واختراق حجب المجهول ، وارهـــاف الحواس بنوع ان تتمكن من ادراك الاشياء بصورة حـــادة وعميقة ، والنفاذ الى جوهرها ، والانفتاح التام على الكون٠ انها أشبه بحالة النعمة والتجلي الروحي التي يتوق اليهـــا المتصوف والقديس ، والتي تقتضيـــه الخروج من ذاتـــه ، والتعالي على أنانيته الفردية ، ومعانقة الحقيقة في اندفاعه من الوجد والمحبة الشاملة تكتشف عالما آخر بهيا ، غير ذاك الذي

نعيش فيه كان محتجبا أو محبوسا أو مكبوتا وراء المظاهر اليومية المألوفة . ان الذهاب الى ما وراء الواقع لا تحتاج احيانا الى اكثر من اهتزاز بسيط على شاشة الواقع .

ان روح الشاعر غنية أصلا وفطرة . لكن هذا لا يكفي، ويجب عليه أن يزيدها ثراء بفضل منهج اخلال الحواس ، الذي هو وسيلة للتقرب من الله ، واستشراف الانسجام الكوني . ان الوصول الى المجهول يتطلب قوة خارقة ومؤهلات فكرية وكفاءات فنية عالية . انه مغامرة رهيبة قد يفقد معها الشاعر الصواب والقدرة على التعبير عما شاهده . لكن هذا ليس له أي تأثير . المهم أنه قد استطلع هذه الرؤى المدهشة ، وحتى لو هلك بعد ذلك فلسوف يأتي رواد آخرون محله يلتقطون الشعلة المقدسة التي سقطت من يده ، ويكملون الرحلة الرائعة والخطرة التي بدأها .

في قصة « الفارنفارلو » لبودلير يقول صمويل كرامر ، الذي هو صورة عن الشاعر ذاته لسيدة تنتقد ما تتسم به قصائده من طابع مرضي جنائزي :

ـ « ... سيدتي ، لوميني ، أو بالاحرى لومينا ، لان لي أشقاء كثيرين على شاكلتي .. لقد اجتهدنا لدرجة في تزييف قلبنا ، لقد استعملنا لدرجة المجهر لدراسة الزوائد البشعة والدمامل المشينة التي تغمره ، والتي نكبرها بتلذذ ، حتى لاصبح من المستحيل علينا أن نتكلم لغة بقية الناس . انهم يعيشون ليعيشوا ، ونحن ، للاسف ! ... نعيش لنعرف كل السر يكمن هنا . ان العمر لا يغير سوى الصوت ، ولا يتلف

سوى الشعر والاسنان ، ونحن عكرنا لهجة الطبيعة ، واقتلعنا واحدا واحدا كل أنواع الحياء العذري التي كانـــت تغطي داخليتنا كرجال شرفاء · لقد حللنا نفسيتنا كمجانين يزيدون من جنونهم بسعيهم الى فهمه · الاعوام لا تشل سوى الاعضاء، ونحن شوهنا الاهواء ··· »

قبل كتابة رسالة الرائي بستة أشهر كان رامبو يفاتـــح صديقه ارنست دلاهاي بموضوع النظرية الشعرية التي كان يرهص بها ، وكان يحادثه عن :

ــ « ··· احساسات جديدة ، عواطف أقوى علينا نقلها بواسطة الكلمة · اني أشاهد اني أشعر لكني لا أعبر عن ذلك كما أريد · فلنشاهد فلنشعر أكثر · وعندمـــا يحين أوان الالمام بلغة أغنى يكون الشباب قد ولى والعواطف المرهفة قد رقدت ·· يجب ايقاظها ! ··· مهيجـــات ! ··· الروائح ، السموم التي تتنشقها العرافة ··· »

انه يريد بأي ثمن ان يوقظ ايقاع الحياة الضافي فيه · أن يعيش بزخم وحمى وحماس · انه يطلـــب الزمن العنيف الخطر المليء بالاثارة · تيار المغامـــرة والجنس والمخـــدر والسكر ، بدل مستنقع الضجر والرتابة والبلادة ، حيث تأسن الايام بايقاعها البطيء الشبيه بالموت · ان كل الاساليب التي لجأ اليها رامبو لتجاوز وضعه البشري العادي ، والارتقاء الى مرتبة الرؤيا هي وسائل جسديـــة : الصوم ، الاسراف في اللذائذ والشهوات ، التعب والارهاق النـــاجم عن المسيرات

الطويلة ، التهيجات العنيفة الناتجة عن الخمر او الافيون ·

نعم لقد عرف رامبو نشوة السكر التي تغسل قلبه من كل الاحزان وتملؤه بالحماس ، وتمنحه ان يختبر أنواعـــا من الغبطة والاحاسيس الخارقة المفيدة جدا له في تجربته كشاعر· لقد ذاق الخمرة الروحية والخمرة الجسدية المديرة للرأس ، التي تعتقه من كل جاذبية أرضية ، وتطلقه كمركب سكـــران يترنح فوق بحر الوحي وقد أضاع دفته ومرساته · كما أن انفعالات الوجد والحب العنيفة تشحـــذ ملكـــات الشاعـــر الابداعية ربما اكثر من دوخات أي كحول اخرى · بينما صحوة الوعي وبرودة العقل ، منوالية الايام وجفاف المنطق تخنق فيه كل نبض شعري · ان الالهام لا يستجيب لنـــا اذا حاولنا مطاردته جاهدين ، وملاحقته قسرا والقبض عليـــه بالقوة · لكنه يهبط علينا بصورة لا واعيـــــة ولا ارادية حين لم نكن نتوقعه ، ودون ان نبذل أي عناء لارغامه على الاستسلام لنا · انه ينفر ويهرب ويحرن كلما جربنا ابتعاثه بالغصب · ويسلس قياده لنا بكل لين ورفق خلال بعض الاشراقـــــات الروحيـــة المباركة ، التي يخشع تحت اقدامها صاغرا طائعا · في مثـــل هذه الالتماعات الفريدة من نوعها تنفلـــــق قشرة العالـــــم الخارجية ، وتظهر لمركب رامبـــو السكران الرؤى المدهشـــة المحجوبة عن أعين عامة الناس ، والعجائب والغرائب التـــي لا تخطر لهم ببال ، ويبيـــح له الكون عن كنـــوزه الدفينة ، ومحاسنه المستترة · الغشاء يتمزق ويطل عليه سحر الوجود،

ويشرق عليه نور فائق للطبيعة ، وينتقل الى ما وراء الواقع ويصبح رائيا • حينئذ تدير الحياة نحوه وجهها الاسطوري ، وتتيح له ان يسبر أغوارها ، وينفذ الى أعمق اسرارها • وفي مجال الخوارق والمعجزات هذا تتكشف له الازهار عن عيون لبؤات ذات جلد بشري ، وقوس القزح المنتشر فوق البحر عن أرسنة تلجم قطعانا خضراء • وتتبدى له اعماق المستنقعات عن شبكة يتخبط فيها تنين هائل ، والابعاد عن شلالات تنزل الى الاغوار • انه يشاهد تحت الصفحة الهادئة انهيارات مائية ، وفي الرواسب العالقة بالخلجان السمراء ثعابين عملاقة يفترسها البق تقع عن الاشجار المعقدة باعثة روائح سوداء • واذ كانت جمالات الكون تهيمن عليه من كل جهة فانه كان يرغب في دعوة الآخرين ممن لم تمت في قلوبهم بعد روح الحماسة الطفولية ، ولم تنطفىء في صدورهم جذوة الاندفاع الشعري ، الى مشاركته الاعجاب بهذه المفاتن : الثلوج ، الشموس الفضية ، الامواج المتكسرة ، السماوات المضرجة بالدم • انه يود أن يعرض على الاخرين هذه الاسماك النادرة، والجواهر المكنونة ، التي يستخرجها خياله الخصب من بحر الشعر ، هذه الملقى السعيدة ، والطرف المثيرة التي يعود بها من عالم المجهول • لكنه مستغرق في نشوته ذاهل عن كل ما عداها •

لا شك ان رامبو قد مر بتجربة المخدر التي عبر عنها في الكثير من قصائد « الاشراقات » وفي بعض مقاطع من « فصل في الجحيم » ، حيث يعترف بانه قد ابتلع جرعة من الافيون

بتحريض نفر من أصدقائه : أحشاؤه تلتهب · قوة المخـــدر تلوي أعضاؤه ، تصعقه ، تشوهه · انه يموت من العطش · انه يختنق · انه عاجز عن الصراخ · انه يحتـــرق بنيـــران العذاب الابدي تحت حراسة الشيطان · لقد حاول الوصول الى الخير والسعادة والخلاص بواسطة المخدر وربما الـــى الالهام · لكن هل يستطيع تصوير السراب الذي يلوح أمـــام ناظريه تحت تأثير الافيون ؟ ان أجواء الجحيم تستعصي على الوصف : ملايين من المخلوقات الساحرة ترقص على ايقـــاع معزوفة روحية جذابة توحي بالقوة والسلام ، بالمطامح النبيلة والاماني العذبة ، بالاحلام الجنسية والخيـــالات الشهوانيـــة المغرية التي تتوالى في اغواء صمت خارق لا أرضي يخيـــل للمدمن أثناءه انه قادر على اجتراح العجـــائب والمعجزات والاتيان باعمال الآلهة · لكن هذا الحلم الجميـــل سرعـــان ما تعقبه خيبة الامل والمرارة وطعم العلقم ، وهذه السعـــادة الاصطناعية لا تدوم طويلا ، ولا بد من دفع ثمنها غاليا في النهاية ·

وعندما كان رامبو يعود الى ايقاع الحياة العادي ، بعد أن يفيق من دوار المخدر الذي قد تكون ملذاته في المرة القادمة اقوى حدة وشيطانية ، فانه كان يتمنى ارتكاب اثم ما ليهوي الى هوة العدم بحسب الشريعة البشرية ، ولينجو من حالة التفاهة والانحطاط والموت الروحي التي بات يعاني منهـــا بعد خروجه من دوار اللذة · لقد أصبح تواقا الى أي حدث ، أية جريمة توقظ فيه الحس بالحيـــاة ، وراح يشعر بالخجل

والندم ، بالقذارة والحقارة ، ببطلان كل اعماله وسخافة كل غضباته · لقد كان مخطئا عندما استسلم لهذه النعمة الوهمية، وهذا الفردوس الاصطناعي ، لهـــذه الشعوذات والعطـور الكاذبة والالحان المزيفة المضللة · لقد انخدع تحــت مفعول الافيون · واعتبر للحظة خاطفة أنه يمتلك الحقيقة ، ويقـابل العدالة ، ويلقي على الامور حكما سليما وقاطعـــا ، ويبلغ درجات عالية من الكمال · يا للغرور الباطــــل والكبريـاء الكاذبة · ان جلدة رأسه تجف · انه في حالة يرثى لها · انه خائف · انه عطشان · انه يتحسر على طفولتـــه الضائعة :

ــ « ··· العشب ، المطر ، البحيرة فوق الاشجار ··· »

ضوء القمر ، وقبـــة الجرس ، وكل معالم البـــراءة والطهارة المفقودة ، كل الوقائع المحفوظة من عهد السعـادة الحقيقية الوحيد · ألا يوجد ثمة نفوس شريفة نقية هناك في دنيا الخير والعفة تفكر فيه وتشفق عليه ، تتفهم وضعه، وتبدي استعدادا للاستماع الى اعترافه ، والتعـــاطف مع مأساته ومساعدته لا ، انها أشباح لا تسمع · على كل حال لا أحد في العالم يفكر بالآخرين· كل انسان مسجون ضمن جدران انانيته الضيقة · وحذار أن يقترب منه شخص ثان اذ أن ثمة رائحة كريهة تنبعث منه ·

نعم لقد عرف بفضل المخدر هذيانات لا تعد ولا تحصى فقد أثناءها كل حس بالماضي والتاريخ والزمـــن ، ونسي كل المبادىء والشرائع والقوانيـــن ، ومرت ببالـــــه التماعات

واشراقات يحسده عليها اكبر الشعراء واصحاب الرؤى . لكنه لن يصف ما شاهده وسيضن بهذه الكنوز والجواهر الفريدة التي همت عليه . جرعة واحدة من الافيون وتتوقف ساعة الحياة ويخرج المدمن من العالم . اللاهوت على حق عندما يصور الجحيم على أنه قائم تحت الارض ، فالغرائز الدفينة في المرء والشهوات البهيمية ، والناحية القذرة فيه هي التي تقوده فعلا الى الشقاء : الرذيلة ، السكر ، الحشيش، والرغبات الدنيئة المنحطة ، هي سلالم ينحدر عليها نحو الدرك الاسفل .

ان المخدر هو انحلال من فرط اللذة ، وكابوس ، ونوم في عش من اللهب، يوهم متعاطيه أنه قادر على اكتشاف كل الاسرار الدينية والطبيعية على التنبؤ بالولادة والموت ، بالمستقبل والماضي ، وعلى الالمام باسرار الخليقة والعدم واستحضار الارواح . انه يلقي في روعه أنه حاصل على جميع المواهب : رؤية ما لا يرى ، الانفصال عن الواقع ، قراءة الغيب ، الاستماع الى أغاني الزنوج ، مشاهدة رقص الحوريات ، القدرة على الطيران والاختفاء ، والذهاب للبحث عن خاتم ثمين اسطوري ، العثور على الكنوز ، واكتشاف علاجات تشفي من كل الامراض . حتى لتأخذ رامبو ، تحت تأثير المخدر ، موجة من الحنان والحب نحو جميع البشر فيطلب منهم بعطف أن يضعوا ثقتهم به كي يساعدهم ، ان يؤمنوا به كي يتمكن من أن يقودهم الى الخلاص ، ويشفيهم ، ويعزيهم ، ويوزع عليهم قلبه المدهش العامر بكل هذه المشاعر

الجياشة ، المشفق على كل البؤســــاء والكادحين ، الذين يستغني عن أدعيتهم وصلواتهم ، ويكتفي بتعلقهم وحسن ظنهم به ، التي هي وحدها قمينة بان تمنحه السعادة القصوى • انه يدعو الجميع أن يأتوا اليه ، وحتى الاولاد الصغـــار ، كي ينفحهم هداياه ، ويغدق عليهم خيراته بسخاء •

اما في قصيدة « صبحية سكر » في « الاشراقات » فان رامبو يعلن ان لذة المخدر هي كنز ، هي عالم من الجمـــال المذهل مباح لنا وحدنا ، هي موسيقى عجيبة تهبنا الثبات والاستقرار الكياني ، هي نقطة ارتكاز نؤسس عليها وجودنا ونرسخه • انها تحدث ثورة مباركة في أعماقنا ، انقلابـا روحيا طالما تقنا اليه ، ولا يمكننا التعبير عنه ، وتخلـــق من جسدنا جهازا مدهشا نشعر اننا نستعمله لاول مرة • انهــا تعيدنا الى مملكة الطفولة الضائعة وتبقينــــا طوال مــــدة استمرارها عائشين بمرح وحماس ، بدهشة وانسحار الاولاد الصغار • ان سمها يبقى متغلغلا في شراييننا حتـى بعد ان ينتهي مفعولها ، حتى بعد ان تكف المعزوفـــة وتدير الفرقــة الموسيقية ظهرها وترحل تاركة ايانا لحالة اللا انسجام القديمة، ودوامة العذابات السابقة التي حررتنا منها • فنتذكر بوجـد الوعود الخارقة للطبيعة ، الفائقة لطاقة البشر التي اغدقتهـا علينا ، على جسدنا وعلى روحنا ، اللذين أعادت خلقهما من جديد • هذه الاغراءات الشيطانية بالغنى والقوة والمعرفــة ، بتحطيم لوحة الشرائع ، وتجاوز قيم الخير والشـــر ، وكل الانظمة والقوانين ، وشتى انواع الطغيان والقهر ، والكبـت والعسف ، لنعيش بحرية مطلقة ، ولنتصـــرف على هوانـا

ومزاجنا . اننا نحس بشـــيء من القرف أول ما نتنــاول الافيون . ولكننا ننتهي بالشعور بان عرســـا من الالـوان والروائح تسكر حواسنا . ان لذة المخدر سريعــة الزوال للاسف ، لاننا :

– « ... لا نستطيع ان نلتقط للتو هذه الابدية ... »

بهجة الطفولة ، نسيان العبودية والذل ، موجـــة من الاكتفاء والزهد بكل خيرات هذه الدنيا ، نوبة اشمئزاز من كل وجوه ومشاهد هذه الارض ، هذه هي الذكرى المقدسة التي تبقى من المخدر الذ ييبدأ بانفعال فج وينتهي بانطباع ملائكي هو مزيج من جليد ونار ، هبة باردة وهبة ساخنة . ان دوخة الافيون محمودة حتى لو لم ينتج عنها سوى هذا القنــاع من الفرح الذي تضعه على وجوهنا . انها منهــاج فعــال في تشويش كل الحواس . انها تحملنا على النظـــر باعجـاب وتقديس الى كل مرحلة من مراحل عمرنا وتمجيدها واحاطتها بهالة من البطولة والعظمة . انها تدفعنا الى الايمان بمفعولها السحري والتضحية بحياتنا من اجل الحصول على نعمتهـا وامتيازاتها ، فنجاهر عاليا بقيام دولة الحشيش واستتبـاب سلطانها الآسر .

يقول رامبو في قصيدة « H » في « الاشراقات » ان المدمن يند عنه بفعل الحشيش حركات بهيمية . انه في وحدته يبلغ درجات من اللذة تضاهي متعة الوصال الجنسي . انه في تراخيه وخموله وانحلاله يملك في جســـده كل حيوية

والحب وطاقته المتفجرة • ان المخدر يعيده الى عهد الطفولة ويدعه يتجول في فردوسها المفقود• من هنا انه كان دائما دواء روحيا ناجعا طالما تعاطته الشعوب منذ أقـــدم العصور • ان الحشاش محكوم عليه بالبؤس والشقاء والتحلل الخلقي، اما بسبب النتائج المدمرة التي تتركها الجرعات الفتاكة في صحته الجسدية والنفسية ، واما بسبب تعلقه بالمخدر الى حد الهوس والجنون • وكما ان نشوة الافيون تعلو على لذة الجمـــاع والاستمناء فانها ايضا تفوقهمـــا اضرارا بالجســـم • انها تستنزف دم ضحيتها ، وتسبب له الاختناق البطيء ، وتتحـــول الى سم يجري في شرايينه ، وسلاسل تقيده ، وحاجة ملحة يعجز عن الاستغناء عنهـــا •

اما في قصيدة « مسائية مبتذلة » في « الاشراقات » فان رامبو يعلن أنه تحت تأثير المخدر، ها ان نفسا سحريا يحدث شروخا جديدة في فسوخ البنايات ، كتلة التي تحصل عنـــد تغيير اطار المسرح • وها ان السطوح تختلط ببعضها وتمحى معالمها • ها ان المنازل تتفرق وتتباعد • والنوافـــذ تخسف أضواؤها • والعالم الواقعي يطمس آثاره • وها ان رامبو ، دائخا من اللذة ، منزلقا في دوار الغبطة ، محمولا على أمواج الشهوة الهائجة وسكرة الحس المهنوءة المريحة ، يركب عربة المخدر التي تشوه مرآتها الاشكال ، تبدلها ، وتجعلها تهتـــز وتتراقص ، التي تقوده الى الغيبوبة والذهول والانعزال عن العالم ، والتي تدور عجلاتها على درب العـــالم الذي محت معالمه • لكن مفعولها ليس كاملا • لا يزال هنـــاك ثمة ثغرة

ضئيلة في الجسم يتسرب منها الوعي ، ولا يزال هنـــاك قسم صغير في المرآة تنعكس عليه الاشكال بحجمها الطبيعي السابق شاحبة بعض الشيء ، شاعرية ، شهوانية ، باسمة • ثم هذه ألوان الحياة تقتحم الصورة مؤذنة بالعودة ثانية الى ضجـر الواقع اليومي • عربة النشوة تنفك عن خيولها وتتوقف• هل جاءت ساعة الندم ، وموعد الانسحاق والانحطاط • هل حان وقت لسعات السوط الدامية ، والغرق في ميـــاه صاخبة وأمواج متلاطمة ، والعواء ككلب مسعور ، الان وقد سفحت كل قناني الخمر على الارض ، واستنفدت السكرة ، وهدرت المتعة • أم ان الحوذي والخيول الاسطورية ستستأنف تسيير عربة اللذة عبر كثافة هذه الغابة ذات الاشجار العالية ، التي يختنق المرء تحت ظلالها ، وستـــزج به من جديد في ينبوع الغبطة • »

في قصيدة « سهرات ــ ١ » من « الاشراقات » ينقـــل المخدر رامبو الى مرج أخضر يستلقي فيـــه بلذة ، ويتمـدد باسترخاء على سرير مريح نائمـــــا دون ان يغمض عينيه ، متحررا من كل مرض جسدي أو نفسي من كل حمى أو ضجر• لكأنه برفقة صديق يمحضه الود خالصا ، ويرتاح كليـــة الى عشرته الحميمة ، صاحب رائق معتـــدل لا هو بالجامـح المتهور، ولا هو بالمغائر الضعيف، لا يمكن ان يزعجه او يؤذيه بأي تطرف • لكأنه في جوار حبيبة لا تعرف للهم والقلـــق معنى ، ولا يمكن ان تكون مصدر هم وقلق لاحد ، ينعم قربها بالاستقرار والامان • لكأنه بلغ درجة الاكتفـــاء والاكتمال ،

وحقق كل رغباته ، ونال كل ما كان يصبو اليه ويتمناه ، فلم يعد له على الحياة أي مطلب ، ولم يعد يسعـــى وراء أي من امور هذه الدنيا · لكن النشوة الاصطناعيـــة الناتجة عن المخدر سرعان ما تزول وتتبدد كالحلم الجميل · حتى ليتساءل المدمن : ماذا ، أهذا كل شيء ؟

في قصيدة « سهرات ــ ٢ » يرى رامبو عبر نافذة ان الشجرة المستندة الى الحائط التي يطل عليها بمنظار المخدر هي مشعة منيرة · وان الاثاث الحقير ، الذي يتطلع اليه من طرف الغرفة العادية التافهة ، يتعالى ويلتحم آيات من الذوق والانسجام ·وان الجدار يعكس أمام عينه الساهرة سلسلة من المشاهد الوهمية من خلق مخيلته السكرانة : قطع من السماء، شريط متلاحق من التحولات المناخية والمناظـــر الارضيـــة المدهشة ، والمشاهد المسحورة · وان جماعـــات من العشاق مؤلفة من كائنات من شتى الطباع ، ومختلف الاشكال تنساب أمامه في حلم كثيف وسريع ·

واخيرا في قصيدة « سهرات ــ ٣ » يوهم المخدر رامبو الساهر في غرفته ان المصابيح والسجاد تبعث ضجة امواج ليلية على متن الباخرة او على طول رصيف الميناء · ان بحر اللذة الذي يهدهده على تياره في هذه الامسيـــة هو شهواني دافيء عطوف كنهدي امرأة حنونة · حتى الزينة الجدرانية تدب فيها الحياة تتحرك وتتراءى له خميلـــة من الدانتيل ، وصبغة من الزمرد ترتمي حمائم السهرة في خضمها · كما انه يلمح من خلال حديد المدفأة السوداء شموسا رائعة تغرب على

الشطآن ، وآبارا سحرية تنضح بالعجائب تطل منها اخيـــرا رؤية وحيدة للفجر الحقيقي ٠

ان الانسان في حياته اليومية العادية ينزع بدافــع من حياء ، او من رغبة في التخفي وعدم البوح باسراره الحميمة الى مراقبة انفعالاته وكبح جماحها ، وكبـــت الحافز الى التعبير عنها ٠ لكنه تحت تأثير المخدر يكشف عن العواطف التي كان يخنق صوتها من قبل ، ويفصح عن مكنون صدره ، ويفضي باعترافات ما كان في حالــــة الصحو ليجرؤ على الادلاء بها ٠ انه يكون في حالة من اللاوعـــي لا يفكر معها بصقل أفكاره وتشذيبها فيترك الرؤى التي عاد بها من هنـاك على حالتها الطبيعية دون مساس باصالتها وعفويتها ، ودون تشويه لقدسيتها وبكارتها ٠ المخدر ورود مريعة من الحـب والحنان ، وسيلة للاشراق والالهام مليئة باللعنة والحـزن ، انها امتلاك اصطناعي لعالم مسحور باذخ عامر بالحوريـات واميرات الاحلام من كل الاجناس الغريبة ، والقـــدرة علـى اختراق حجب الغيب واكتشاف المجهول ، يضطر رامبو للجوء اليه عندما يبلغ حدا بعيدا من الخيبة والمرارة ، وحين تصبح حانات الامل مغلقة في وجهه الى الابد ٠

وهكذا نجـــد أن الرائي في النهاية يدفع غاليـــا ثمن تشويش كل الحواس ، وارتقاء الذرى الروحيـــة ٠ حتى ان اعصاب رامبو تنهار ومزاجه يصبح قاتما بسبب تعاطي الشعر، وانتهاج أسلوبا غريبـــا في العيش هو بمثابة وداع للعالم ، وهو ما يمتدحه رينه شار فيه ، اذ يقول :

ـ « ··· وثبة الجسد والروح العابثة هذه ، طلقة المدفع هذه التي تصيب هدفها مفجرة اياه ، نعم ، هذه هي بالفعل حياة رجل ! ··· »

ان رامبو هو مغامر تائه يضيع مركبه السكران في أخطر المجاهل وأقصى الابعاد ، حيث لا تتوغل قدم ، ماحيا كل الآثار وراءه ، مموها كل المعالم لكي لا يتمكن أحد من مطاردته واعادته الى العالم الذي هرب منه · انه يمضي حرا فوضويا فقيرا شريدا مليئا بالاحلام ، مخترقا بنظره الثاقب حجب الواقع الكثيفة لينفذ عبرها الى كنوز الجمال والى أجواء قائمة فيما وراء العالم المألوف ، مستسلما لرياح الجنون ، محمولا على عربة رعناء تقودها أفراس الخيال نحو بلاد العجائب والغرائب ، مرتعدا من الخوف احيانا لمجازفاته المتهورة ، ولتوغله بعيدا في مناطق المستحيل ، متحسرا هو الشريد وجواب الآفاق على مسقط رأسه ، وعلى دنياه القديمة التي هجرها ، والتي يحن الى العودة نحو حياة الدعة والامن والاستقرار فيها · ان اسلوب « التشويش المنهجي لكل الحواس » وهو نسق شاذ في العيش يتبعه «المركب السكران» يتيح له الوصول الى اكتشافات فكرية غير مباحة للبشر العاديين الذين يسلكون نظاما مألوفا ومتعارفا عليه · هناك في هذه الجزر البكر التي يصل اليها بعد رحلاته الجريئة يعثر على الاشراقات الفريدة ، والخواطر الطريفة ، والالهامات المدهشة تستيقظ قواه الروحية الهاجعة من سباتها العميق ، ويستعيد خصوبته الفكرية ، ونشاطه الخلاق · اذ ان الوحي لا يتخذ له مسكنا ومقرا الا في هذه الاجواء الخارقة للطبيعة، وجواهر

الفن الدفينة لا تكمن الا في هذه الاعماق التي لم يسبر لهـا غور · لكن بما أن هذه الاهواء العنيفة والشهوات المتوحشة والمسكرات والانفعالات والهذيانات المؤاتية وحدهـا للابداع الشعري متعبة وصعبة ، قاسية ومحطمة للاعصاب ، فان من يتبع طريقها المحفوف بالمخاطر والاشواك يتوق الى الخلاص من الرعب والمرارة المتربصة به على جوانبها ، الى التحطم الكلي على صخورها ، والفرق النهائي في مهاويها ، ليفنـى ويهلك ويرتاح · من هنا ان مركب رامبو السكران يأسف على حالته الماضية الهادئة رغم تفاهتها وبرودتها وبشاعتها ، وعلى المستنقع الآسن الذي هجره ، ويتمنـى الرجوع الى منـاخ التعاسة القديم ، حين كان يكتفي بالسفر بالحلـم ، والهرب بالوهم وبناء قصور من الورق · فلقد تعب ومل من ابحاراته الهوجاء فوق الامواج الصاخبة والمضطربـة ، ولم يعـد بوسعه تحدي القوانين والتمرد على الانظمة الى ما لا نهاية، والاستمرار في احتقار الشرائـع والتقاليد والاستخفـاف بالقصاص والعقاب ، والبقاء دائما عرضة لكل هذه العيون الناقدة العدائية المسلطة عليه شذرا من كل جهة لتلومه علـى مسلكه الغريب · نعم لقد بات بحاجة الى القـاء السلاح والعيش بسلام مع قضاته وجلاديه وسجانيه ·

وهكذا نجد في قصيدة « اوفيليا » ان هذه الفتـاة ذات الطبيعة الشاعرية الخيالية تموت بسبـب رؤاهـا الكبيرة : حنينها الى الحرية ، طاقتها على الاحلام ، عشقها للطبيعـة ، توقها الى المجهول والمطلق ، حبها العذري · كمـا ان رامبو يعلن في ختام « فصل في الجحيم » :

ـ « ٠٠٠ ان النضال الروحي هو اكثر وحشية من حرب الرجال ٠ لكن رؤية العدالة هي متعة الله وحده ٠٠٠ »

فالحياة الفكرية هي صليب ودرب جلجلة ، وما يعانيه شهداؤها من ضعف العذابات والآلام والاذلالات والاهانات ، وما يتحملونه من مشقة ومجهود يفوق اضعاف المرات ما يبذله غيرهم ممن يخوضون غمار الواقع العملي ٠ ان فرسان الكلمة لا يخرج منها أحد من الساحة منتصرا ٠ ان مصيرهم المحتوم هو المرض والجنون والهلاك جسديا وروحيا ٠ ان المغامر الذي يطلب المستحيل يجب أن يدفع عمره ثمنا لذلك ٠ يجب أن يحرم نفسه من كل سعادة أرضية ، من كل امتياز دنيوي ، ومن كل مغانم ومكاسب هذا العالم ٠

ولقد اعلن رامبو في رسالته المؤرخة في ١٥ ايار ١٨٧١، والموجهة الى بول رميني ، وهي ثاني خطاب يعرض فيه نظريته حول الرائي بعد ذاك المبعوث الى استاذه جورج ازامبار قبل يومين :

ـ « ٠٠٠ ان الشاعر اذن هو بحق سارق نار ٠٠٠ »

نعم فكما ان بروميثيوس سلب النار من الآلهة وأعطاها للبشر ، كذلك الشاعر باقتحامه للمجهول يطلع على اسرار السماء ويذيعها على أبناء الارض ٠ انه بهذا المعنى :

ـ « ٠٠٠ مسؤول عن الانسانية ، عن الحيوانات حتى ، يجب أن يجعلنا نحس ، نلمس ، نسمع اختراعاته ، اذا كان

ما يأتي به من هناك له شكل ، فهو يعطيه شكلا ، اذا كان بلا شكل ، فانه يقدمه بلا شكل · العثور على لغة ، ـ على كل حال بما ان كل عبارة هي فكرة ، فان عهد لغة عالمية سيأتي ! يجب أن يكون المرء أكاديميا ، ـ اكثر موتا من هيكل عظمي ، ـ لينجز قاموسا ، بأي لغة كانت · ثمة أنـــاس ضعـاف قد يأخذون بالتفكير حول أول حرف من الابجدية ، مما قد يدفعهم سريعا نحو الجنون !

هذه اللغة ستكون من الروح الى الروح ، مختصرة كل شيء ، روائح ، أصواتا ، ألوانا ، من الفكر تعلـــق الفكـــر وتسحبه ··· »

لكن لا يكفي ان يلتقط الشاعر الرؤى الخفية بل عليـــه أيضا وقبل كل شيء أن يتمكن من التعبير عن هذه الاكتشافات الروحية العميقة ، وان يصفها لنا بنوع أن نحسها ، ونسمعها، ونشمها ، أن نراها بأم عيننا ، ونلمسها لمس اليد · عليه ان يجسدها أمامنا تجسيدا حيا · اذا كـــــانت السطور التـــي يقرؤها في كتاب المجهول واضحة ومفهومة ويمكنه ان ينقلها ويعطيها شكلا محددا فانه يصبها في مثل هذا القالب · أما اذا كانت غامضة ومستعصية على الادراك ، اذا كانت لا تملـــك ملامح معينة ، ولا يمكن الافصاح عنها ، وتسميرها في اطار ثابت فانه يرسمها في الخطوط المبهمة التي ظهرت بها، ويعطينا اياها كما فرضت نفسها عليه أي في حالة اللاشكل · المهـــم بالنسبة للشاعر هو العثور على لغة حية تنفـــذ الى حقيقـة الشيء ، وتكون مطابقة تمام المطابقة لمدلولها ، بنوع ان تبعثه

أمامنا كما هو في ذاته بمجرد ان تلفظ عباراتها ، تكون بمثابة زر لا نكاد نضغط عليه حتى تظهر الصورة المطلوبة جلية للعين ٠

ان مثل هذه اللغة ، التي تضع العنوان المضبوط على المسميات ، تتحرر من كل الاصطلاحات الآلية ، والرموز النفعية المتداولة ، والاساليب العملية التي نستخدمها بها ، والدلالات الذاتية التي نلصقها عليها زورا وبهتانا ، والتي لا تمت الى جوهر طبيعتها بأي صلة ٠ بنوع انها عندما تدعو الشيء فان النداء يكون مرادفا لهذا الشيء كما هو بالنسبة لكل انسان ، لا كما هو فقط بالنسبة للشاعر ، الذي يتجاوز الفردية والمحدودية ليبلغ الشمولية والمطلق ٠ وهذا ما يعنيه رامبو باللغة العالمية ٠ يجب افراغ الكلمات من محتواها القديم ، الذي لا يعني في حقيقة الامر شيئا ، واعادة خلقها وتركيبها ثانية ، وشحنها بدفقة جديدة تفجر فيها طاقات غير معهودة ٠ ان لفظة « باب » لا تكفي للتعبير عن مصراعين من الخشب ، ومسكتين من النحاس ، ومزلاج ، وثقب ٠ ان كلمة « بيت » لا تفي الحيطان والحجارة والقرميد والشبابيك والشرفات حقها من الوصف ٠ بل ترمز اليها من بعيد وتلمح اليها تلميحا شاحبا ٠ ان القواميس لا تحتوي الا على مفردات ميتة ٠ وكما أنه يجب على الشاعر اخضاع حواسه لمنهج الاختلال ٠ فانه يتحتم عليه أيضا تشويش معاني الكلمات ، وتفكيكها عن بعضها ، واعادة رصفها من جديد ٠ وهكذا يخلق لغة داخل اللغة لا علاقة لها باللهجة المكتوبة او المحكية

في بلاده اكثر مما لها في أي انسان اجنبي ، عبثا ما نحاول أن نفهمها بالعقل والجدل • لاننا قد نصاب بالجنون من جراء ذلك • اذ انها قد قضت على العلائق والروابط المنطقية بين الكلمات التي أفرغتها من مداليلها القديمة واستخدمتها لاغراض شعرية اشراقية ، غامضة وغريبة عن الغايات النفعية العملية التي كانت تسخرها لاجلها عادة •

ان رامبو بهذا المعنى قد الغى من قصائده كل مقومات السرد والشرح والبرهان ، اي كل ما ليس رؤيا باطنية ، وهذا سر ابهامها واستغلاقها • فكلما خف عنصر النثر ، الذي هو الوضوح ، في الشعر ، كلما اقترب هذا الاخير من الغموض، الذي هو من جوهر طبيعته • ان مالارميه ، الذي تقل نسبة النثر في ابياته ، هو معقد جدا عسير الفهم • بينما فيكتور هوغو ، الذي ترتفع هذه النسبة في عطائه ، هو شفاف سهل المنال • ومن هنا توجه نتاج الاول الى النخبة فقط ، وشعبية نتاج الثاني ، الذي يفتح ابواب فن القريض للذين ليسوا مؤهلين للولوج منها ، لانه بالضبط انما يقدم لهم نثرا تحت ستار الشعر •

ان هذه اللغة التي ينادي بها رامبو تصدر عن اعماق روح الشاعر وتخاطب قلب القارىء مباشرة • انها تنبثق من وجدان الاول وتناجي ضمير الثاني ، تستولي عليه ، تشده اليها ، تجذبه نحوها ، وترفعه نحو الاجواء العالية التي استشرفتها • انها لغة صادقة لانها نابعة من الاغوار الداخلية، وهي لذلك تجد صدى وتجاوبا في نفوس الآخرين • انها

تعطينا اللون والصورة والصوت والرائحة كما هي في ذاتها، وتتيح لنا أن نراها ونذوقها ونلمسها ونسمعها ونشمها ملء حواسنا · انها تقدم لنا الفكرة والعاطفة بنكهتها المميزة الخاصة واصغر علاماتها الفارقة ، وتجعلنا نعيشها بالفعل ·

لقد كان رامبو يؤمل بفضل الكلمة الغريزية العفوية التي يستعملها ان يتوصل يوما ما الى مخاطبة جميع الحواس ، بعبارة شعرية تكون ملكه الخاص ، تنقل صوته هو الاصيل ، غير المستعار من أحد ، لهجته الفريدة المتميزة ، وسماته الفردية الشخصية المستقلة · لقد حاول رسم ما لا شكل له ، واسماعنا ما لا صوت له ، والتعبير عن الرؤى الشعرية التي شاهدها بلغة الهذيان التي تلائمها ·

ان المبالغة عامة ، والمبالغة الكلامية خاصة هي احدى مميزات الطفل الرئيسية · وهي عند رامبو على نوعين : كمية وكيفية · اما الاولى فمن اعراضها : اولا : **المضاعفة العددية:** « مليار من الرعود » « مليون من العصافير الذهبية » « مئة الف مذبح في الكاتدرائية » ثانيا : **التسريع** : (وهو النتيجة الحتمية لنفاد الصبر الطفولي) والامثلة عليه كثيرة في شعر رامبو : « الغيوم السماوية التي تركض وتطير » « قبلة صغيرة ركضت على رقبتك » الخ ·· ثالثا : **العملقة** : اذ ان نعوت من عيار « ضخم ـ هائل ـ واسع ـ لا نهائي· » تتكرر باستمرار في قصائده · اما المبالغة الكيفية فانها مألوفة جدا لديه · فهو اذا سلط الضوء مثلا على مزاياه لظهر على شكل « امير شاب وقوي يسكن قصرا جميلا » واذا ذاق طعم الهدوء والسكينة

النفسية ادعى أنه قديس · واذا عرف بعض التعقل جاهر بانه عالم · انه يسمي الانسان الطيب ملاكا · بينما يلقب الرديء بالخنزير · ان الفقير عنده يتحول بفعل المبالغة الى شحاذ ، والضعيف ينحط الى طبقة « الجنس الناقص » ان الفوضوي المتمرد على القوانين الخلقية والتقاليد المكرسة يمسخ في عينيه الى وحش او زنجي · ان نزعة شر بسيطة فيه كافية كي يتهم ذاته بانه ابليس رجيم · كما أنه لا يحتاج الى اكثر من بعض الاضطرابات النفسية الطفيفة ليعلن أنه مجنون لعين للغاية ·

ان معظم الكتاب منافقون متصنعون لا يعيشون بالفعل المشاعر والانفعالات التي يعبرون عنها ، بل يمثلونها تمثيلا · اما رامبو فانه يحيا قصائده بصدق واخلاص · ولا يوجد اي فارق عنده بين الحقيقة والكتابة · ان وراء كل كلمة ينطق بها حافزا حياتيا وتجربة مصيرية ، ابحاثا طويلة وصلوات ضارعة · ان كل لفظة يتمخض عنها هي ثمرة ممارسته لعمره بزخم وقوة وعنف ، وتعمقه في اسرار قلبه ، وتحليله لخلجات نفسه المخفية ، واكتشافه لكنوزه الداخلية، ودراسته لاحاسيسه التي لا ينخدع حول طبيعتها ، بل يفحصها بجرأة وتفهم جوهرها ·

ليس عيب الرومنطيقي في انه يصف عاطفته ، بل في انه يسيء تصويرها باضفائه هالة درمائية عليها ، بتضخيمه للامور استدرارا للشفقة ، بتمثيله ادوارا مأساوية يعرف انها تضرب وترا حساسا عند القارىء · انه كذاب يزيف قلبه ويبالغ في التفجع والبكاء والعويل ، ويرسم لا عواطفه

الحقيقية التي عاشها في الواقع ، بل صورة خاطئـــــة عنها لا تكاد تمت اليها بصلة ، صورة مائعـــــة بقـــــدر ما هي مصطنعة · ومن هنا قول رامبو :

ــ « ··· ان مصدر تفوقي هو اني بلا قلب ··· »

لكن الرومنطقيين ينجحون احيانا قليلة في العثور على النغمة الصحيحة التي ترجع صدى مشاعرهم الاصيلة ·

ان كل عبارة خطها قلم رامبو لها مغزى رغـم مظهرها الغامض اللاواعي اللامنطقي · ألم يصرح امـــــام والــدته التي سألته عن معنى كتابه « فصل في الجحيم » :

ــ « ··· اردت أن أقول ما يقوله النص أدبيا وبكـل المعاني ··· »

فالكلمة الشعرية هي أشبه بورقة نقدية لا قيمة لهـــا ان لم تكن تملك تغطية ذهبية هي المعنى · قد تكون هذه السبائك مخبوءة في جهة مجهولة · قد نكـــون عاجزين عن العثور عليها · لكن يجب أن تكون موجودة في نقطـــــة ما ، والا أصبحت العملة مجرد قصاصة من الورق لا قوة شرائية لهـــا ولا منفعة منها · فلنبحث ونبحث عن المضمون المستتر خلف الشكل حتى اذا عجزنا عن الاهتداء اليه فالذنب يقع علينـــا ، لاننا ضللنا الطريق ولم نحسن التنقيب ولم نبـــذل المجهـود الكافي للوصول الى الكنز · وايانا أن نتهم القصيدة بانها بلا معنى فهذه أكبر اهانة يمكننا ان نوجهها الى الشعر · ربما كان

الجوهر متحجبا ٠ ربما كانت عيوننا عاجزة عن رؤيته ٠ لكن ما يعطي المحارة قيمتها هو ايماننـــــا بان اللؤلؤ مكنون في جوفها ، ثقتنا بان هذا الورق الموضوع بين يدينا له تغطيـة ذهبية مكفولة ومضمونة ولا شك انها محفوظـــة ومصانة في مكان أمين ٠ أما المزيفون الذين يطرحون في التـداول نقودا مزورة ، ويسحبون شيكات بلا مؤونة ، ويوقعون سندات بـلا رصيد فانهم دجالون وطفيليون ومفلسون من الشعر ، الـذي هو بحث عن الحقيقة وأسمى درجات المعرفة ٠ اذ انه يقتحـم الاخطار ويجازف في مناطق المجهول ، ويطـــارد الحقائـق الصعبة المستعصية على الادراك ، التي يرمي العلم والفلسفـة سلاحهما ويقفان عاجزين امامها ٠ انه يذهـــب الى الحدود القصوى في التعبير وفي التفكير ، ويتسلق القمم العالية التي يرتد عنها بصر الباحثين كليلا ٠ انه يدق باب المستحيل الذي تبدأ مهمته على عتبته حيث يرفع بقية الرواد راية التسليم ٠

نحن في عصر العلم ٠ الشعر هو ايضا وسيلة للمعرفة الشاملة ، وهو خالد خلود القيم المطلقة الـــتي يرقى الـى مستواها ٠ والشاعر هو المؤهل اكثر من غيـــره لان يرفع النقاب ، الذي يخفي عن أعين عامة البشر وجه الحقيقة ٠

ـ « ٠٠٠ الشاعر سوف يحدد كمية المجهول المستيقظة، في عصره ، في الروح الكونية ٠٠٠ »

ان ما يميز الانسان عن الحيوانات ، التي تسعى مثله الى اشباع غرائزها ، وارواء رغباتها وشهواتها والمحافظـة

على بقائها ، انما هو حب المجهول ، والبحث عن المدهش والجديد ، وعشق المغامرة ، والحماس البكر • لكن مهمة الشاعر لا تقتصر على التعبير عن هذه الافكار المستقبلية والرؤى النبوية التي اكتشفها في دنيا المجهول المباحة له وحده ، وعلى وصف هذه المسيرة الطليعية التي اقتحم بواسطتها اصقاعا نائية لم يكن احد ليغامر بارتيادها • انه طلاع يقف في المقدمة ويقرأ الغيب ، مخترقا الحجب بنظره النافذ الثاقب • انه عراف يتجلى اسرار الغد ، ويحذر البشر الاخرين الواقفين وراءه مما تخبئه لهم الايام من اخطار تلوح في أفقهم فلا يستطيعون رؤيتها كالجندي الكشاف المنتصب على قمة عالية متطلعا امامه الى البعيد لينذر بقية فرق الجيش باقتراب فيالق الاعداء • ان الشاعر ، بهذا المعنى ، هو انسان فعال في المجتمع ، وليس عنصرا سلبيا يكتفي بالتغني بافكاره وعواطفه • انه رسول يهدي الانسانية ويرشدها ويحدد مسيرتها على طريق المستقبل ، ويساهم هكذا في تطورها ، ويجرها وراءه نحو هذه الآفاق البعيدة التي تبدت لعينه وحدها ، والتي لا يستطيع الآخرون رؤيتها بدون مساعدته • انه بعد أن يتلقى الهبات السماوية يهبط من عليائه الى مستوى البشر ليفيض عليهم العطايا التي همت عليه ، كي يستفيدوا منها لانه في لهفته اليهم ، ومحبته اللامتناهية نحوهم يرفض الاستئثار بهذه الخيرات لوحده ويصر على اغداقها عليهم بسخاء •

ان الله يتكلم من خلال صوت الشاعر الذي يؤدي خدمة نافعة للاخرين ، ويضطلع بوظيفة مهمة في المجتمع • انه

لا يكتفي بمرافقة موكب العمل ورصد مسيرتـــه ووصفه من الخارج · انه يتقدمه ويقود خطاه ويشــق امامـــه آفــاق المستقبل ·

عندما تتحرر المرأة فانها ستصبح شاعرة هي ايضا ، وستروح تفض بكارة المجهول مثل الرجل ، وستقودنا الى عوالم جديدة من الخواطر والاحاسيس ، والــى اكتشافات غريبة لا يسبر لها غور لذيذة او منفــرة · وسنتقبــل نحن ما تقدمه لنا من عطايا وتصفه لنا من تجارب روحية فنستفيد من خبرتها ، ونفهم وجهة نظر الجنس الآخر ، وطريقة شعوره وتفكيره ·

ان الديانة في نظر اليفاس ليفي لم يتم ادراكها حتى الان الا بواسطة الرؤوس المفكرة · انهــا لم تهبط بعـــد الــى القلوب · لقد تجسدت الكلمة وصارت رجلا · لكن العالم لن يعرف الخلاص فعلا الا عندما تتجسد الكلمة وتصبح امرأة · وعندما يحلِ هذا القبس الامومي في نفس عــذراء ملهمة من الله تنقذ البشرية وتعلمها معنى الحب الروحي المقدس ·

المطلوب من الشاعر هو العثور على الجديد في الشكل والمحتوى · الامر يبدو سهــلا لاول وهلة · الجميع يعتقدون انهم قد تمكنوا من الايفاء بهذا الشرط في نتاجهــم · لكن القضية ليست بهذه البساطة التي يتصورونهــا · ان رامبو ثائر على الاســـاليب الشعرية القديمة ، والتقاليد الفنيــة الموروثة · انه يعلن في « فصل في الجحيم » :

ـ « ··· يجب ان تكون حديثا بصورة مطلقة ···»

اياك ان تصور عاطفتك بطريقة مباشرة كما يفعل اتباع المدارس الادبية البالية · اياك ان تظهر انفعالاتك وانت تكتب لا تهلل ولا تصرخ بل تكلم بلهجة رزينة هادئة · ان الرؤيا الطريفة تفرض على الشاعر ان يبحث لها عن شكل مبتكر يصبها فيه · وهكذا مع ان :

ـ « ··· بودلير هو الرائي الاول ، ملك الشعراء ، اله حقيقي · الا انه عاش في وسط فنان جدا ، والشكل الذي امتدح عنده كثيرا هو مسكين · ان اختراعات المجهول تتطلب أشكالا جديدة ··· »

بهذا المعنى فان شاعرا تقليديا معاصرا لرامبو كتيودور دي بانفيل لم يكن ليتورع من ادخال موضوع الزهور ، تلك الحمامات من الغبطة ، الى قصيدته حتى وهو يصف الليل مثلا · لكن القرن التاسع عشر وهو عصر النفعية والمادية الذي لم تعد تلعب فيه الورود اي دور لا يستطيع الا ان يحتقر هذه المناهج الشعرية العتيقة ، التي لا تلجأ اليها سوى الشعراء الصغار الرجعيون ، الذين يعيشون بعقلية عهد الرومنطيقية او القرون الوسطى · اننا لا نرى الزنابق كثيرا في حياتنا اليومية وواقعنا المعتاد المألوف · لكنها تتمايل دائما بهاماتها في قصائد تيودور دي بانفيل كاكمام صيادات سائرات بخفر وهدوء · ان هذا الشاعر لو أراد ان يقارن اللون الاسمر بشيء لشبهه بورود بيضاء ذابلة او قذرة · أما

اذا شاء أن ينظم قصيدة غزلية فانه يملؤهـــا بذكر الليلـك والبنفسج · ان قصائده تغص بالورود حتى الكظة · لكـــن وصفه الممل لها الذي يعمي البصيرة ويعشي العيــــن هـو تصوير غير واقعي وغير مستوحى من معاينتهـــا ومشاهدتها فعليا · اما رامبو فانه لا يجد الورود جميلة بالضرورة ، ولا يعثر فيها على أي مادة للوحي ، ويرى ان استعمالهـــا في القصائد هو دليل على الاجترار الآلي ، لا ينتج عنه سوى شعر صالوني عفى عليه الزمن خـــال من الطرافـــة والابتكار ، مصطبغ بألوان عاطفية اصطناعية ، مفعم بسذاجة بدائيـــة مثيرة للقرف · بينما لم يعد الفن اليوم ، والحق يقال ، مجرد مزهرية انيقة · فاشجار الكاجو في عصرنا لم تعد فقط كناية عن أغصان تتنقل عليها القرود وتعرش الاعشاب · لقد باتت تستورد من افريقيا كي تستعمل لغايات نفعية وتستخـــدم في صناعة المفروشات · ان وردة او زنبقة ليســت من الناحيــة الشعرية بأفضل من سحلة عصفور بحري او ذوب شمعـــة · ان أي موضوع في الحياة مهما بلغ من التفاهة والوضاعـــة وحتى البشاعة قد يصلح مادة لقصيدة ومصدرا للوحي · ان أي غرض يحط عليه بصر الشاعر يصبح تحفة ساحرة · فليس الجمال في الاشياء في حد ذاتها ، بل في العين التي تنظر اليهـــا ·

انه لمن اضعف الايمان بالنسبة لفنان يريد ان يتطرق الى قضية الورود ان يكون ملما باسرار الموضوع الذي يتناولـــه· انه لمن المضحك والمزعج ان نرى شاعرا لا يكاد يغادر برجـــه العاجي ، ويظل محصورا بين جدران غرفته الانيقة ، مغلقـــا

نوافذه على الهواء الطلق ، ومفاتن الطبيعة يتحدث عن زهور البرية ، وزنابق الحقول ، وورود المروج التي لم يكد يلمحها · يجب أن يعبر الشاعر لا عن الحدائق المزدهرة فقط ، بل وايضا عن حقول التبغ والقطن والمزروعات الغريبة المدهشة ، التي هي بمثابة مواضيع غير مطروقة ولا مألوفة · ان الشاعر هو معيار الجمال هو الذي يضفي صفة الحسن او القبح على الاشياء · ان الورود ، الجميلة في الحياة ، قد لا تكون كذلك في القصيدة · وبركة الوحل ، القبيحة في الواقع ، قد يستوحي منها الفنان مادة لرائعته ،لانه هو الذي يسعر لوحات الطبيعة ويحدد قيمتها · ان حذاء قديما او كرسيا حقيرا قد يتحول تحت ريشة فان كوغ الى تحفة تصويرية نادرة ابدع بكثير من رسم يمثل مزهرية مليئة بالزهور · ان جيفة منتنة صادفها بودلير على قارعة الطريق ألهمته احدى قصائده الكبرى هو الذي أعطى لديوانه عنوان « أزهار الشر » بمعنى أن الشاعر قد يجني عسل الجمال لقصيدته من مواد هي في واقع العيش بشعة ، منحطة ، ومبتذلة · ليست الورود والمحاسن الرفيعة الشأن هي وحدها الجديرة بان ترقى الى مصاف الفن ، وان تدخل في تركيب الاستعارات الفنية ، والصور المجازية ، بل كل شيء قد يؤدي هذه الغاية المنشودة عندما تقتضي الحال : الحيوانات الضارية المفترسة ، المواد الاولية الضرورية والنافعة للانسان والمجردة في الظاهر من أية امتيازات جمالية ، الحشرات والطحالب ، واحط الامور قدرا · فالمهم أن تأتي الصورة مطابقة للواقع ومعبرة عنه مهما كانت منفرة وضيعة الشأن · التشبيه ليس حلية ولا

مسحوقا يضاف لتجميل الوجه · انه ليس زينة اصطناعية ولا زخرفا خارجيا · انه وسيلة للكشف عن الحقيقة · وهكذا فان الشاعر الخارج لاصطياد فراشات الالهام قد يجد الكنوز المرصودة على اسمه في ساحة الوغى ، في اعماق غابة تغص بالحيوانات ، في فرقة من الحمير تعمل في زراعة القطن ، او في مجرد كرسي بسيط · انه يستخرج من مناجم الواقع التي لم يكن أحد ليتصور أنها تحتوي على مثل هذه الجواهر النادرة أحجارا كريمة لم يسبقه أحد الى نبشها · انه يزور المناطق البكر التي لم تطؤها قدم ، والتي لم يخطر ببال مخلوق انها يمكن ان تفضي الى مثل هذه البلاد المسحورة · انه يكتشف أراض خصبة في المساحات البور التي لم يكن شخص ليتوقع امكانية انبات عشبة خضراء فيها · انه يفجر الماء من الصخور ، يمتص الشهد حتى من الورود المزعومة بلا رحيق ، ويحلب الضروع الجافة · ان بعض الشعراء من امثال تيودور دي بانفيل ، الذين يحمل عليهم رامبو بشدة في قصيدته « ما يقال للشاعر بصدد الورود » يتفنون بالحب ، ويتشببون بالزهور دون ان يكونوا قد ذاقوا طعم الغرام ، وان تأملوا خميلة حقيقية · بينما مهمة الشاعر الاصيل الجوهرية تتلخص في أن يعزف ، وسط جو البلادة والموت الروحي الذي يختنق فيه الجميع ، ألحانا مجنونة طريفة غريبة تملؤنا بالحماس ، وتفتح في وجهنا آفاق البراءة والطهارة والدهشة · فلئن كان الشاعر رسول الروح فانه ايضا تاجر ومزارع يغذي نتاجه بمعطيات الارض الحسية ومستحدثات العلم المعاصر ، الذي نحن في عهد تفجره

الشيطاني • من هنا ان على الشاعر ، حسب ما ورد في قصيدة رامبو المهداة الى بانفيل ، أن يزين ابيات قصيدته لا بالزهور بل باسلاك اعمدة الكهرباء والتلغراف ، والادوية الزراعية المخصصة لمعالجة امراض البطاطا •

الا أن رامبو يكف بعد مرحلة معدنة عن الايمان بمهمة الرائي التي نادى بها • فها هو بعد أن ترك الكلمة لفرلين في هذيانات ـ ١ (العذراء المجنونة) يستلم دفة الحديث من جديد في هذيانات ـ ٢ (سيمياء الكلمة) ليروي علينا قصة احدى افكاره الجنونية ، نظرياته الجمالية ، ليحكي لنا كيف أنه كان يدعي باعتزاز فيما مضى بانه يستشرف رؤى مدهشة ، ويحتقر كل مشاهير الفنانين في زمانه ، ويفضل على انتاجهم : التصاوير الغبية ، الآرمات المعلقة فوق الابواب، اللوحات المستعملة اطارا لوصلات المهرجين ، الصمدات المشعشعة التي يقيمها أفراد الشعب ، الادب العتيق الذي لم يعد مقروءا ، ترانيم الكنيسة اللاتينية ، كتب الجنس الرخيصة المحشوة بالاغلاط الاملائية ، الروايات التي كانت تطالعها النساء في القرن الخالي ، أقاصيص السحر والجن ، كتب الاطفال ، الاغاني الاوبرالية القديمة ، الالحان السخيفة ، الايقاعات الساذجة • وكل هذه التوافه العديمة القيمة في نظر الغير ، والتي تثير خياله الخصب ، فينسج حولها آلاف الاحلام العجيبة • انها اشبه باعواد ثقاب صغيرة تكفي وحدها لاشعال الحرائق في مناجم فكره الغنية • لقد كان يقوم بالوهم بمغامرات هي أقرب ما يكون الى الحملات

الصليبية ، برحلات استكشاف نحو مجاهل لا علاقة له بها ، ونحو جمهوريات بكر ليس لها أي تاريخ · لقد كان يعول على حدوث فوضى وبلبلة وفتنة لا ينتج عنها أضرار بشرية لكنها تتيح للانسان أن يعيش لفترة متحررا من ربقة القانون ، وعبودية النظام ، وصرامة الواقع ، وكل القيم والشرائع الاخلاقية والعادات والتقاليد · لقد كان يتوق الى تغيير القارة التي يقطنها ، واستبدال الاجناس البشرية التي يعاشرها ، والنزوح نحو آفاق اخرى ومخلوقات مختلفة · ولقد كان يعتقد في سذاجته ، ان الخوارق والمعجزات ممكنة الوقوع ، ان كل احلامه السحرية قابلة للتحقيق ، ولا شيء بعيد الاحتمال ·

اما في قصيدة « حكاية » في « الاشراقات » فان رامبو يعلن أنه يتضايق أحيانا من أنه لم يتمكن كشاعر من الافصاح حتى الان سوى عن بعض الافكار والعواطف المبتذلة · لقد كان يتوقع احداث ثورة في فن الشعر ، ويظن في نفسه القدرة على تطويع الجمال للتعبير عن موضوعات جديدة غير تلك المثاليات الجوفاء والتأنف الفارغ والترف الذهني الباطل · انه يريد أن يرى الحقيقة المطلقة ، وان يتوصل الى لحظة الالهام الفعلية التي تشبع نهمه الروحي العميق ، وتروي عطشه الجوهري ، وتنيله الرضى التام · هل هذا توق جنوني الى المستحيل ؟ هل هو تطرف وجموح تمليه عليه طبيعته الملتهبة المؤمنة بالفن ايمانا أعمى ، المولعة بالذهاب الى الحدود القصوى ؟ ربما · لكنه لا يقبل بما هو أدنى من ذلك · وهناك ثمة ما يبرر هذا العناد والطموح · انه يملك على

الاقل قدرة انسانية واسعة وخارقة للعـادة · وها هو يقـوم بعملية وأد لكل الالتماعات الشعرية التي خطرت بباله · وان المرء ليحتاج الى الكثير من الشجاعة المعنوية وقوة القلب كي يتمكن من تدمير وتحطيم كل هذه التحف الثمينة وكل هذه الورود الساحرة المزهرة في حديقة الوحي · لكن الجمال ذاته يتطلب ذلك ، ويبارك اليد الجريئة التي تخنق براعمه في سبيل الحصول على ما هو أزهى وأنقى وأقرب الى الكمال · بيد ان هذه الخواطر الفنية التي أجهضها سرعان ما كانت تظهر من جديد ، مع أنه ما كان ليهفو اليها أو يتقصـد اقتناصهـا · وهكذا عبثا ما كان يحاول ان يطفىء في ذهنـه كـل هـذه الومضات التي كانت تراوده ابان نزهاته وتجواباته الطويلة في الطبيعة ، وأثناء تلك اللحظات المسحورة حين كان يختبر سكرات روحية عميقة ، وحماسات خارقة ، فـان هـذه التداعيات الجمالية ما كانت تنفك تطارده ، ولم يكن باستطاعته قط التخلص منها والفكاك من اسرها · كما انه يسعى دون طائل الى القضاء على كل تكلف وتصنع ، كل ترف واناقة ، كل ميوعة عاطفية وتبذل انفعالي · اذ ان رواسب من هـذه العيوب كلها كانت تظل ماثلة في شعره بشكل ما مهما ضيـق عليها الخناق ، وقلل من الحيز المخصص لها في قصائده ، هل يمكن للفنان ان يجد لذة في التدمير ، وان يجـدد شبابه ونضارة قلبه بفضل الهدم والقساوة والشر ؟ لا أحد من النقاد يلقي نظرة الى نتاجه أو يعيره أدنى اهتمام او يبدي رأيا حول عطائه ليتمكن من أن يعرف موضوعيا ان كان قد نجـح أو فشل · أما اذا أتيح له يوما أن يحظى بالالهام الاصيل ويقابل

ذلك الجمال الحقيقي الذي لا يعبر عنــــه ، والذي هو مصدر حب وفرح لا يوصف ، فانه سيفنى ويموت من هول الصدمــة وعنف الهزة وضراوة المجهود ، وسيتراجع ويجبـــــن عن الذهاب الى الحد الاقصى لانه ليس اكثر من انسان ضعيف ٠ وهذه القدرة الفائقة انما تنبع منه هو بالذات ، وهي بالتالي تابعة له ، سريعة العطب مثله ، تختفي بزواله ٠ وهكذا حكم علينا بألا نتوصل أبدا الى اكتشاف الحقيقة المطلقة والجمــال الامثل ٠

ثم نجد رامبو في قصيدة « مســـاء تاريخـــي » في « الاشراقات » يصور لنا نفسه على أنه ذلـــك « السائــح السانج » المنسحب من حومة الحياة العملية والصراع المادي، والذي قد يتوصل الى الرؤيا الشعرية في أي وقت ٠ فاذا ما سمع قرعات الجرس خيل اليه أن يدا سحرية تعزف على أوتار المروج ٠ واذا ما تأمل صفحة مستنقع تراءى لهم أنهم يلعبون الورق في القاع بينما السطح هو مرآة تنعكس عليـــه وجوه الملكات والحسناوات ٠ اما ساعة الغروب فانهـــا توحي له بقديسات ، باوشحة ، بانغام منسجمة ، وبصور اسطوريـة ٠ ان الشاعر يعاني من ظلم ووحشية القدر ، واستغلال الانسان لاخيه الانسان ٠ انه يشمت بمهزلة الحياة السخيفة ، ويضيق بمشاكل وازعاجات العالم الصعب المعقد الذي يرهـــق كاهل الضعاف والفقراء ٠ انه يثور ويتمرد أمام مشهـــد العسف والعبودية هذا ، ويروح يبني بخياله جنة وهميـــة : الواقــع يرتفع الى مصاف المثال، الهمجية والبربرية يتم القضاء عليها،

العبيد يحطمون اغلالهم ، وعلى أنقاض عروش الملوك والطغاة تشاد مدينة جديدة قائمة على العدالة ، بريئة كالحلم . ان أبسط حس واقعي عملي ينبؤنا بان هذا المناخ الروحي الذي يعيشه رامبو في أي بلد يحط فيه عصا الترحال ، ان هذا الاستغراق في الذاتية والانجراف في تيار التأمل والحلم واللافعل هو مسلك مستحيل ، وحالة مرضية تحطم الجسم ، وتملؤه بالمرارة والندم ، وتغلفه بضباب الشك والضعف والانحطاط ، وتجعله متوتر الاعصاب ، معرضا للانهيار في أي حين ، متألما لابسط حادث . فكيف لشاعر هذا وضعه النفسي أن يحلم بقلب نظام العالم . ان الزلازل البركانية والزعازع التي تهز اركان الكون ، ان الثورات الجذرية التي تبدل وجه الارض . ان البطش بالظالمين والفتك بالمستغلين ، والمجازر والحروب التي تفضي الى نتيجة ايجابية وتقيم العدالة بين البشر ، كل هذه الامور هي وقف على اهل الجد والرصانة ، على الرجال الاقوياء العمليين لا على الضعفاء والحالمين من أمثال رامبو الذي يكتفي بتغيير العالم بالوهم ، ويبني بالخيال دنياوات خرافية اسطورية .

وهكذا نجده يودع الجمال والشعر في نهاية « فصل في الجحيم » التي كتب في مسودة مخطوطتها ما يلي :

ـ « ... اني اكره الان الشطحات الصوفية وغرابات الاسلوب .. الان استطيع ان اقول ان الفن هو حماقة ...»

لكن بحسب رامبو أنه توصل في « الاشراقات » الى ان

يفاجىء عالمنا العادي وهو يخلي السبيل لعالم آخر قائم فيما وراء الواقع ، اذ :

ـ « ... اننا ، والحق يقال ، لا نخرج تماما ، لا نذهب في الواقع حتى العالم الاخر . لكننا نغـــادر الوضع الاول للاشياء ... »

كما يستنتج جاك ريفيير . بحسبه أنه نجح في تسجيل ما يلتقطه من المجهول ، محتفظا بالجملة الفجـــة البدائية ، المباشرة والغامضة كما أملتها عليه القوى الفائقة للطبيعة ، ناقلا الينا روعة لحظات الوجود المليئة التي خبرهــا ، وصفاء وطهارة الرؤيا السماوية الملائكية التي تبدت له ، ناجحا في أن يعطينا ، كما يقول عنه فاليري :

ـ « ... أشعة عن نظام آخر ، أو عالم آخر لا يستطيع أن يضيؤه أي نور زمني ... »

اما اراغون فانه يصور الاثر العميق الذي تركتــه في نفسه قراءته الاولى لــ « الاشراقات » على هذا الشكل :

ـ « ... ذات صباح كئيب ، فتحت « الاشراقات » وها أن وجه الحياة المخيب للامل يمحى . البحار راحت تعلو ، مغنية ، فوق البيوت ، وللكون المنبعث من الطوفان ، راحت ورود مستحيلة تولد ... الملاك الحقيقي يجرفنـــا في دوار فضاء متعال .. لا شيء يحدني بعد ، حر اخيرا ... »

٧ ـ رحيل

« الجسد هو تعيس ، للاسف ! ولقد قرأت كل الكتب ٠ الهرب ! الى هناك الهرب ! أشعر أنِ ثمة عصافير هي سكرانة لانها موجودة بين الزبد المجهول والسماوات !

★★★

سأرحل ! أيها المركب المؤرجح صاريتك ،

ارفع المرساة انتجاعا لطبيعة غريبة !

٠٠٠ آه يا قلبي ، اسمع نشيد البحارة »

مالارميــــه

في ختام « فصل في الجحيم » يدرك رامبو أن عليه أن يخنق عرائس الالهام ويطرد من قلبه شيطان الشعر ، فيكبت حوافزه ، ويقلع عن كتابته ، هو الذي ظن في بعض ومضات خاطفة من الوحي والخصب الروحي أنه ملاك او ساحر ، وانه معفى من كل الواجبات الاخلاقية والاعباء اليوميـة ، غيــر خاضع للانظمة والقوانين التي تقيد بقية البشر ٠ ها هو يعـي أخيرا ان عليه أن يعود الى أرض الواقع ويدفن خياله ويضطلع بالمهمات العادية مثل كل الناس ، وينساق في تيـار الحيـاة العملية أسوة بغيره فيبحث لنفسه عن شعلـة نافعـة ينصرف اليها ٠ هل اخطأ ؟ هل كان على ضلال هل الافكار التـــي

طالما غذاها في عقله هي مجرد أوهام ؟ هل كان يخدع نفسه ؟ هل بنى حياته الماضية على الكذب ؟ هل الهدف الذي نصبه أمام عينيه مستحيل التحقيق ؟ هل طموحه خرافة ؟ هل الشعر باطل ؟ انه تائب عن كل تصرفاته الخرقاء ومشاريعه اللاواقعية ، ولن يعود الى المتاهة السابقة التي نصب هدف حياته على طرفها . لكنه وحيد لا أحد يمد له يدا لمساعدته على الخروج من مأزقه ، والتخلص من ورطته ، وانتشاله من هذا الجب العميق الذي زج بنفسه فيه عن طوع واختيار . نعم انه لفي محنة عصيبة ، انه لعلى مفترق طرق يجب ان يغير نمط معيشته . يجب ان يتخذ اجراءات حاسمة . لقد انتصر على شيطانه القديم . وأصبح بامكانه الخروج من هذا الجحيم الذي كان يتلظى بنيرانه بعد أن أمضى فترة عقوبته فيه . الغضب ، النقمة ، التمرد ، اللعنة تخف حدتها . الذكريات القذرة المؤلمة والاعمال الشائنة التي قام بها في الماضي تمحى . المرارات القديمة تزول . الحسرات السابقة تتبخر . لقد استعاد رصانته واعتداله . اما بالنسبة للشحاذين واللصوص والخارجين على القانون وطريدي العدالة والمتخلفين عقليا والمجانين وشذاذ الآفاق ، وكل الناس الغريبي الاطوار ، الخارقين للعادة ، حتى لو كان تميزهم يتم باتجاه الانحطاط والفساد والرذيلة والبؤس ، فانه لا يحسدهم بعد على مصيرهم كما كان يحصل له من قبل . تماما مثلما أنه كف عن التفكير بالانتقام من كل اولئك القوم الملعونين الذين كان لهم اسوأ التأثير على سلوكه .

في عام ١٨٧٥ بعث رامبو برسالة الى صديقه ارنست دلاهاي ضمنها قصيدة عنوانها « حلم » لعلها وداعه النهائي للشعر ، وهو يتصور نفسه فيها جائعا في غرفة صغيرة ضيقة عابقة بروائح جسدية كريهة وأنفاس الحــــرب التي تهوم في الاجواء (اذ ان احتمال استدعائه للخدمة العسكرية كـــان واردا حينذاك) ٠ انه يكشف في هذه القصيدة عن نفسيـــة انسان تخلى الى الابد عن أوهامه حول الشعر ، ورضــخ ، مرغما صاغرا مليئا بالمرارة وخيبة الامل ، لمعطيـــات الواقع العملي ٠ ليست الحياة سوى ذلك الصراع المادي المقرف في سبيل المحافظة على البقاء ، ليست سوى ساحة وغى يضطر فيها المرء للدفاع عن نفسه ضد أعدائه ، والكفاح في سبيـــل انتشال لقمة عيشه ، وان تهاون قليلا في ذلك قضي عليه :

ـ « ٠٠٠ الجنود يقطعون خبزهم : »

هذه هي الحياة ٠٠٠

أما الموت فانه حادث عابث لا معنى له ، يحصل لنـــا بصورة غبية ودون أي مبرر ٠ انه يتألــــم لاضطراره الــى الانغماس في تفاهة ومباذل شؤون المعيشة اليومية والتصرف مثل غيره من الناس والاختيار بين امرين : الهلاك جوعا او خوض معركة الحياة الضارية الخالية من الشعر ، منضما الى حلقة البشر العاديين ، خانقا جميع أحلامه الخيالية ومشاريعه الادبية امام سطوة الواقع القاتلة ٠

وعام ١٨٧٩ زار ارنست دلاهاي رامبو وسأله ان كـــان

يعنى بعد الادب ، فأجابه هذا الاخير :

ـ « ··· لم أعد اهتم بهذا ··· »

ثم أضاف في اليوم الثاني من لقائه الوداعي مع رفيقه الآنف الذكر في مزرعة روش :

ـ « ان طقس اوروبا الان بارد جدا بالنسبة لمزاجي ··· الذي تغير ·· ·لم أعد أستطيع أن أعيش الا في البلاد الحارة ··· »

كما أنه أعرب ، في نفس السنة في شارلفيل ، أمام اثنين من رفاقه هنأ أحدهما الاخر لحصوله على بعض الدواوين الشعرية الصادرة حديثا ، عن استخفافه بعقل كل من يشتري كتبا · وما حاجة المرء الى ذلك ، في رأيه ، طالما انه يملك رأسا يستطيع أن يفكر به لحسابه الخاص ، وطالما ان المجلدات الغبراء لا تنفع الا لكي تخفي وراء رفوفها قذارة الحيطان المتآكلة ·

ان رامبو هو الاديب الكبير الوحيد الذي انقطع بملء ارادته عن كل نشاط خلاق · ان صمته الطويل ، الذي يهمنا أقل بكثير من الفترة القصيرة التي تكلم خلالها ، ناتج عن تقديسه واحترامه للكلمة ، التي انما سكت لكي لا يدنسها ، بعد أن خبت الجذوة الالهية في صدره ، وأصبح عاجزا عن بلوغ ذلك المطلق في التعبير والاحساس الذي تتطلبه نفسه المتطرفة في كل عطاء شعري · لقد قطع رحلته عندما ادرك استحالة بلوغ الحدود القصوى · فالشعر في نظره هو كل

شيء او لا شيء • انه لا يرضى بالحلول الوسط • كما أن ما يقترضه من زخم روحي هو من الصعوبة بحيث لا يمكن الاستمرار به لفترة طويلة • اذ لا بد بعد كل شد هائل من الارتخاء • وهكذا ظل امينا لـ « زواج العقل الذي اقامه مع المتطلبات الاجتماعية » الذي عنته شقيقته ايزابيل • فكان عظيما عندما تكلم وعظيما عندما سكت• ان رامبو ابن الآردين المنطقة الباردة المغمورة بالمطر والضباب معظم أيام السنة يحن الى الشرق بلاد الشمس :

ـ « ••• كنت أحب الصحراء ، البساتين المحروقة ، الكحول الغائرة • كنت انسحب في الازقة المنتنة، واهب نفسي، مغمض العينين ، للشمس الهة النار ••• »

نعم انه يخشى حدة الشمس الملبدة للحس • لكنه يتوق الى وهج أشعتها المنقذة التي تحرقه لكن لتطهره ، وتبعث من رماده كائنا جديدا • انه يطلب منها ان تقذف بشواظها مدمرة كل معالم الحياة الغربية بأبهة متاجرها وفخامة قصورها ، بضخامة مدنها وتهاطل امطارها المتواصل ، وبمخادعها التي تعشش فيها الرذيلة • انه يشبه نفسه بذبابة سكرانة في مبولة الحانة تعشق الشمس الذي يكفي مع ذلك سهم واحد من وهجها كي يذيبها شعاعا •

ان حنين رامبو الى الشرق هو شوقه الى بلاد طفولته التي اختفت عن خريطة الارض ، والتي يحاول في غمرة هذا الضباب والعتمة التي تلف الكون أن يعيد خلقها من جديد •

انه يقول في « المستحيل » من « فصل في الجحيم » بانه لو حكم عقله قليلا ، الامر الذي لا يحصل له الا نادرا ، لوجد ان كل مشاكله ومتاعبه وازعاجاته ناجمة عن تناسيه انه موجود في الغرب ، موطن المطر والضباب والظـــلام · لا بمعنى أن يؤمن بتدهور وانهيار اوروبا التي تفسد وتفقد اصالتها والتي تشيخ حضارتها وتدخل طور الانحـــلال والتفسخ ، مرحلة الضعف والتفكك ، وتسير على طريق الضلال والضياع ، بـل بمعنى انه يرفض كل القيم الروحية التي سادت العالم منـذ أفول الحضارة الشرقية الموغلة في القدم · العقل هو القوة والسلطان ، هو اخضاع الطبيعة لسطوة الانسان ، وتسخيرها لخدمته ، وهو عنوان حضارة الغرب ، علينا ان نخرس صوته اذا أردنا أن نهرب نحو مدنية الشرق ، ضاربين عرض الحائط بكل مقومات الحضارة الاوروبية : تعاليم الكنيســة ، أنوار الفن ، غرور العلماء ، تكالب رجال الاعمــال الانتهازييـن الجشعين على جمع الثروة ، لنعود الى منبع الحكمة القديمة الخالدة وفجر الانسانية الطاهر · لكن هل الحنين الى الشرق هو حلم بليد بالكسل والتراخي ، بالاتكاليــة واللافعل ؟ ان عاطفة رامبو ليست من هذا النوع · انها ليست تهربــا من جحيم الحياة الحديثة ، وليست اذعانا للقضاء والقدر · لكن ما يغيظه ويثير حفيظته ويبغضه بالحياة الغربية هو هــــذا التحالف بين الدين والعلم اللذين أصبحــا عنصرا واحدا ، واللذين يتواطآن في الاعتماد على البراهين والحجج والادلة الثبوتية ، واخضاع كل قضية للمنطق · ان هذه العبوديــة للجدل الذهني تسبب لرامبو عذابا حقيقيا · وهو كردة فعـل

ضدها يتهافت على الهذيان واللامنطـــق واللامعقول • انه لا يؤمن بقانون العلية فنفس الاسباب لا تعطي دائمـــــا نفس النتائج • لان الطبيعة قد تضجر احيانا وتتغيـــر أسلوبها ، وتخلق طفرات جديدة غير منتظرة ولا مألوفة •

ما السر في هذه الحالة المتردية التـــي وصل اليهـــا الغرب ؟ هل هو هذا الطقس الضبابي البارد المطر الموبوء الباعث على المرض ؟ هل هو الادمان على الخمر والتبغ ؟ هل هو الجهل والتعب ؟ وما نفع عالم حديث تفتك به مثل هـذه السموم ؟ ما أبعدنا عن بكارة الحكمة وطهـــارة الفكرة في الوطن الاصلي القديم • لرب قائل ان هذا المفهوم للشرق هو نظرة وهمية شعرية خيالية لا تمت الى واقعه بأي حال ، وان رامبو انما يعني الفردوس واليوتوبيا عندما يفكر بهذه البلاد الاسطورية ، التي يكون عنها في رأسه صورة سحرية لا علاقة لها على الاطلاق بتاريخ شعوبها العيني • نعم ان الحنين الى تلك الاجناس البشرية القديمة الطاهرة لهو توق الى الفردوس المفقود • ان رامبو يفكر ربما بشرق ما قبل المسيحية ، ومن هنا اعتراض رجال الكنيسة على تصوره هذا ، ونعتهم اياه بانه وهم وحلم بجنة عدن • ولرب فيلسوف يزعم بان العالم لا عمر له ، وان الحضارة البشرية تنتقل فقط من مكان الـى آخر ، واذك تستطيع ان تعيش بعقلية آسيــــا حتى وانت في أوروبا • ان هذا الفيلسوف يفكر بمنطق وذهنيـــة الغرب • بينما الانسان عاجز في الواقع عن الهرب من عصره وقارته•

العقل بطيء حذر دقيق لا يغامر • العلم ينهـج اسلوب

الاستقراء والاستدلال الذي لا يتوصل بعد مشقة كبيرة الا الى معرفة جزئية · وحده يقودنا الى الحقيقة الاشـراق الفكري الذي لا نبلغه الا اذا تحررنا من كل اساليب ومناهج البحث الغربية · ان لحظة من اليقظة الروحيـــة العميقة والتوقـد الذهني الفريد تسمو بنا في مدارج الصفاء ، وتضعنا في قلب الحقيقة · اما العقل والمنطق فانه يوجهنا نحو الله وهذا في رأي رامبو :

ـ « ··· قلة حظ ممزقة ··· »

يقول رينه شار :

ـ « ··· حسنا فعلت بان رحلـــت ، يا ارثور رامبو ! سنواتك الثماني عشرة المناهضة للصداقة ، للعداوة ، لسخافة شعراء باريس كما ولفحيح النمل العقيم الصادر عن عائلتك الآردانية المجنونة قليلا، حسنا فعلت بان بعثرتها لرياح الهرب، بان رميتها تحت سكين مقصلتها المبكرة · لقد كنت على حق بمغادرتك شارع الكسالى ، ومقاهي المستأدبين ، من أجل جحيم الدواب، من اجل تجارة الماكرين ، وتحية البسطاء ··· حسنا فعلت بان رحلت يا ارثور رامبو ! نحن حفنــــــة من البشر ، نعتقد دون برهان السعادة ممكنة معك ··· »

كما أن رينه شار يعلن في موضع آخر :

ـ « ··· ان رامبو بهربه ، يحدد اقامة عمره الذهبـي في الماضي وفي المستقبل دون تعيين · انه لا يركز نفســه ·

انه لا يخلق زمنا آخر على صعيد الحنين ، او على صعيد الرغبة ، الا لكي يدمره على التو ، ويعود الى الحاضر تلك الدريئة ذات القلب الجائع أبدا الى القذائف ، ذلك المرفأ الطبيعي لكل رحيل · لكن من الاقرب الى الابعد فان التوتر هائل · رامبو يمدنا بالعلاقة بينهما · انه يجرفنا ، انه يخضعنا ، مذعنين ، في حركة جدلية فائقة السرعة · ولكنها كاملة لدرجة أنها لا تتمخض عن اضطراب ، بل عن زوبعة مدوزنة ودقيقة تحمل كل شيء معها مقحمة حصتها من الزمن الصافي في صيرورة مستقبلية ··· »

لكن رامبو لم يعثر على السعادة المنشودة لا في الحبشة من حيث وجه سنة ١٨٨١ رسالة جاء فيها :

ـ « ··· اني لا اتعلق أبدا بالحياة ··· ومن حسن الحظ أن هذه الحياة هي الوحيدة ، وان هذا أكيد ، بما أننا لا نستطيع ان نتصور حياة أخرى أكثر ضجرا من هذه ···»

ولا في عدن التي لا يوجد فيها عشبة خضراء ، ولا نقطة ماء عذبة ، حيث الحرارة لا تطاق خاصة في حزيران وايلول ، وحيث اعتاد أن ينام ، بصورة مستمرة ، في الهواء الطلق· ومع انه يحب كثيرا المناخات الدافئة وينفر بغريزته من المطر والوحل والبرد فانه يضمر حقدا لا يقهر لهذا البلد الذي يشقى فيه كالحمار ، على حد تعبيره ، والذي يتوق الى الخروج من أجوائه المبلدة للحس ، قبل ان يكون قد أصبح غبيا كلية·

ان كل يوم يمضي على رامبو في افريقيا يزيده غربة عن

طقس اوروبا ولغتها وأساليبها في العيش · حتى لقد نعت سنة ١٨٨٣ مهنة الكتابة بانها :

ــ « ··· باطلة ، مضحكة ، مقرفة ··· »

امام « باردي » الذي سأله لماذا كف عن نظم القصائد بعد أن علم من أحد الصحافيين أن رفيقه في العمل في الحبشة وعدن ــ الذي رفض الرد على أسئلة وجهتها اليه مجلة فرنسية عارضة عليه أن يسهم التحرير فيها بصفته زعيما للمدرسة الرمزية ــ كان شاعرا · ولكن باردي هذا يعود فيستدرك بانه كان يخيل اليه ان رامبو ينتظر تجميع ثروة كافية كي يرجع الى فرنسا ليكرس نفسه للكتابة ·

بيد أنه يتبين لنا بوضوح عندما نقرأ الرسائل الجافة الخالية من اية موهبة فنية وروح ابداعية التي كان يبعثها رامبو الى أهله من الحبشة وعدن ان الشاعر قد مات في داخله · انه يؤكد في احداها :

ــ « ··· ايزابيل تخطىء كثيرا برفضها الزواج اذا ما تقدم لطلب يدها شخص رصين ومثقف ، شخص له مستقبل ·· الوحدة أمر بغيض على هذه الارض · فيما يختص بي ، اني آسف لاني لم أتزوج ولم أحصل على امرأة · لكنني في الوقت الحاضر محكوم علي بالتيه ··· ما نفع هذه الغدوات والروحات ، هذه المشقات هذه المغامرات وهذه العذابات التي لا اسم لها ، اذا لم اتمكن يوما ما ، بعد بضع سنين ، من ان ارتاح ، وان أجد عائلة ، وان يكون لي على الاقل ولد ، أراه

يصبح مهندسا مشهورا ، رجلا قويا وغنيا بفضل العلم؟ ... الشيء الوحيد الذي يهمني هو اخبار البيت ... »

انه يعبر في هذه الرسائل عن رأيه من الحياة فهو لم يعثر في الشرق على جنة عدن التي كان يحلم بها ، وهو يعتقد بان الانسان يعول ان يقضي ثلاثة أرباع عمره في الشقاء والتعب لكي يرتاح في الربع الاخير الباقي ، لكنه في الاغلب الاعم يهلك من العذاب دون ان يحقق هذه الامنية ، ودون ان يعرف الامان . وهو يعلن انه في كل ما فعله كان الاخرون ، بالاحرى هم الذين استغلوه ، وان حياته بائسة للغاية ، بل انها كابوس حقيقي ، حتى ليستحيل عليه أن يتصور مخلوقا على وجه المعمورة عانى من مثل حظه العاثر . اذ انه يشقى في طقس لا يطاق وظروف قاسية ، مرتاعا عندما يفكر بانه قد بلغ منتصف العمر، ودار نصف الكرة الارضية ، وكد وتعب وذاق الامرين دون ان يصل الى أية نتيجة ، تواقا الى تجميع ثروة تنقذه من العبودية وتكفيه كي يعود الي فرنسا حيث يعيش من مدخول وريع مدخراته ولا يعمل الا بقدر ما يحلو ويلذ له ، ويتزوج ، ولكنه متأكد من انه لن تبقى حتى ذلك الوقت امرأة ترضى بالاقتران به الا بين صفوف الارامل . لكنه يفضل البقاء في عدن رغم ما يعاني فيها من عذابات لان التعاسة موجودة في كل مكان ، ولانه يشعر على الاقل في هذه المدينة العربية بانه مجهول وان الناس قد نسوه كلية .

وفيما بين عامي ١٨٨٤ و١٨٨٦ عاش رامبو مع امرأة حبشية كان يعاملها معاملة انسانية للغاية ، ويرغب في تثقيفها

ورفع مستواها . ونحن مدينون للمعلومات القليلة التي نعرفها عنها الى خادمة فرنسية كانت تعطيها دروسا في فن الخياطة، وتصفها بانها شابة هادئة ، قوامها طويل ونحيل ، قسمات وجهها لا تخلو من بعض الجمال ، وبشرتها ليست سوداء تماما . وبانها مسيحية قريبة الشبه بالنساء الاوروبيات ، ترتدي ثيابا افرنجية ، وتحب تدخين السجائر .

لقد شاخ رامبو قبل أوانه . وفي سن الثالثة والثلاثين بدأت الامراض والاوجاع تغزو جسده . وهاهو في الواحد والعشرين من نيسان ١٨٩٠ يوجه ، من غربته ، رسالة الى ذويه يعلمهم فيها ان شعرة في رأسه تشيب كل دقيقة ، وهو يخشى ان تصبح كلها بيضاء . اما في شباط عام ١٨٩١، وفيما كانت تجارته في عز ازدهارها ، فلقد احس بوجع حاد في ساقه اليمنى التي تشكل فيها ثمة ورم راح ينمو بسرعة ، واخذ الشلل يغزوها ويجفف عروقها ، لدرجة أن رامبو فقد شهيته الى الطعام ، وقدرته على النوم . فصرح في خطاب له مؤرخ في ٢٠ شباط :

ـ « ... ان سنة هنا تساوي خمسة اعوام في مكان آخر . المرء يشيخ بسرعة كبيرة هنا ... »

ثم كتب في رسالة أخرى وقد تفاقم مرضه ، وبرح الالم برجله :

ـ « ... لقد أصبحت هيكلا عظميا : اني اثير الفزع ... »

وفي الثاني والعشرين من أيار عام ١٨٩١ بعث برقية من مرسيليا الى أهله يطلب حضور والدته او شقيقته ايزابيل بالقطار السريع ، لانهم سيبترون ساقه صباح الاثنين مما يعرض حياته للخطر · وبعد أن اجريت له العملية الجراحية ظل في المستشفى حيث اضطرت والدته ان تتركه وحده لتعود الى مزرعتها ، رغم دموعه التي هزت مشاعرها ، وحيث استمر يبكي ليل نهار معتبرا نفسه انسانا ميتا ، متسائلا بيأس عن مبرر لهذه الحياة الشقية التي يعيشها الانسان ، والتي يتمسك بها مهما كانت باطلة وأليمة ·

ان ما أصاب ساقه ناتج عن اصراره على السير على أقدامه في مجاهل افريقيا لمسافات طويلة ، والعمل بوحشية وضراوة ودون ان يرحم جسده ، وهو نادم لانه سمح لهم ببترها ، ويفضل الموت على أن يعيش مشوها · ان الالم مهما بلغ من الشدة هو أهون من الزحف برجل واحدة · لقد بلغ ذروة اليأس · انه يجلس على كرسيه كالمشلول يبكي وينتحب منتظرا حلول الليل ، الذي لا يقدم سوى الارق الدائم ، الى أن يعود الصباح الذي هو اكثر شؤما من المساء ·

ولقد كتب الى أهله عندما أخذ مرضه يتفاقم بعد قطع ساقه :

ــ « ··· وانا ، بالضبط ، الذي قررت أن أعود الى فرنسا هذا الصيف لاتزوج ! وداعا ايها الزواج ، وداعا أيتها العائلة ، وداعا أيها المستقبل ! لقد مضت حياتي ، لم أعد سوى شلوا جامدا ··· »

وانه لمن سخرية القدر أن نرى رامبو ذلك المشاء الذي لا يكل ، ذلك المتشرد الدائم على الطرقات ، ذلـــك الرحالة الذي وضع كل أمله وسعادته في الهرب وقطع المسافات على رجليه ، كسيحا عاجزا عن الحركة ·

واذ خرج رامبو من مستشفى مرسيليا أول مرة ، وعاد الى منطقة الآردين ليمضي فيها فترة نقاهة ستعقبها انتكاسة قوته لن تنتهي الا بوفاته ، فانه لم يخف سعادته وانفعالـــه وهو يرى ثانية ، بعد غيبة مديدة في الحبشة وعدن ، المشاهد والمناظر التي كانت اطارا لطفولته وشبابه الباكر · انه تأثر وحنان طبيعي في رجل موشك على الموت يرى مسقط رأسه لآخر مرة بعد غربة طويلة · ربما · ولكن هذا يجب ان لا ينسينا تعلق رامبو بشارلفيل التي هي حـــاضرة في كل قصيدة كتبها · ان حياة التشرد والسفر المتواصل التـــي عاشها يجب ان لاتخفي عنا حقيقة انه كان وظل الى آخـــر لحظة من عمره ذلك الفلاح المرتبط بالارض التي نشأ وترعرع فيها · انه ابن الشمال ومن هنا نزعته الاشراقيـــة ورؤاه الباطنية· هل نذهب الى حد الزعم ان مغادرته مسقط رأسه ورحيله بعيدا عنه الى الشرق كان السبب في نضوب معينــه الشعري ، لان ارض طفولته كانت الرافد الاول الذي غـــذى عبقريته : على كل حال تبقى الآردين وطنه الاصلي ومنبتـــه الروحي · وكيف يكون الامر غير ذلك بالنسبة لانسان مثلــه وثيق الصلة بطفولته الى هذا الحــد ·

وعندما دخل رامبو غرفته النظيفة والمرتبة في مزرعـة روش بعد غيبة عشر سنوات هتف بحماس واعجاب : انهـا أجمل من قصر فرساي • وبما انه كان يستصعب البقـاء جامدا في البيت طوال النهار ، فانه غالبا ما كان يخرج في عربة مكشوفة ، تقودها أحيانا والدته ، ليتنزه بعد الظهـر ، رغم رجله الخشبية ، وتعبه الجسـدي ، ورداءة الطقس • وكان يطلب منهم أن يقتادوه الى الاماكن التي يتزاحم فيهـا أهل بلدته ، الذين كان يلذ له ان يتأملهم من بعيد ، مرتديـن ملابسهم الجديدة ايام الآحاد والاعياد ، او ان يراقـب في المواقيت العادية حركاتهم وتصرفاتهم والتغيرات التي طرأت على أساليب عيشهم منذ انقطاعه عن رؤيتهم •

وفي تلك السنة المشؤومة كانت العواصف الرعدية قـد دأبت على تمزيق سكون الليل ، والرياح قد عرت الاشجار، والصقيع قد فتك بموسم القمح • وهذه الاضطرابات المناخية كان لها أسوأ التأثير على اعصاب رامبو عاشـق النـور والحرارة والهواء الطلق • لكأن عناصر الطبيعة تتحـالف ضده هي أيضا : البرد ، الضباب ، المطـر • اما الشمس المنشودة فانها لم تكن تظهر الا لكي تغريه بالقيـام بنزهـة سرعان ما كانت تفاجؤه زخات الشتاء أثناءها • لكأن القدر ذاته يتآمر عليه ، دون ان يحمله مع ذلك على التخلي عن فكرة الزواج • بالعكس ان الكارثة قد قوت فيه الحاجة الى تكوين أسرة • لكنه قرر هذه المرة ان يختار فتاة مقطوعـة من احد المياتم او امرأة حبشية ، بدل ان يطلب يد احـدى مواطناته من بنات العائلات البورجوازية • كما أنه كان يحلو

له احيانا ان يروح يهزأ من كل امور هذه الدنيا ،من الماضي والحاضر والمستقبل ، وكل الاشياء والاشخاص المحيطين به· ولقد كان يملك القدرة ، وهو منطرح في سريره ، على اضحاك المستمعين الى ان تسيل دموعهم · ثم ضاق ذرعا بروش ، الملقبة بارض الذئاب ، وراحت تجتاحه نوبات عصبية حادة تتفاوت بين البكاء واليأس والغضب ، وتعقبها مباشرة ودون اي مبرر موجات من الحنان الملائكي وسيول من المعانقات والملاطفات ، رغم انه كان ينزعج احيانا عندما تدخل امه غرفته ، التي طردها منها ذات مرة بفظاظة على مسمع ومرأى من الطبيب ·

ويما ان المرض لم يهادنه طويلا فلقد راح يستعين بالمخدرات ومهدئات الاعصاب ليتمكن من النوم· وكان يتفق له أحيانا ان يغلق النوافذ ويضيء المصابيح في الحجرة ، ويأتي بعازف ارغن ليستمع الى انغامه هاذيا ، حالما على صوت عال ، مستعيدا حياته الماضية ، مستحضرا ذكريات الطفولة ، مفضيا باسراره الحميمة ، عارضا مشاريعه للمستقبل · واخذت الهلوسات تنتابه في مهجعه ، كما حصل له ذات ليلة ، اذ حاول النهوض من سريره لملاحقة رؤيا وهمية تجلت له في احدى زوايا الغرفة ، التي وقع على أديمها ، فتراكض أهله على دوي جسده على الارض ، ليجدوه عاريا تماما فوق السجادة ·

ولم تلبث صحته ان تدهورت بصورة استدعت معها رجوعه ثانية الى مستشفى مرسيليا ، التي شد الرحال اليها

في ٢٣ آب ١٨٩١ ، اي بعد شهر واحد من اقامته الختامية في مزرعة روش · وصباح رحيله غمرته عاطفة مفاجئـة من الحنان ، فاخذ ينشج بالبكاء ، منقلا عيونه فيمـا حوله ، مخاطبا اهله : يا ربي ألن أجد حجرا استطيع ان اسند اليـه رأسي ، وموضعا أموت فيه · احب أن أبقى · أود أن أرى هنا ، من جديد ، كل اصحابي ، وان اوزع عليهم وعليكم كل ما أملكه · واذ ضم ذويه الى قلبه وراح ينتحب ناشدوه ان يمكث معهم اذا كان يريد ذلك ، وتعهدوا بان يعتنوا به جيدا، وبان لا يتركوه أبدا · ولكن عندما سمع وقع أقدام الخـدم القادمين ليقتادوه الى المحطة خنق دموعه ، وصاح : لا يجب أن اسعى الى الشفاء ·

ولقد اصطحبته شقيقته ايزابيل في رحلته الاخيرة هذه، حيث شهدت في القطار افظع ذروة من اليأس والعـــذاب الجسدي يمكن للعقل البشري ان يتصورها · ولقد انذرهـا الاطباء لدى وصولها بان حياة أخيها هي مسألة ايام لان مرضه هو سرطان العظم الناجم عن جرثومة السفلس التي التقطهـا في الحبشة ، وطلبوا منها ان لا تتركه ابدا · فلقد هـزل كثيرا وغارت عيناه وأصبحتا محاطتين بدوائر سوداء ، وبات يرى كوابيس مزعجة للغاية ، ويعرق ويعرق دون انقطاع ، ولا يكف عن البكاء ، فهو لا يكاد يستيقظ حتى ينظـر عبـر النافذة الى أشعة الضياء وتسيل دموعه لانه لن يتاح له قط أن يرى قرص النور المشرق في الخارج ، ويندب مخاطبا اخته:

ـ « سامضي انا تحت التراب ، وانت ستمشين تحت الشمس ! »

وهو يعي حالته في اغلب الاحيان ويتشبث بالبقاء بكل قواه • انه يريد أن يعيش وان يشفى من مرضه لدرجة انه يطلب اي دواء يتيح له تحريك ذراعه • انه لا يني يردد عبارة « الله كريم ! الله كريم! » ألم يتعلم العربية ، وهذه من النقاط المشتركة بينه وبين والده الضليع بهذه اللغة الشغوف بثقافتها ، الذي شغل في فترة من حياته العسكرية منصب رئيس « المكتب العربي » ؟ ألا يشاع انه كان يدرس آيات من القرآن الكريم الى بعض اطفال عدن الفقراء ؟

وكان الجميع في المستشفى يفضلون له الموت على تحمل هذه الاوجاع المبرحة، وكانوا يشفقون عليه ، ويعاملونه كمحكوم عليه بالاعدام لا يجوز ان يردوا له طلبا • لكن كل مجاملاتهم وملاطفاتهم لا تجدي نفعا انه يرفضها كلها • انه يأخذ اخته بين ذراعيه وهو ينتحب ، ويرجوها ان لا تتركه • وكيف يعقل أن تهجره ايزابيل وهو على هذه الحال يئن ويتألم ويتشكى دون توقف من الصباح الى المساء ، ويدعو الموت بصرخات قوية ويتهددها اذا ما غادرته بان يشنق نفسه وينتحر • حتى اذا ما دخل طور الاحتضار ناشد اخته ان ترتب الغرفة ، لان الكاهن سيصل ليعطيه البركة الاخيرة • وكان يقول لها « سترين ، سوف يأتون بالشموع والاوشحة المحزمة ، يجب ان تضعي الشراشف البيضاء في كل مكان• ولم يعد احد من الاطباء ليجرؤ على الاقتراب من سريره ، لانه غالبا ما كان يبكي وهو يحدثهم ، وهذا مما يهز مشاعرهم •

مات رامبو في العاشر من تشرين الثاني عام ١٨٩١ ، وقد أوصى بدفنه في عدن ، لكن والدته أصرت على مواراته الثرى في مقبرة شارلفيل • وبعد أربعة أيام وصل جثمانه من مرسيليا فطلبت والدته من كاهن الرعية في التاسعة صباحا أن يهيء لها في ظرف ساعة جنازة من الدرجة الاولى • لكن هذا الخوري ، وقد كان استاذا سابقا لرامبو في التعليم المسيحي ، وكان يكن له كل مودة واحترام ، رجاها أن تعطيه مهلة كي يتمكن من تحضير المراسم المنشودة ودعوة بعض أصدقاء المتوفي القدامى ، وزملاء الدراسة • لكن الوالدة رفضت بعناد وتصلب وارتأت انه لا فائدة من ذلك ، فرضخ الكاهن لمشيئتها وأجرى طقوس الدفن في الموعد الذي حددته له ، وبحسب التقاليد المتبعة بالنسبة لجنازة من الدرجة الاولى • لكن لم يكن حاضرا في الموكب المأتمي سوى مواجران فقط : والدة الفقيد واخته ايزابيل •

« وكان رامبو ، قبل موته ، قد أوصى بثلاثة آلاف فرنك، لتابعه الحبشي دجامي ، الذي لم يتمكن من قبض المبلغ لانه قضى نحبه ، في العشرين من العمر ، بعد وفاة معلمه بقليل • ربما ابان المجاعة التي تفشت في الحبشة عـ ١٨٩١ ، او على اثر كمين نصبه له بعض اللصوص • وفـ تسلم ورثة هذا الخادم المخلص ، وهو متزوج وأب لطفل صغير ، كمية المال العائدة لهم ، والتي حرصت ايزابيل على وضعها في تصرفهم تنفيذا لمشيئة شقيقها الاخيرة •

وفي عام ١٨٨٩ ، وفيما كانت فيتالي كويف راكعة

تصلي في كنيسة شارلفيل ، رأت عكازة توضع على المقعـــد قربها كتلك التي كان يستعملها ابنها الحبيب ارثور ، الذي صارت تجده الآن بعد مضي ثماني سنوات على وفاته ، مثالا للفضيلة ومحبة الغير ، اذ انه، كما تصرح في احدى رسائلها، لم يطلب منها شيئا ، بل جمع ثروة بجهده ومثابرته وسلوكه الحسن ... واذ حصلت لها هذه الرؤيا راحت تسكب الدموع بغزارة شاعرة مع ذلك بفيض من الفرح وهي تشاهد فلـــذة كبدها يرنو اليها بعطف وحنان رافضا الذهاب مع امرأة اخرى دعته الى قربها، مصرا على البقاء الى جانب والدته . لقد كان متخشعا ورعا يتابع القداس باهتمام وشغف كما تزعـم امه ، التي تتساءل : هل جاء ليأخذها معه الى العالم الآخر؟ وتجيب بانها مستعدة للذهاب معه .

وفي عام ١٩٠٠ اخرجت والدة رامبو نعش ابنتها فيتالي التي توفيت في السابعة عشر من عمرهـا، وسحبـــت كل البقايا التي يسمونها رمادا ، وكل العظام التي لم يكسر منها ولا واحدة بل انفصلت عن بعضها رغم تماســـك جوانبها واحتفاظها بشكل الصدر ، والجمجمة التي لم تمس ، والمغطاة ببعض الجلد والشعر الصغير الناعم . لقد لفت الام بصلابة شكيمتها المعهودة هذه الرفات العزيـــزة في شرشف ابيض حضرته خصيصا لهذه الغاية ، ثم اغلقت النعش ، وانصرفت بعد ذلك الى تابوت ولدها ارثور ، الذي وجدته جـــديدا لم يتلف ولم يتشقق جل ما في الامـر ان لونه لحقــــه بعض الاسوداد . اما الصليب المذهب الموضوع عليه ، فانه لا يزال على حاله . واما اللوحة التي حفر عليها اسم المتوفى فكأنها

ألصقت عليه الآن · وقد تعجب كل الحفارين والعمال لمحافظته على حالته بهذا الشكل الممتاز · ثم انتشلت فيتـــالي كويف تابوت والدها ونقلت عظامه الى نعش ابنتها ، ثم انزلـــت الصندوقين الى الحفرة من جديد شاعرة بسعادة كبرى اذ أنها نفذت مشيئة الله · واذ ان جثمانها سيسجى يوما مـــا بين رفات ابنتها فيتالي ووالدها عن يمين ، ورفات ابنها ارثو عن يسار · وقد جاءت بحفار القبور واشارت له الى المكـــان الذي ترغب أن يوضع فيه نعشها يوم وفاتها ، وقبل ان تسد ثغرة المدفن بالحجر ارادت ان تتأكد ان المثوى الاخير مرتب ومنظم على خير ما يكون ، وطلبت من العمال ان يحملوها من ذراعيها ورجليها ويدلوها في الحفرة · وعندئذ فقط اطمأن بالها الى أن كل شيء على ما يرام ·

وفي أواخر ايامها كانت والـــــدة رامبو تحتفظ بكل مدخراتها من المال في جيبتها ، التي كتبت الى ابنتها ايزابيل توصيها بان لا تدع احدا يمد يده اليها عندما تموت ، بل ان تسحب المبلغ هي بنفسها وتتقاسمه مع أخيها فردريك بعـــد ان تدفع كل تكاليف الجنازة ، التي جرت مراسمها بالفعل في ٢ آب عام ١٩٠٧ ·

وعام ١٩١٤ وضع رجل حقوق بلجيكي قيـــد التداول نسخ « فصل في الجحيم » التي كان قد فـــك الدين عنها ، واشتراها لحسابه الخاص ، بعد أن عجز رامبو في حينه عن تسديد نفقات طبعها ، فبقيت في مستودعات الناشر ، حيـــث عثر عليها هذا المحامي الذي يهوى جمع الكتب عام ١٩٠١

فيما كان يبحث عن مجلة حقوقية · وقد آثر بقسم منهــــا بعض الاصدقاء والادباء والمهتمين باقتناء المصنفات النـادرة من بلجيكيين وفرنسيين ، وخص بالقســم الثــــاني بعض المكتبات ، محطما هكذا اسطورة روجتها ايزابيـــل رامبو ، ومفادها أن شقيقها آرثور قد أحرق كل النسخ المطبوعة من الكتاب الوحيد ، الذي اهتم بنشره خلال حياته ·

وفي ٢١ تموز ١٩٠١ رفع الستار في شارلفيـــل عن تمثال من البرونز لرامبو · وكان فردريك فخورا جدا بمجـد أخيه الصاعد · ولقد تبرع بـ ٢٥ فرنك لتشييد النصــب التذكاري ، وحضر بثياب الاحد حفلة التدشين ، التي رفضت والدته الاشتراك فيها ، والتي ذهبت بعد انتهائها لتضع وحدها اكليلا من الزهر تحت تمثال ابنها ، الذي صهره الجنود الالمان أثناء احتلالهم فرنسا في نزاع عام ١٩١٤ لاستخـــدامه في صنع السلاح ، والذي أعرب أربعة من المثقفين الجرمانيين ، من بينهم ستيفان زيفايغ ، عن استعدادهم للتبرع بنفقات واحد جديد يحفر بدله لرامبو بمثابة تعويض عن ذاك الذي انتهـك جيش بلادهم حرمته ابان الحرب العالميـــة الاولى · لكن الفرنسيين كانوا قد سبقوهم الى هذه المبادرة ، فنحتوا اثرا ثانيا لشاعرهم في عام ١٩٢٧ ·

رسالة الرائي الى بول دميني المؤرخة في ١٥ ايار سنة١٨٧١

لقد صممت ان اعطيك ساعة درس في الادب الحديث· ابدأ رأسا بمزمور من وحي « الاحداث الراهنة (هنا يضمن رامبو الرسالة نص احدى قصائده : « نشيد حرب باريسي ») ·

– هو ذا نثر حول مستقبل الشعر : –

كل شعر قديم يفضي الى الشعر اليوناني ، حياة منسجمة · – من اليونان حتى الحركة الرومنطقية ، – عصر وسيط ، – يوجد متأدبون ، نظامون · من أنيوس الى ثيرولدوس ، من ثيرولدوس الى كاسيمير دلافيني ، كله نثر مقفى ، لعب ، ترهل ومجد ما لا حصر له من الاجيال الغبية : راسين هو النقي ، القوي ، العظيم · – لو نفخنا على قوافيه ، وخلطنا شطور ابياته ، لكان « الغبي الالهي » اليوم مجهولا كأي وافد جديد مؤلف « اصول » · – بعد راسين تعفنت اللعبة · لقد دامت الفي عام ·

لا دعابة ، ولا مفارقة ، العقل يوحي لي من اليقينيات حول هذا الموضوع اكثر من فورات الغضب التي كانت لتنتاب شابا فرنسيا من أوائل المتحمسين للرومنطقية · على كل حال المحدثون احرار في ان يحتقروا الاجداد : انهم في بيتهم ولديهم الوقت ·

الرومنطقية لم يحكم عليها قط كما يجب · من كان ليحكم عليها ؟ النقاد ! الرومنطقيون ؟ الذين يبرهنون جيدا ان الاغنية نادرا ما تكون نتاج المغني ، اي الفكرة المغناة والمفهومة منه ·

لان أنا هو شخص آخر · اذا النحاس استيقظ بوقا فان هذا ليس خطأه · هكذا أكيد بالنسبة لي : اني اشهد تفتح فكرتي : اراقبها ، اصغي اليها : اني ارسل ضربة قوس المعزوفة تتحرك في الاعماق ، او تأتي بقفزة واحدة الى خشبة المسرح ·

لولا ان الاغبياء العجائز لم يجدوا للانا سوى المعنى الخاطيء لما كان علينا ان نكنس هذه الملايين من الهياكل العظمية ، التي راكمت ، منذ زمن لا نهائي ، نتاجات نكائها الاعور ، مجاهرة انها مؤلفتها ·

في اليونان ، قلت ، الابيات والقيثارات تضبط ايقاع الفعل · بعد ذلك ، صارت الموسيقى والقوافي العابا ، تسليات · ان دراسة هذا الماضي تسحر الفضوليين : كثيرين منهم يتلذذون باحياء هذه الاثريات : — لهم وما يريدون · ان الذكاء الكوني قد رمى دائما افكاره بصورة طبيعية · كان البشر يلتقطون جزءا من ثمار الدماغ هذه: كانوا يتصرفون بوحي منها ، كانوا يؤلفون منها كتبا : هكذا كانت تمضي المسيرة ، بما ان الانسان لم يكن يصقل نفسه ، لم يكن قد استيقظ بعد ، او لم يعد بعد مستغرقا في

ملء الحلم الكبير · موظفون ، كتاب ، مؤلف ، خلاق ، شاعر ، هذا الرجل لم يوجد قط ! ···

ان اول دراسة للانسان الذي يريد ان يكون شاعرا هي معرفة ذاته كاملة ، انه يبحث عن روحه ، يرصدها ، يمتحنها ، يتعلمها · ما ان يعرفها حتى يتوجب عليه ان يربيها : هذا يبدو سهلا : ثمة نمو طبيعي يتم في كل دماغ، لكم من انانيين يعلنون انفسهم مؤلفين ، يوجد كثيرون غيرهم ينسبون الى ذاتهم الفضل في تقدمهم الفكرى ! ــ لكن ينبغي جعل الروح مريعة اسوة بأكلة لحوم البشر ، ماذا ! تصوروا رجلا يفرس ويربي ثآليل على وجهه ·

اقول انه يجب على المرء ان يكون رائيا ، ان يجعل من نفسه رائيا ·

الشاعر يجعل من نفسه رائيا بواسطة اختلال طويل ، هائل ومدروس لكل الحواس · كل اشكال الحب ، الشقاء ، الجنون ، انه يبحث بنفسه عن كل السموم ، ويستنفدها في داخله لكي لا يحتفظ منها سوى بالجوهر · عذاب لا يوصف حيث يحتاج الى كل الايمان ، كل القوة الفائقة للطبيعة الانسانية ، حيث يصبح بين الجميع المريض الكبير ، المجرم الكبير ، الملعون الكبير ــ والعارف الاعظم ! ــ اذ انه يصل الى المجهول ! بما انه قد ربى روحه ، الغنية اصلا ، اكثر من اي احد ! انه يصل الى المجهول ، وعندما ، طائش اللب ، ينتهي بأن يفقد الادراك لرؤاه فانه يكون قد رآها !

ليمت في وثبته عبر الاشياء التي لم يسمع بها والتي لا تسمى : سوف يأتي فعلة آخرون فظيعون ، سوف يبدأون من الآفاق التي هلك فيها الآخر !

ـ التتمة بعد ست دقائق ـ

هنا ادرج مزمورا ثانيا ، خارج النص : اعرني من فضلك اذنا كيسة ، ـ والجميع سيكونون مسحورين ـ القوس في يدي ، اني أبدأ : (قصيدة « عاشقاتي الصغيرات »)

هو ذاك . ولاحظ جيدا انه ، لولا خشيتي من ان اكلفك ستين سنتيما اجرة بريد ، ـ انا المعدم المسكين الذي لم امسك منذ سبعة اشهر بقطعة معدنية واحدة ! ـ لكنت سلمتك ايضا قصيدتي « عشاق باريس » ، مئة بيت ، سيدي ، وقصيدتي « موت باريس » مئتي بيت !

ـ اني استأنف :

اذن الشاعر هو بحق سارق نار .

انه مسؤول عن الانسانية ، عن الحيوانات حتى ، يجب ان يجعلنا نحس ، نلمس ، نسمع اختراعاته ، اذا كان ما يأتي به من هناك له شكل ، فهو يعطيه شكلا ، اذا كان بلا شكل ، فانه يقدمه بلا شكل . العثور على لغة ، ـ على كل حال بما ان كل عبارة هي فكرة ، فان عهد لغة عالمية

سيأتي ! يجب ان يكون المرء اكاديميا ، ـ اكثر موتا من هيكل عظمي ، ـ لينجز قاموسا ، بأي لغة كانت • ثمة اناس ضعاف قد يأخذون بالتفكير حول اول حرف من الابجدية ، مما قد يدفعهم سريعا نحو الجنون !

هذه اللغة ستكون من الروح الى الروح مختصرة كل شيء ، روائح ، اصواتا ، الوانا ، من الفكر تعلق الفكر وتسحبه • الشاعر سوف يحدد كمية المجهول المستيقظة ، في عصره ، في الروح الكونية : سوف يعطي اكثر ـ من معادلة فكرته ، من تأشيرة مسيرته نحو التقدم ! انه ، هائل القياس وقد غدا مقياسا ، مستغرقا في كل شيء ، سيصبح حقا مولدا للتقدم •

ان هذا المستقبل سيكون ماديا ، انك ترى ذلك ، ـ دائما مملوءة بالعدد والتوافق فان هذه القصائد ستكون مصنوعة لتبقى • ـ في الحقيقة سيكون هذا ايضا شيئا ما : الشعر اليوناني •

سيكون للفن الخالد وظائفه ، كما ان الشعراء هم مواطنون • الشعر لن يضبط الايقاع بعد ، بل سيكون الى الامام •

هؤلاء الشعراء سيكونون ! عندما سوف تتحطم عبودية المرأة اللانهائية ، عندما سوف تعيش من اجل نفسها وبفضل نفسها ، وقد اطلق الرجل ، الكريه حتى الآن سراحها ، فانها

ستصبح شاعرة هي ايضا ! المرأة ستعثر على المجهول ! هل ستكون دنياواتها الفكرية مختلفة عنا ؟ لسوف تعثـــر على أشياء غريبة ، لا يسبر لها غور ، منفرة ، لذيذة ، سنأخذها، سنفهمهـا ٠

بانتظار ذلك ، فلنطلب من الشعراء الجديد ـ افكارا واشكالا ٠ سرعان ما سوف يعتقد كل الحاذقين انهم قد لبوا هذا المطلب ٠ ـ ليس هذا هو المقصود !

لقد كان الرومنطقيون الاوائل رائيـــن دون ان يعوا ذلك جيدا ٠ ان ثقافة ارواحهم قد بــــدأت نفسهـــا في الطوارىء : قاطرات مهجورة ، لكن ملتهبـــة ، تأخذها خطوط السكة بعض الوقت ٠ ـ لامارتين هو راء احيانا ، لكنه مخنوق بالشكل القديم ٠ ـ هوغو ، عنيد للغايـــة ، يملك الكثير من الرؤيا في المجلدات الاخيرة : « البؤساء » هي قصيدة حقيقية ٠ عندي « اللعنات » تحت يـــدي ، « ستيلا » تعطي تقريبا مقياس رؤيا هوغو ٠ الكثيـــر من بيلمونته ، ومن لامنيه ، من يهوه والاعمـــدة ، ضخامات قديمة مغزورة ٠

موسيه هو مقيت اربع عشرة مرة بالنسبة لنـا نحن الاجيال المتألمة والمأخوذة بالرؤى ، ـ التي اهانها كسلــــه الملائكي ! اوه الحكايات والامثال السمجة ! اوه « الليالي »! اوه « رولا » ، او « نامونا » ، او « الكأس » ! كل شـــيء فرنسي ، يعني بغيض الى اقصى درجة ، فرنسي لا باريسي! نتاج آخر من صنع تلك العبقرية الشنيعة التي ألهمت رابليه ،

فولتير ، جان لافونتين مشروحا من قبل السيدتين ! ربيعي، فكر موسيه ! ساحر ، حبه ! هوذا رسم ذو طلاء خزفــي ، شعر متين ! سيتذوقون طويلا الشعر الفرنسي ، لـــكن في فرنسا • كل صبي سمان بمقدوره ان يطلق مفاجأة في اسلوب « رولا » ، كل طالب اكليريكي يحمل قوافيها الخمسمئة في حبايا دفتر• في سن الخامسة عشرتضع اندفاعات الهوى هذه الشبان في حالة تهيج جنسي ، في السادسة عشر يكتفــون بترديدها من اعماق القلب ، في الثامنة عشر ، في السابعــة عشـر حتى ، كل تلميذ يملك مؤهلات لذلك ، يصنع قصيدةمن نوع « رولا » يكتب قصيدة من نوع « رولا » ! وربمـــا كان البعض يموتون بسببها ايضا • موسيه لم يحسن فعل شيء ، كان هناك رؤى خلف غلالة الستائر : لقد اغلــق العينين • ذرنسي استعراضي ، مجرور مـــن الخمـارة الى طاولة المدرسة ، الميت الجميل مات ، ومن الآن فصاعـــدا دعونا لا نكلف انفسنا عناء ايقاظه باحقادنا •

الرومنطقيون اللاحقون راؤون جدا : تيوفيـــل غوتيه ، الكونت دي ليل ، تيودور دي بانفيل • لكن ، بما ان رصـد ما لا يرى وسماع ما لا يسمع هو شيء آخر غير اعـــادة تناول روح الاشياء الميتة ، فان بودلير هو الرائي الاول، ملك الشعراء ، اله حقيقي • الا انه عاش في وسط فنان جدا ، والشكل الذي امتدح عنده كثيرا هو مسكين • ان اختراعات المجهول تتطلب اشكالا جديدة •

ـ من الاشعار ـ

بوهيميتي Ma Bohème

كنت ارحل ، القبضتان في جيبتي المثقوبتين ،
سترتي ايضا كانت تصبح خيالية ،
كنت امضي تحت السماء ، يا ربة الشعر ! وكنت عبـدك الامين ،
آه ! ياه ياه ! كم بهيامات رائعة حلمت !

سروالي الوحيد كان به خرق واسع
ـ بوتيه ـ بوسيه حالم كنت افرط في جولتي
حبات قواف • حانتي كانت في الدب الاكبر •
ـ نجومي في السماء كان لها حفيف عذب •

وكنت اصغي اليها ، قاعدا على حافة دروب ،
في اماسي ايلول الطيبة تلك حيث كنت احس بقطرات
من الندى على جبيني ، كنبيذ نشاط ،

حيث كنت ، ناظما القوافي وسط ظلال مهولة ،
اسحب ، كالقيثارات •، سيور
حذائي المجروحين ، رجلا قرب قلبي !

والام ، غالقة كتاب الواجب ،
انصرفت راضية وجد فخورة ، دون ان ترى
في العينين الزرقاوين وتحت الجبين المليء بالنتوءات ،
روح ولدها خاضعــة للكراهيات ٠

كل النهار كان ينضح طاعة ، جد
ذكي ، مع ذلك بعض تشنجات الوجــه السوداء ، بعض
القسمات

كان يبدو انها تبرهن عن خباثات فظة فيه ٠
في عتمة الممرات ذات الابسطة العفنة ،
وهو يعبر كان يمد اللسان ، والقبضتان
على الحوض ، وفي عينيه المغمضتين كان يرى نقطا ٠
باب كان يفتح على المساء : بالمصباح
كانوا يرونه ، هناك في العــالي ، وهو يحشرج فوق
درابزون الدرج ،

تحت خليج من النهار متدل من السقف ٠ في الصيف
خاصة ، مقهورا ، غبيا ، كان يصر بعناد
على حبس نفسه في نداوة المرحاض :
كان يفكر هنا ، هادئا ومسلما منخاريه ٠
عندما كانت الجنينة ، خلف البيت ، وقد غسلتها
روائح النهار ، في الشتاء ، تنغمر بضوء القمر ،

فانه كان ، ممددا عند قدم الحائط ، مدفونا في التـراب الاصفر ،
ومن اجل رؤى ساحقا عينه المبهورة ،
يسمع العرائش تعج ٠
يا للشفقة ! هؤلاء الاولاد وحدهم كانوا عشراءه
الذين كانوا ، عجافا ، جبهات عادية ، عينا تبهت علـــى الوجنة ،
مخبئين اصابع ناحلة صفراء وسوداء من الوحل
تحت ثياب تفح منها رائحة الاسهال وبالية كلية ،
يتحدثون بنعومة البلهاء !
واذا ما كانت امه ، وقد فاجأته آخذا في هذه الشفقات الدنسة ،
ترتعب ، فان حنانات الولد العميقة
كانت ترتمي على هذا الاندهاش ٠
كان هذا حسن ٠ كانت تحصل على النظرة الزرقاء التي تكذب !

في السابعة ، عمل قصصا ، عن حياة
الصحراء الكبرى ، حيث تتوهج الحرية المسحورة ،
غابات ، شموس ، ضفاف ، مغاوز ! ـ كان يستعيـــن
بالجرائد المصورة ، حيث كان ينظر محمرا
الى اسبانيات يضحكن وايطاليات ٠
عندما كانت تأتي ، العين سمراء ، مجنونة ، في فساتين
قطنية مشجرة ،

ـ ثماني سنوات ، ـ ابنة العمال المجاورين ،
الصغيرة المتوحشة ، وتقفز ،
في زاوية ، على ظهره ، مهزهزة ضفائرها ،
وهو تحتها ، فانه كان يعض لها فخذيها ،
لانها لم تكن قط ترتدي سراويل ،
ـ وكـــان يحمل ، وقد اصابته برضوض بقبضتيهـــا
واعقاب قدميها ، نكهات جلدتها الى غرفته ٠

كان يخشى آحاد كانون الاول الشاحبة ،
حين كان ، مصقول الشعر ، على اسكملة من الاكاجو ،
يقرأ كتابا مقدسا لون حافته اخضر ملفوفي ،
ثمة احلام كانت تضايقه كل ليلة في مخدعه ٠
لم يكن يحب الله ، بل الرجال ، الذين كان يراهم ، عند المساء الوحشي ،
سودا ، ببزة العمل ، يأوبون في الضاحية
حيث يجعل الدلالون ، بثلاث قرعات طبل ،
الجماهير تضحك وتزمجر بصدد المراسيم ٠

ـ كان يحلم بالمرجة العاشقة ، حيث ثمة تموجات
مشعة ، عطور معافاة ، زغابات ذهبية ،
تعمل تحركها الهادىء وتأخذ انطلاقها !

وبما انه كان يتذوق خاصة الاشياء القاتمة ،

فانه كان ، وهو في الغرفة العارية ذات مغاليق الشبابيك
المطبقة ، العالية والزرقاء ، الرازحة تحت وطأة رطوبة لاذعة،
يقرأ روايته التي ما انفك يتأملها ،
مليئا بسماوات ثقيلة مغراء واحراج غريقة ،
بزهور من لحم منتشرة في الغابات الكوكبية ،
دوار ، انهيارات ، هزائم وشفقة !
ـ بينما كانت تتكون ضوضاء الحي ،
تحت ، ـ وحيدا ، ومضطجعا فوق قطع من قماش
خام ، ومستشعرا الشراع بعنف !

(٣٥) يدا جان ـ ماري Les Mains de Jeanne - Marie

لجان ـ ماري يدان قويتان ،
يدان قاتمتان دبغهما الصيف ،
يدان شاحبتان كأيد ميتة ٠
ـ أهاتان يدا جوانا ؟

هل تناولتا مراهم التجميل السمراء
عن مستنقعات الشهوات ؟
هل انغمستا في اقمار
عند غدران السكينات ؟

هل شربتا من سماوات وحشية ،
هادئتين فوق الركب الساحرة ؟
هل لفتا السجائر
او تاجرتا بالماس ؟

عند اقدام صور العذراء الملتهبة
هل اذبلتا الورود الذهبية ؟
انه دم الحسان الاسود
الذي ينفجر في راحتيهما وينام ٠

يدان تصطادان الهوام
الذي يطن في زرقة
الفجر ، نحو غدد الرحيق ؟

يدان تسكبان السموم ؟

آه ! أي حلم استولى عليهما
في التمطيات ؟
حلم لم تسمع به آسيا
ولا المدن الفارسية او المشرقية ؟

ـ هاتان اليدان لم تبيعا البرتقال ،
ولا اسمرتا عند اقدام الآلهة ،
هاتان اليدان لم تغسلا اقمطة
اطفال صغار ثقال بلا عيون ٠

هاتان ليستا يدي ابنة عمة
او عاملات ذوات جباه غليظة
تحرقهما ، باحطاب تفح منها رائحة المصنع ،
شمس سكرى بالقطران ٠

انهما قاصمتا ظهور ،
يدان لا تعملان السوء ابدا ،
أكثر حتمية من الآلات ،
أقوى من حصان كامل !

متأججا كالاتون ،
ومهزهزا كل رعشاته ،

فان لحمهما ينشد المارسيليز
وليس أبدا الصلوات !

انهما ستشدان على اعناقكن ، ايتها النساء
الشريرات ، انهما ستسحقان ايديكن
ايتها السيدات الراقيات ، ايديكن الرجسة
الزاخرة بالالوان البيضاء القرمزية .

ان وهج هاتين اليدين العاشقتين
يدير جمجمة الخراف !
في عظيماتها اللذيذة
تضع الشمس الكبيرة ياقوتة حمراء !

لطحة شعبية
لوحتهما كنهد قديم ،
ان ظاهر هاتين اليدين هو المكان
الذي قبله كل ثوري أبي !

لقد شحبتا ، رائعتين ،
تحت الشمس العظيمة المثقلة بالحب ،
على برونز الرشاشات
عبر باريس الثائرة !

آه ! احيانا ، أيتها اليدان المقدستان
في قبضتكما ، ايتها اليدان اللتان ترتعش فوقهما

شفاهنا التي لا يزول سكرها قط ،
تصرخ سلسلة صافية الحلقات !

وانها لانتفاضة غريبة
في كياناتنا ، عندما ، احيانا ،
يريدون تبييضكما ، يا يدي ملاك ،
بأن يجعلوا أصابعكما تقطر دما !

(٤٥) اي شيء بالنسبة لنا ، يا قلبي

Qu'est - ce pour nous , mon Coeur

اي شيء هي بالنسبة لنا ، يا قلبي ، برك النجيع
والجمر ، وألف اغتيال ، وصرخات الغضب الطويلة ،
انتحابات من كل جحيم قالبة
كل نظام ، وريح الشمال بعد فوق الانقاض ،

وكل ثأر ؟ لا شيء ... لكن بلى ، لا نزال
نريده كله ! أيها الصناعيون ، والامراء ، والاعيان :
اضمحلوا ! أيتها القوة ، والعدالة ، والتاريخ : اسقطي!
هذا حقنا . الدم! الدم! شعلة الذهب!

كل شيء للحرب ، للثأر ، للرعب ،
يا فكري ، فلندر في الهجوم العنيف : آه ! امضي
يا جمهوريات هذا العالم ! كفانا اباطرة ،
وقيالق ومستعمرين ، وشعوبا !

من سيحرك زوابع النار الغاضبة
ان لم يكن نحن اولئك الذين نتصورهم اخوانا لنا ؟
هذا سيطيب لنا نحن الرفاق الخياليين ،
لن نعمل قط ، آه يا أمواج النار !

يا اوروبا وآسيا ، واميركا ، اختفي .

ان مسيرتنا الانتقامية قد احتلت كل شيء
مدننا وارياقنا ! ـ لسوف نسحق !
لسوف تنفجر البراكين ! ولسوف يضرب الاوقيانوس ...

آه يا رفاقي ! ـ يا قلبي ، اكيد ، انهم اخوان :
ايها السود المجهولون ، لو اننا نذهب ! فلنذهب ! فلنذهب!
يا للشقاء ! أشعر اني ارتجف ، الارض القديمة ،
الارض تتهاوى علي انا النذر نفسي اكثر فاكثر لكم !

هذا لا شيء ! اني عليها ! اني عليها دائما .

(٥٠) ـ حروف علة Voyelles

A اسود ، E ابيض ، I احمر ، U اخضر ، O ازرق:
يا حروف العلة ،
سأقول ذات يوم ولاداتك الكامنة :
A مشد اسود اشعر للذبابات الساطعة
التي تطن حول النتانات الفظة ،

خلجان ظل ، E نصاعات الابخرة والخيام ،
رماح المثالج الفخورة ، ملوك بيض ، قشعريرات اكاليل زهر ،
I ، انسجة ارجوانية ، دم مبصوق ، ضحك الشفاه الجميلة
في الغضب او السكرات الشائبة ،

U ، دورات ، ارتجاجات الهية للبحار الخضراء
سلام المراعي المزروعة بحيوانات ، سلام الغضون
التي تطبعها السيمياء على الجباه الواسعة المجتهدة ،

O ، بوق علوي مليء بالصريرات الغريبة ،
سكوتات محزوقة للعوالم والملائكة :
ـــ O الاوميغا ، شعاع عينيه البنفسجي !

★★★

النغمة بكت بلون زهري في قلب اذنيك ،
اللانهاية تدحرجت بلون ابيض من عنقك حتى حقويك ،
البحر رضع بلون اصهب اثداءك القرمزية
، والرجال نزف بلون اسود في حضنك السني .

(٧) ما يقال للشاعر بصدد الزهور
Ce qu'on dit au poète à propos des Fleurs

. .   . .

هكذا ، دائما ، نحو اللازورد الاسود
حيث يرتعش بحر الزبرجد ،
ستؤدي الزنابق ،
تلك الحقن من النشوة ، عملها في مسائك !

في عصرنا ، عصر دقيق النخل ،
حيث الاعشاب هي شغالة ،
فان الزنبقة ستشرب القرف الازرق
في نثرك الديني !

ـ زنبقة السيد كردريل ،
قصيدة عام الف وثمانمئة وثلاثين ،
الزنبقة التي يعطونها للشاعر الموسيقي
مع القرنفلة والقطيفة !

زنابق : زنابق ! اننا لا نرى منها !
وفي شعرك ، كأكمام

الخاطئات ذوات الخطى الناعمة ،
ترتعش دائما هذه الزهور البيضاء !

دائما ، يا عزيزي ، عندما تأخذ حماما ،
فان قميصك ذا الابطين الاشقرين
ينتفخ بنسائم الصباح
فوق زهور آذان الفأر الدنسة !

الحب لا ينقل الى عطاءاتك
الا زهور الليلك ، ــ يا للاراجيح !
وبنفسجات الغابة ،
بصقات اليرقانات السوداء المحلاة بالسكر !...

٢

ايها الشعراء ، عندما قد تملكون
الورود ، الورود المبهورة ،
حمراء فوق جذوع اشجار الغار ،
ومنتفخة بالف بيت شعر ثماني المقاطع !

عندما قد يجعلها بانفيل تهمي كالثلج ،
مدماة ، مدومة ،
مورمة عين الغريب المجنونة
اثناء القراءات اللامتسامحة !

فان نباتات غاباتكم ومروجكم
ايها المصورون الهادئون جدا
هي متنوعة تقريبا
مثل سدادات الدوارق !

دائما النباتات الفرنسية
الشكسة ، المسلولة ، المضحكة ،
حيث يسبح بطن كلاب الصيد ، ذات القوائم
القصيرة والمعوجة ، بسلام ، عند الغسق ،

دائما ، بعد رسوم شنيعة
لزهور اللوتس الازرق او عباد الشمس ،
وشمات زهرية ، مواضيع مقدسة
بالنسبة لمتناولات اول قربانة يافعات !

فان قصيدة شجرة الهند الغنائية تتأطر مع
المقطع الشعري المزدان بالزهور كشباك غانية ماجنة ،
وفراشات ثقيلة باهرة
تروث على زهرة الربيع .

ايتها الاخضرارات القديمة ، ايتها الشرائط العتيقة !
اه ايتها الحلويات النباتية !
يا ورودا عجيبة للصالونات القديمة !
ـ برسم الخنافس ، لا الافاعي ،

أطفال البنات الباكون اولئك
الذين كان غرانفيل ليضعهم تحت الوصاية ،
والذين ارضعتهم اصباغا
كواكب شريرة تعتمر الخوذات !

نعم ان نشات قضبانكم المدبقة
تعمل نفائس من سكر العنب !
ـ كومة من البيض المقلي في قبعات عتيقة ،
زنابق ، اشجار هند ، ليلك وورودا !...

٣

آه أيها الصياد الابيض ، الذي يركض بدون جوارب
عبر المرعى الهلع ،
الا تستطيع ، الا يتوجب عليك ،
ان تعرف قليلا امثولتك في علم النبات ؟

ستجعل الجداجد الصهباء ،
فيما اخشى ، تعقب الذراريح ،
ذهب الريو يعقب زرقة الراين ،
بالاختصار ، النروج تعقب فلوريدا :

لكن ، يا عزيزي ، لم يعد ديدن الفن ، الإن ،
ـ هذه هي الحقيقة ، ـ ان يسوغ

لشجرة الاوكاليتوس المدهشة
ثعابين بيت شعر سداسي المقاطع ،

على رسلك !... كما لو ان اشجار الاكاجو
لم تكن تصلح ، حتى في مستعمراتنا ،
الا لسيول القرود الطويلة الذيل ،
ولهذيان النباتات المعرشة الثقيل !

اجمالا ، هل تساوي زهرة ، سواء
اكانت اكليل جبل او زنبقة ، حية او ميتة ،
غائط عصفور بحري ؟
هل تساوي دمعة مخاط واحدة ؟

ولقد قلت ما كنت اريده !
انت ، حتى جالسا هناك ، في
كوخ من الخيزران ، ـ مغاليق شبابيكه
مطبقة ، سجفة فارسية سمراء ، ـ

فانك قد تضع على عجلة ازهرارات
جديرة بانهار خارقة ! ...
ـ ايها الشاعر ! هذه حجج
مضحكة بقدر ما هي متغطرسة !...

٤

قل ، لا السهول الربيعية

السوداء ، من ثورات رهيبة ،
ولكن التبغ ، اشجار القطن !
قل الغلال الغريبة !

قل ، ايها الجبين الابيض الذي دبغه ابولون ،
بكم من الدولارات يقدر ايراد
بيدرو فلاسكنر ، هابانا ،
احتقر بحر سورانت

حيث يذهب المبجع بالالوف ،
فلتكن مقاطعك الشعرية اعلانات
عن ركام الاشجار المنقصية المقطوعة
المنخورة بالافاعي والنصال !

ان رباعيتك تغوص في الغابات الدامية
وتعود لتعرض على الرجال
مختلف المواضيع حول
السكاكر البيضاء والصموغ !

فلنعرف بواسطتك اذا كانت اشقرارات
القمم المغطاة بالثلج ، صوب المدارات ،
هي اما حشرات بيوضة
اما حزازات مجهرية !

اعثر ، ايها الصياد ، اننا نريد ذلك ،
على بعض عروق الصباغة الحمراء المعطرة
التي تجعلها الطبيعة المتزيية بالسراويل
تفرخ ! ــ من اجل جيوشنا !

اعثر ، في ضواحي الغابة التي تنام ،
على الزهور ، الشبيهة بخطم ،
يسيل منه لعاب ذهب
فوق شعر الجواميس القاتم !

اعثر ، في المروج المجنونة ، حيث ترتعش
فضة الزغابات فوق الزرقة ،
على كؤوس مليئة ببيضات من نار
تنضج بين الاشجار !

اعثر على اشواك زغبة
تشتغل في غزال عقدها
عشرة حمير بعيون متقدة !
اعثر على زهور تكون كراسي !

نعم ، اعثر في قلب المناجم السوداء
على زهور هي تقريبا احجار ، ــ باهرة ! ــ
يكون لها صوب مبايضها الشقراء الصلبة
غدد تفرز الجواهر الكريمة !

قدم لنا ، ايها المهرج ، انك تستطيع ذلك ،
على طبق رائع من الفضة المذهبة
توابل زنابق مشربة بالسكر
تعض على ملاعقنا من الفضة الاصطناعية .

٥

احد ما سيقول الحب ،
سارق الرأفات القاتمة :
لكن لا رينان ، ولا مرة هوفمان
رأيا صولجانات باخوس الزرقاء الهائلة !

انت ، دع العطور وصرعات الجنون
تعزف في خموداتنا ،
حمسنا نحو طهارات
اكثر براءة من المريمات ...

تاجر ! مستوطن ! وسيط !
فان قافيتك ستنبجس ، وردية او بيضاء ،
كشعاع من الصوديوم ،
كمطاط يفضي بتكنونه !

من قصائدك السوداء ، ــ ايها المشعوذ !
انكساريات نور بيضاء ، خضراء ، وحمراء ،

فلتفلت ورود غريبة
وفراشات كهربائية !

هو ذاك ! انه عصر الجحيم !
واعمدة التلغراف
ستزين ، ـ قيثارة ذات اناشيد من حديد ،
عظمات كتفك الرائعة !

وبالاخص ، انظم حكاية
حول مرض البطاطا !
ـ ومن اجل تأليف
قصائد مليئة بالسر

على المرء ان يقرأها من تريفييه
الى باراماريبو ، اشتر من جديد
مجلدات من تأليف السيد فيقييه ،
ـ مزدانة بالصور ! ـ عند السيد هاشيت !

(٨) المركب السكران Le Bateau Ivre

فيما كنت انحدر انهارا عديمة الحس ،
لم اعد اشعر ان ساحبي المركب يرشدونني :
هنود حمر صياحون اتخذوهم دريئة
اذ سمروهم عراة على اعمدة الالوان ٠

كنت مستهترا بجميع طواقم الملاحة ،
حاملا قمحة فلمنكية واقطانا انجليزية ٠
عندما انتهت مع ساحبي مركبي تلك القرقعات ،
تركتني الانهار انحدر حيثما اريد ٠

في تلاطمات المد والجزر الغاضبة
انا ، الشتاء الماضي ، اكثر صمما من ادمغة الاطفال ،
ركضت ٠ واشباه ــ الجزر المقلعة
لم تعان ما هو اعظم انتصارا من سوراتي الفوضوية ٠

العاصفة باركت يقظاتي البحرية ٠
اخف من فلينة رقصت فوق الامواج
التي يسمونها مدحرجات الضحايا الابدية ،
عشر ليال دون ان اسف على عين الفوانيس البلهاء !

كاعذب من لحم التفاح الحامض للاولاد ،
نفذ الماء الاخضر في هيكلي الصنوبري
وبقع من خمور زرقاء وقيوءات
غسلتني ، مفرقة دفة ومرساة ٠

ومنذ ذلك الحين ، استحممت في قصيدة
البحر ، المنقوعة بالكواكب ،والحليبية ،
مفترسة اللازوردات الخضراء ، حيث ، طفاوة شاحبة
ومفتونة ، ينحدر احيانا غريق مفكر ،

حيث ، صابغة فجأة الالوان الزرقاء ، هذيانات
وايقاعات بطيئة تحت احمرارات النهار ،
اقوى من الكحول ، اوسع من قيثاراتنا
تتخمر اشقرارات الحب المرة !

اعرف السماوات المتفجرة بالبروق ، والاعاصير
وارتدادات الموج والتيارات : اعرف المساء ،
الفجر المتهلل حماسا كشعب من الحمام
ورأيت احيانا ما ظن الانسان انه رآه !

رأيت الشمس واطئة ، مشوبة بأهوال صوفية ،
مشعلة تخثرات طويلة بنفسجية ،
شبيهة بممثلي مآس جد قديمة
الامواج وهي تدحرج في البعيد قشعريراتها النوافذية !

حلمت بالليلة الخضراء ذات الثلوج المبهورة ،
قبلة صاعدة الى عيون البحار ببطء ،
بدورة النسوغ اللامسموعة ،
وباليقظة الصفراء والزرقاء للفوسفورات المغنية !

تبعث ، شهورا بطولها ، وكأنه زرائب بقر
هستيرية ، تموج الماء الهاجم على الصخور،
دون ان يعن ببالي ان ارجل المريمات المنورة
تستطيع ان تقهر خطم الاقيانوسات الضيقة النفس !

صدمت ، هل تعلمون ، فلوريدات غير معقولة
تمزج بين الزهور وبين عيون فهود لها جلود
رجال ! بين اقواس قزح مشدودة كأرسنة
تحت افق البحار ، وبين قطعان خضراء !

رأيت المستنقعات الضخمة تتخمر ، شبكات
يتعفن بين قضبانها الخيزرانية تنين كامل !
انهيارات مياه وسط هدآت البحر •
والابعاد النازلة شلالات على الاغوار !

اكوام جليد، شموس فضة، امواج صدفية، سماوات من جمر!
جنوحات بشعة في جوف الخلجان السمراء
حيث الثعابين العملاقة وقد افترسها البق
تتدلى ، من الاشجار الملوية ، بعطور سوداء !

كنت اود ان أري الاولاد اسماك مرجان
الموج الازرق هذه ، هذه الاسماك الذهبية ، هذه الاسماك المغنية ،
ـ أزباد من الورد هدهدت تأرجحاتي
ورياح فائقة الوصف جنحتني في بعض اللحظات ٠

احيانا ، شهيد ارهقته الاقطاب والمناطق ،
كان البحر الذي يشكل نحيبه ترنحي العذب
يطلع نحوي وروده الظلالية ذات المحاجم الصفراء
وكنت ابقى ، كما امرأة راكعة ٠

جزيرة تقريبا ، مهزهزا على متني المشاجرات
وذرقات العصافير النباحة ذات العيون الشقراء ٠
وكنت امخر العباب ، عندما من خلال روابطي الهشة
انحدر غرقى ينامون ، القهقهرى !

اذ انا ، مركب تائه تحت شعرات الاجوان ،
وقد قذفني اعصار في الاثير بلا « عصفور » ،
أنا الذي لا المدرعات ولا مراكب « الهانس » الشراعية
كانت لتقوى على انتشال حطامي السكران بالماء ٠

حر ، مدخن ، وقد علتني ابخرة بنفسجية ،
انا الذي كنت اثقب السماء المحمومرة كالحائط
الذي يحمل ، مربى لذيذا للشعراء الطيبين ،

حزازات شمس وسقاوات لازورد ،

الذي كنت اركض ، مبقعا بأهلة كهربائية ،
خشبة مجنونة ، تواكبني احصنة البحر السوداء،
حين كانت شهور تموز تهدم بضربيات الهراوات ٠
سماوات ما فوق البحار ذات القموع الملتهبة ٠

انا الذي كنت ارتجف ، اذ احس عن خمسين فرسخا بتأوه
نزو الثنائن والاعاصير الجامحة ،
جواب ابدي للسكونات الزرقاء ،
ناني آسف على اوروبا ذات الافاريز القديمة !

رأيت ارخبيلات كوكبية ! وجزائر
سماواتها الهاذية مفتوحة للهائم :
ــ افي هذه الليالي التي لا قرار لها تنامين وتنعزلين ،
ايتها الملايين من العصافير الذهبية، ايتها القوة المستقبلة ؟

لكن ، حقا ، لقد بكيت كثيرا ! الصباحات مثيرة للحنق ٠
كل قمر مريع وكل شمس مرة :
الحب الحامض نفخني بخمودات مسكرة ٠
آه فلتنفجر عارضتي ! آه فلأذهب في البحر !

اذ كنت اشتهي ماء من اوروبا ، فهي المستنقع
الاسود والبارد حيث قرابة الغسق المضمخ

يرضي ولد مقرفص مليء بالاحزان
مركبا هشا كفراشة ايار ٠

لم اعد استطيع ، مستحما في سآماتك ، يا امواج ،
ان انزع من حملة الاقطان مخورهم ،
ولا ان اعبر كبرياء البيارق وشعلات النار ،
ولا ان اسبح تحت اعين مراكب الاسرى المرعبة ٠

(٩) الابديـــة L'Eternité

انها مستعادة
ماذا ؟ الابدية
انها البحر المتوافق
مع الشمس ٠

ايتها الروح المترصدة
فلنوشوش الاعتراف
عن الليل الباطل جدا
والنهــار الملتهب ٠

من الآراء البشرية
والحماسات الشائعة
هنا تنعتقين
وتطيرين على هــواك ٠

هنا لا امــل
ولا شروق
علم مع صبر
العذاب اكيــد

انها مستعادة
ماذا ؟ ــ الابديــة
انها البحر المتوافــق
مع الشمس ٠

من « فصل في الجحيم »

(١)

غابرا ، ان كنت اذكر جيدا ، كانت حياتي وليمة حيث تنفتح كل القلوب ، حيث تتدفق كل الخمور ·

ذات مساء ، اقعدت الجمال على ركبي · ــ ووجدتـــــه مرا · ــ وشتمته ·

تسلحت ضد العدالة ·

هربت · ايتها السواحر ، ايها البؤس ، ايها الحقد ، اياكم استودعت كنزي !

توصلت الى ان الاشي في فكري كل الامل البشري · على كل سعادة كي اخنقها قمت بوثبة الوحش المفترس الصماء ·

استدعيت الجلادين كي اعض ، وانا اهلك ، اعقـاب بنادقهم ·

استدعيت البلايا ، كي تخنقني بالرمل ، الدم · الشقاء كان ربي · تمددت في الوحل · تنشقت في هواء الجريمة ·وقمت بحيل خبيثة مع الجنون ·

والربيع حمل الي ضحكة الابله الشنيعة ·

مؤخرا ، وقد وجدت نفسي ، والحالة هذه ، على شفا ان ألفظ آخر شهقة ! فكرت بالبحث من جديد عن مفتاح الوليمة القديمة ، حيث كنت لاستعيد ربما شهية ·

المحبة هي هذا المفتاح · ــ هذا الالهام يبرهن انـــــي حلمت ·

« ستبقى ضبعا ، الخ ·· » صرخ من جديد الشيطان الذي توجني بخشخاشات لطيفة جدا · « ابلغ الموت مع كل شهياتك ، وانانيتك وكل الخطايا المميتة» ·

آه ! اخذت من ذلك كثيرا : ــ لكن ، عزيـــزي ابليس ، استلحفك بؤبؤ عين اقل سخطا ! وبانتظار البعض من النذالات القديمة المتأخرة ، انت الذي تحب في الكاتب غياب المواهـــب الوصفية او التعليمية ، فاني اقتطع لك هذا البعض مـــــن الوريقات الشائنة من مفكرتي كهالك ·

(٢) دم فاسد Mauvais Sang.

ولقد ورثت عن اجدادي الغاليين العين الزرقاء الفاتحة، الدماغ الضيق ، وقلة المهارة في القتال · اني اجد ملبوســي مثلهــم همجية · لكني لا ادهن شعري بالزبدة ·

كان الغاليون سالخي وحوش ، حــارقي اعشاب من احمق ما ، اطلعه عصرهم · منهم ، املك : عبادة الاوثان وحب تدنيس المقدسات ــ آه ! كل العيوب ، غضب ، فحش ، ــ عظيم، الفحش ، ــ خاصة كذب وكسل ·

اكره كل المهن · معلمون وعمال ، كل الفلاحين ، ادنياء · اليد ذات الريشة تساوي اليد ذات المحراث ـ يا له من عصر للايدي ! ـ لن املك يدي قط · وبعد ، فان الاستخدام يقود بعيدا جدا · ان شرف الشحاذة يحنقني · المجرمون يثيرون الاشمئزاز مثل الاخصياء : انا ، بكر ، والامر عندي سيان ·

لكن ! من جعل لساني خؤونا لدرجة ، انه ارشد وصان حتى الان كسلي ؟ · دون ان استخدم كي اعتاش حتى جسدي ، واكثر بطالة من الضفدع ، عشت في كل مكان · لا يوجد عائلة في اوروبا لا اعرفها · ـ اعني عائلات كعائلتي ، تدين بكل شيء للاعلان عن حقوق الانسان · ـ لقد عرفت كل ابن عائلة !

★★★

هأنذا على الشاطيء الارموريكي · فلتشتعل المدن في المساء · ان يومي قد بلغ تمامه ، اني اغادر اوروبا · الهواء البحري سيحرق رئتي ، المناخات الضائعة ستلفحني · السباحة سحق العشب ، الصيد ، التدخين خاصة ، احتساء كحول قوية كمعدن يغلي ـ كما كان يفعل اولئك الاجداد الاعزاء حول النيران ·

سأعود ، باعضاء من حديد ، البشرة قاتمة ، العين هائجة « سيحكمون علي من قناعي ، بأني من جنس قوي · سيكون معي ذهب : سأكون بطالا وعنيفا · النساء يعتنين بهؤلاء العجزة المتوحشين العائدين من البلاد الحارة · سأكون متدخلا في الشؤون السياسية · خالصا ·

الان أنا ملعون ، امقت الوطن ، ان افضل شيء ، هو رقاد جد سكران . على الساحل الرملي ·

★★★

وانا طفل بعد ، كنت أعجب بالمحكوم بالاشغال الشاقة الشرس الذي يغلق عليه السجن من جديد ، كنت ازور الحانات والدور التي قد يكون قدسها باقامته ، كنت ارى بفكره السماء الزرقاء وعمل الريف المزهر ، كنت اشم لعنته في المدن · لقد كان يملك من القوة اكثر من قديس ، ومن الحس السليم اكثر من مسافر ــ وهو ، هو وحده ! كشاهد على عظمته وعقله ·

على الدروب ، في ليالي الشتاء ، دون مــأوى ، دون ملبس ، دون خبز ، ثمة صوت كان يعتصر قلبي المتجمـد : « ضعف او قوة : هأنتذا ، انها القوة · انك لا تعلم الى اين انت ذاهب ولا لماذا انت ذاهب ، ادخل الى كل مكان ، جـاوب على كل شيء · لن نقتلك اكثر مما لو كنت جثة » · في الصباح كانت نظرتي ضائعة وهيئتي ميتة لدرجة ان الذين صادفوني ربما لم يرونـي ·

في المدن كان الوحل يتراءى لي فجأة احمـر واسود ، كمرآة عندما يتجول المصباح في الغرفة المجاورة ، ككنز فـي الغابة ! حظ حسن ، كنت اهتف ، وكنت ارى بحرا من اللهب والدخان في السماء ، والى اليسار ، الى اليمين ، كل الثروات مشتعلة كمليار من الصواعـق ·

لكن التهتك وصحبة النساء كانت محظورة علـي · ولا

رفيق حتى • كنت ارى نفسي امام جمهور غاضب ، في مواجهة فصيلة تنفيذ الاعدام ، باكيا من الالم الذي ما كان بمقدورهم ان يفهموه ، ومسامحا اياهم ! ـ كجان دارك ! ـ « ايها الكهنة ، والاساتذة ، والمعلمون ، انكم تخطئـون بتسليمكم اياي الى العدالة • لم اكن قط من هذا الشعب ، لم اكن قط مسيحيا، اني من الجنس الذي كان يغني في العذاب ، اني لا افهم القوانين ، اني لا املك الحس الخلقي ، اني وحش : انكم مخطئون ••»•

نعم ، ان عيوني مغلقة دون نوركم • اني حيوان ، انـي زنجي • لكني استطيع الحصول على الخلاص • انتم عبيـد مزيفون ، انتم المسوسون ، الاشرار ، البخلاء • ايها التاجر ، انت عبد ، ايها القاضي ، انت عبد ، ايها القائد انت عبد ، ايها الامبراطور ، يا اكالا هرما ، انت عبد : لقد شربت من كحول غير مسعرة ، من معمل ابليس • ـ ان هذا الشعب يستمـد وحيه من الحمى والسرطان • العجزة والشيوخ هم محترمون لدرجة انه يلزمهم غليا على النار • ـ ان اذكى عمل هو مغادرة هذه القارة ، حيث يرود الجنون ليزود هـؤلاء البؤسـاء بالرهائن • اني ادخل الى مملكة اولاد حام الحقيقية •

هل اعرف الطبيعة بعد ؟ هل اعرف نفسي ؟ ـ لا كلمات بعد • اني أواري الموتى في احشائي• صيحات ، طبل، رقص، رقص ، رقص ، رقص ! اني لا ارى حتى الساعة ، التي وقـد حط معها البيض الرحال ، سأسقط في العدم •

جوع ، عطش ، صيحات ، رقص ، رقص ، رقص ،رقص!

★★★

(٣) سيمياء الكلمة Alehimie de Verbe

الي · قصة احد جنوناتي ·

منذ امد بعيد كنت اتباهى بانني املك كل المناظر الممكنة، وكنت اجد مشاهير فن الرسم والشعر الحديث مضحكين ·

كنت احب التصاوير الغبية ، تيجان ابواب ، زينات ، لوحات بهلوانيين ، لافتات ، زخارف شعبية ، الادب البالي ، لاتينية كنيسة ، كتبا جنسية بلا املاء ، روايات جداتنا ، حكايا جنيات ، كتيبات الطفولة ، اوبرات قديمة ، لازمات سخيفة ، ايقاعات ساذجة · ·

كنت احلم بحملات صليبية ، رحلات استكشاف لا نملك عنها اخبارا ، جمهوريات لا تواريخ لها ، حروب دين خامدة ، ثورات اخلاق، تنقلات اجناس وقارات: كنت اؤمن بكل الفنون·
اخترعت لون حروف العلة ! ـ A اسود ، E ابيض ، I احمر ، O ازرق ، U اخضر ـ ضبطت شكل وحركة كل حرف صامت ، وبايقاعات غريزية كنت اغبط نفسي على اختراع كلمة شعرية تكون ، في يوم او آخر ، في متناول جميع الحواس · احتفظت بحقوق الترجمة ·

هذا كان في البدء دراسة · كنت اكتب سكوتات، ليالي، كنت ادون ما لا يعبر عنه · كنت اسمر دوارات ·

★ ★ ★

- المعتق الشعري كان له نصيب وافر في سيميائي للكلمة ·

اعتدت على الهلوسة البحتة : كنت ارى بكل صراحة مسجدا مكان معمل ، مدرسة طبول صنعها ملائكة ، عربات على دروب السماء ، غرفة استقبال في جوف بحيرة ، المسوخ، الاسرار ، عنوان مسرحية هزلية كان يقيم اهوالا امامي ·

ثم رحت اشرح سفسطاتي السحرية بواسطة هلوسة الكلمات ·

انتهيت بان وجدت فوضى فكري مقدسة · كنت بطالا ، فريسة حمى ثقيلة : كنت احسد هناءة البهائم ، ـ الاساريع ، التي تمثل براءة حفافي الكواكب ، الاخلاد ، غفوة البكارة ·

صار طبعي يخشن· رحت اقول الوداع للعالم في اشباه اغان عاطفية ·

***

كنت احب الصحراء ، البساتين المحروقة ، الحوانيت الذابلة ، الكحول الفاترة · كنت انسحب في الازقة المنتنة ، واهب نفسي ، مغمض العينين ، للشمس ، الهة النار ·

« ايها القائد ، ان كان قد بقي مدفع عتيق على متاريسك المدمرة ، اقصفنا بكتل ارض يابسة · في مرايا المخازن الرائعة! في غرف الاستقبال ! اجعل المدينة تأكل غبارها · اغمر المزاريب بالصدأ · املأ المخادع بمسحوق ياقوت ملتهب ···»

آه ! الذبابة السكرانة في مبولة الحانة ، عاشقة عشبة الحمحمم المعرقة ، والتي يذيبها شعاع !

★★★

واخيرا ، يا للسعادة ، يا للعقل ، ابعدت عن السماء اللازورد ، الذي هو سواد ، وعشت ، شرارة ذهب من الضوء « طبيعة » ٠ من فرح ، كنت اتخذ تعبيرا بهلوليا وتائها الى اقصى حد ٠

★★★

صرت اوبرا خرافية : رأيت ان كل الكائنات تملك قدرا من السعادة : الفعل ليس هو الحياة ، لكنه وسيلة لافساد قوة ما، تهييج اعصاب ٠ علم الاخلاق هو اعياء الدماغ ٠ كان يبدو لي ان لكل كائن عدة حيوات اخرى ٠ هذا السيد لا يعرف ما يفعله : انه ملاك ٠ هذه العائلة هي افراخ كلاب ٠ امام عدة رجال ، كنت اتحدث عاليا مع لحظة من حيواتهم الاخرى ٠ ـ وهكذا احببت خنزيرا ٠

لم انس واحدة من سفسطات الجنون ، ـ الجنون الذي نحتوي عليه : كنت لاستطيع اعادة سردها كلها ، اني امسك بزمام المنهج ٠

لقد باتت صحتي مهددة ٠ وراح الرعب يقترب ٠ كنت اسقط في اغفاءات لعدة ايام ، واكمل ، وقد استيقظت ، اكثر الاحلام كآبة ٠ كنت ناضجا للموت ، وكان ضعفي يقودني ،على

درب محفوفة بالمخاطر، الى تخوم العالم و «السيميري »،موطن الظلام والزوابع ·

كان علي ان اسافر ، ان ألهي الفتون المتجمعة فـــوق دماغي · على البحر، الذي احببته كما لو كان عليه ان يغسلني من لوثة ، رأيت الصليب المعزي يرتفع · كانت قد حلت علـــي اللعنة بواسطة قوس القزح · السعادة كانت قدري ، ندامتي، دودتي : ستظل حياتي دائما اوسع من ان تكون منذورة للقوة والجمـــال ·

السعادة ، نابها ، المعذب حتى الموت ، انذرني عند صياح الديك ، في احلك المدن ظلاما ·

★★★

هذا قد مضى · اعرف اليوم ان اودع الجمال ·

(٤) صباح Matin

الم يكن لي مرة شباب محبوب ، بطولي ، خرافي ، جدير بان يكتب على اوراق ذهب ، ــ كثير من الحظ ! بأي جريمة، اي غلطة ، استحققت ضعفي الحالي ؟ انتم يا من تدعـــون ان البهائم ترسل زفرات الالم ، ان المرضى ييأســـون ، ان المـــوتى يحلمون برداءة ، حاولوا ان ترووا اخبار سقطتي ورقادي · انا لم اعد استطيع ان افسر نفسي اكثر مما يستطيعه الشحاذ مع ادعيته المتواصلة « آبانا الذي في السموات » و « الســـلام

عليك يا مريم » ·لم اعد اعرف ان اتكلم ·

مع ذلك ، اليوم ، اعتقد اني انهيت حكاية جحيمي · كان هذا هو الجحيم تماما ، القديم ذاك الذي فتح ابن الانسان ابوابه ·

من نفس الصحراء ، الى نفس الليل ، دائما عيوني المتعبة تستيقظ على نجمة الفضة ، دائما ، دون ان يتأثر ملوك الحياة ، المجوس الثلاثة ، القلب ، الروح ، الفكر · متى نمضي ، عبر السواحل الرملية والجبال ، لنحيي مولد العمل الجديد ، الحكمة الجديدة ، فرار الطغاة والشياطين ، نهاية الخرافة ، لنعيد ـ اول الناس ـ عيد الميلاد على الارض ·

نشيد السماوات ، مسيرة الشعوب ! عبيدا ، دعونا لا نلعن الحياة ·

(٥) وداع Adieu

الخريف منذ الآن ! ـ لكن لماذا نأسف على شمس ابدية، اذا كنا متورطين في البحث عن النور الالهي ، ـ بعيدا عن الناس الذين يموتون على الفصول ·

الخريف · قاربنا المنتصب في الضبابات الجامدة يستدير نحو مرفأ البؤس ، المدينة الضخمة ذات السماء الملطخة بالنار والوحل · آه !

الاسمال النتنة ، الخبز المغموس في المطر ، السكر ،

آلاف الحب التي صلبتني ! انها لن تنتهي اذن قط هذه الغولة ملكة ملايين الارواح والاجساد الميتة والتي سيحكم عليها ! اني اراني من جديد وقد نخر الوحل والطاعون جلدي ، وامتلأ شعري وابطي بالدود ، وايضا دودات اكبر في القلب ، ممددا بين مجهولين لا اعمار لهم ، ولا عاطفة ... كان يمكنني ان اموت هناك .. يا للتذكار الشنيع ! اني امقت البؤس .

واخشى الشتاء لانه موسم الرفاهية !

ـ احيانا ارى في السماء شواطىء لا نهاية لها مغطاة بشعوب بيضاء رائعة في الفرح . سفينة ذهب كبيرة ، فوقي ، ترفرف راياتها المتعددة الالوان مع نسائم الصباح . لقد خلقت كل الاعياد ، كل الانتصارات ، كل المآسي . لقد حاولت ان اخترع ورودا جديدة ، كواكب جديدة ، اجسادا جديدة ، لغات جديدة . خلت اني حزت على قدرات فائقة للطبيعة . حسنا ! يجب ان ادفن خيالي وذكرياتي ! مجد جميل لفنان وقاص تبدد !

انا ! انا الذي زعمتني ساحرا او ملاكا ، مصفى من كل علم اخلاق ، عدت الى الارض ، مع واجب علي البحث عنه ، والواقع الخشن الذي علي ان احضنه ! فلاح !

هل اخطأت ؟ او تكون المحبة شقيقة الموت بالنسبة لي ؟ اخيرا سأطلب الصفح لاني تغذيت بالاكاذيب . وهيا . لكن لا يد صديقة ، ومن اين التمس النجدة ؟

★★★

نعم ، الساعة الجديدة هي في الاقل صارمة جدا ٠

اذ يمكنني القول ان لواء النصر معقود لـــــي : صريف الاسنان ، صفير النار ، التنهدات النتنة تخف حدتها ٠ كـل الذكريات النجسة تمحى ٠ حسراتي الاخيـــرة تســـرع في **الانسحاب** ، غيرات من الشحاذين ، اللصوص ،اصدقاء الموت، المتخلفين من كل الانواع ٠ ـ ايها الهالكون ، لو اني انتقم !

يجب ان يكون المرء حديثا بصورة مطلقة ٠

لا اناشيد : عدم التراجع الى الوراء ٠ ليلة قاسية ! الدم المتجفف ينز على وجهي ، وليس ورائي الا هذه الشجيرة الفظيعة ! ٠٠٠ ان الصراع الروحي هو اعنف مـــن حـــرب الرجال ، لكن رؤية العدالة هي متعة الله وحده ٠

مع ذلك انها السهرة ٠ فلنتلق كل زخمات القوة والحنان الحقيقي ٠ وفي الفجر ، مسلحين بصبر حار ، سوف ندخـل الى المدن الرائعة ٠

ماذا كنت اتكلم عن يد صديقة ! امتياز جميل ، هو أني استطيع ان اضحك من الهيامات القديمة الكاذبة ، وادمـــغ بوصمة الخزي هؤلاء الازواج الكاذبين ، ـ لقد رايت جحيم النساء هناك ؛ ـ وسيكون مسموحا لي ان امتلك الحقيقـــة في روح وجسد ٠

من « الاشراقات » Les Illuminations

(١) بعد الطوفان Après le Déluge

ما ان خمدت فكرة الطوفان ،

حتى توقف ارنب بين البرسيم وازهـــار الجريسات المتمايلة وتلا صلاته على قوس القزح من خـــلال نسيـــج العنكبوت •

آه ! يا للاحجار الكريمة التي كانت تختبىء ،ـ والورود التي كانت تتطلع منذ ذلك الحين •

في الشارع الكبير القذر نصبت اكشاك البيع ، وجـرت القوارب نحو البحر المنضد هناك في العالي كمـــا علـــى المحفورات •

الدم سال ، عند ذي اللحية الزرقاء ، ـ في المسالخ ، ـ في السيركات ، حيث دمغ ختم الله النوافذ بالشحوب • الدم والحليب سالا •

القنادس بنت ، اكواب الشراب تصاعد منها البخار في المقاهي •

في منزل الزجاج الكبير الذي لا يزال يتقاطر ماء نظر الاطفال اللابسون ثياب الحداد الى الصور الرائعة ·

باب انصفق ، ــ وفي ساحة القرية ، لـــوح الطفـــل بذراعيه ، مفهوما من دوارات الطقس وتماثيل الديكة علـــى ابراج الاجراس في كل مكان ، تحت وابل المطر الصاخب ·

السيدة فلانة ركزت معزفا في جبال الالـــب · القداس ومراسم اول قربانة احتفل بها في مئة الف مذبح الكاتدرائية·

القوافل رحلت · وفندق « السبلنديد » بني في فوضى الجليد وليل القطب ·

منذ ذلك الحين ، سمع القمر ابناء آوى تصأى في صحارى الصعتر ، ــ واناشيد الرعاة في احذية خشبية تدمـــدم في البستان · ثم ، في الغابة البنفسجية ، المبرعمة ، قالت لـــي « النعمة » انه الربيع ·

ــ انبجسي ايتها البركة ، ــ ايها الزبد تدحـــرج على الجسر وفـــوق الاحراش ، ــ ايتهـــا الشراشف السوداء والاراغن ، ــ ايتها البروق والصاعقة ، ــ ارتفعي وتدحرجي ، ايتها المياه والكآبات ، ارتفعي واطلقي الطوفانات من جديد ·

لانها منذ ان انحسرت ، ــ آه الاحجار الكريمة وهي تدفن نفسها ، والورود المتفتحة ! ــ ساد ضجر ! والملكـــة ، الساحرة التي توقد جمراتها في قدر الفخار ، لن تود قط ان تخبرنا بما تعرفه ، وما نجهله ·

(٢) طفولة ـ ١ ـ Enfance

هذه المعبودة ، عيون سود وعرف اصفر ، بلا اهل ولا بلاط ، اكثر نبلا من الخرافة ، مكسيكية وفلمنكية : مجالها ، لازورد وسندس بطرين ، تركض فوق شواطىء اطلقت عليها امواج بلا سفن ، أسماء يونانية ، سلافية ، سلتية بضراوة ٠

عند حاشية الغابة ، ـ وورود الحلم ترن ، تنفجـر ، تضيء ، ـ الفتاة ذات الشفة البرتقالية ،الركب متصالبة وسط الطوفان المشع الذي ينبجس من المروج ، عري تظلله ، تخترقه وتكسوه اقواس القزح ، النبات ، البحر ٠

سيدات تحومن على الشرفات المجاورة للبحر ، طفلات وعملاقات ، سوداوات رائعات في الطحلب الزنجاري ، جواهر منتصبة على الارض الغليظة للغياض والحدائـق الصغيرة التي ذاب عنها الثلج ، ـ امهات صبايا وشقيقات كبريات لهن انظار مليئة باسفار الحج ، سلطانات ، اميرات لهن مشية وبزة مستبدة ، غريبات صغيرات وشخصيات تعسة بعذوبة ٠

يا للضجر ، ساعة « الجسد العزيز » و« القلب العزيز»٠

٢

انها هي ، الصغيرة الميتة ، خلف اشجار الورد ٠ ـ الام الشابة المتوفية تنزل درج المدخل ٠ ـ عربة ابن العم تصرخ على الرمل ٠ ـ الشقيق الاصغر (انه في الهند) هنا ، امام

المغيب ، في مرج القرنفل · ـ العجائز الذين دفنوهم مستقيمين في متراس المنثور ·

شتيت اوراق الذهب يحيط بمنزل الجنرال · انهم في الجنوب · ـ اننا نتبع الدرب الحمراء لنصل الى الحانة الشاغرة · القصر هو برسم البيع ، مغاليق الشبابيك مقتلعة · ـ الخوري قد يكون اخذ معه مفتاح الكنيسة · حول المنتزه ، حجرات الحراس غير مسكونة · السياجات عالية لدرجة اننا لا نرى سوى القمم المهمهمة · على كل حال لا يوجد شيء للرؤية هناك في الداخل ·

المروج تصعد من جديد نحو قرى بلا ديوك ،بلا سنادين · الترعة مرفوعة · يا لآلام الصلب وطواحين الصحراء ، الجزائر والرحى !

ورود سحرية كانت تطن · المنحدرات كانت تهدهده · ثمة حيوانات ذات اناقة خرافية كانت تتجول · السحب كانت تتجمع فوق البحر العالي مصنوعة من ابدية من الدموع الحارة ·

٣

في الغابة ، يوجد عصفور ، غناؤه يوقفك ويجعلك تحمر ·

يوجد ساعة لا تدق ·

يوجد ردغة مع عش من الحيوانات البيضاء ·

يوجد كاتدرائية تهبط وبحيرة تصعد ·

يوجد عربة صغيرة مهجورة في الحرش ، او تهبط الدرب راكضة ، مزينة بالشرائط ·

يوجد فرقة من المهرجين الصغار بملابس التمثيل ، مترائين على الطريق عبر حاشية الغابة ·

يوجد اخيرا ، عندما يكون بك جوع وعطش ، احد ما يطردك ·

٤

اني القديس ، في حالة صلاة على الشرفة ،ـ كما ترعى الحيوانات المسالمة حتى بحر فلسطين ·

اني العالم في مقعده القاتم · الاغصان والمطر تتقاذف على نافذة المكتبة ·

اني مشاء الدرب الطويلة عبر الغابات القزمة ،ضوضاء الترعات تغمر خطاي · اني ارى طويلا غسيل الغروب الكئيب الذهبي ·

سأكون تماما الطفل المهجور على رصيف الميناء المتقدم في البحر العالي ، الخادم الصغير متابع الممشى الذي تمس جبهته السماء ·

الدروب وعرة · الآكام تتغطى بالوزال · الهواء جامد·
ما ابعد العصافير والينابيع ! هذا لا يستطيع ان يكـــون الا نهاية العالم ، ونحن نتقدم ·

٥ -

فليؤجروني اخيرا هذا القبر ، المطلي بالكلس مع خطوط الملاط النافرة ، ـ بعيدا جدا تحت الارض ·

اني اتكىء على الطاولة ، المصباح يضيء بقوة ساطعة هذه الجرائد التي بلغ بي السخف حد اعادة قراءتها ، هذه الكتب العديمة الفائدة · ـ

على مسافة ضخمة فوق غرفة استقبالي تحت الارضية، تقوم البيوت تتجمع الضبابات · الوحل هو احمر او اسود · مدينة هائلة ، ليل بلا نهاية !

اقل علوا من ذلك ، يوجد مجارير · عن الجانبين ، لا شيء سوى كثافة الكرة الارضية · ربما هاويات اللازورد ، آبار نار · انه ربما على هذه الاصعدة تلتقي اقمار ومذنبات ، بحار واساطير ·

في ساعات المرارة اتصور كرات من الياقوت الازرق ، من المعدن · اني سيد الصمت · لماذا يا ترى قد يمتقع ظـــل منفذ عند طرف القبة ؟

٣ حيوات ـ ٢

اني مخترع تختلف جدارتي بكثير عن كل الذين سبقوني، موسيقار حتى ، وجد شيئا ما مثل مفتاح الحب · في الوقت الحاضر ، سيد ريف خشن ذي سماء زاهدة ، فاني احـاول ان اجعل نفسي تتأثر لذكرى الطفولة المتسولة ، التـــدرب او الوصول باحذية خشبية ، المجادلات ، الترملات الخمسة او الستة ، وبعض حفلات المجون حيث منعني راسي العنيد مـن رفع عقيرتي بما يجاري نغم الرفاق · اني لا آسف علـــى حصتي القديمة من المرح الالهي : ان الهواء الزاهد لهــذا الريف الخشن يغذي بحيوية قوية ارتيابيتي الفظيعة · لكن بما ان هذه الارتيابية لا يمكن استعمالها من الان فصاعدا، وبما اني من جهة اخرى منذور لاضطراب جديد ، ـ فاني انتظر ان اصبح مجنونا شريرا للغاية ·

(٤) رحيل Départ

كفانا ما رأيناه : الرؤيا تصادفت في كل الاجواء ·

كفانا ما حصلنا عليه : ضوضاءات المدن ، المساء ، وفي الشمس ، ودائما ·

كفانا ما عرفناه : محطات الحياة · ـ يا للضوضاءات والرؤى !

رحيل في المحبة والضجة الجديدتين !

(٥) الى عقل A une Raison

نقرة من اصبعك على الطبل تطلق كل الاصوات وتبـدأ الانسجام الجديد ٠

خطوة منك هي هبة الرجال الجدد ومسيرتهم ٠

رأسك يستدير : الحب الجديد ! رأسك يتلفـت الـى الوراء ، ـ الحب الجديد !

« غير انصبتنا ، غربل البلايا ، بدءا بالزمان » ينشدك هؤلاء الاطفال ٠

« ارفع في اي مكان ماهية حظوظنا واماننا » ، نتضرع اليك ٠

ايها الواصل من كل زمان ، الذي ستذهب الى كل مكان٠

(٦) مدينة Ville

اني مواطن زائل وغير مستاء كثيرا لعاصمة مظنونـة حديثة لان كل ذوق معروف قد تم تجنبه في رياش البيـوت ومظهرها الخارجي كما وفي مخطط المدينة ٠ هنا لن تميـز آثار اي نصب للخرافة ٠ علم الاخلاق واللغة مختزلان الـى ابسط تعبير لهما ٠ اخيرا ! هؤلاء الملايين من الناس الذين لا يحتاجون الى معرفة بعضهم يجلبون التعليـم ، المهنـة والشيخوخة ، بصورة متماثلة لدرجة ان مجرى الحياة هذا

يجب ان يكون اقصر عدة مرات مما تجده احصائية مجنونة لشعوب القارة • كما وايضا ، من نافذتي ، ارى اشباحا جددا يتدحرجون عبر دخان الفحم الكثيف والابدي ـ ظل غاباتنا ، ليلة صيفنا ! ـ ربات ندم وانتقام جديدات ، امام بيتي الريفي الصغير الذي هو وطني وكل قلبي بما ان كل شيء هنا يشبه هذا ، ـ الموت دون دموع ، ابنتنا وخادمتنا النشطة ، حبا يائسا وجريمة جميلة تصأى في وحل الشارع •

(٧) فجر Aube

لقد عانقت فجر الصيف •

لم يكن شيء ليتحرك بعد في جبهة القصور • الماء كان ميتا • معسكرات الظلال لم تكن لتهجر طريق الغابة• لقد مشيت ، موقظا الانفاس الحية والفاترة ، والجواهر الكريمة تطلعت ، والاجنحة ارتفعت دونما ضجة •

ان اول مشروع كان ، في الدرب الممتلىء منذئذ بتوهجات ندية وشاحبة ، وردة قالت لي اسمها •

ضحكت للشلال الاشقر الذي تبعثر من خلال الصنوبرات : على القمة الفضية تعرفت الى الربة •

عندئذ رفعت البراقع واحدا واحدا • في الممشى ، وانا احرك الذراعين • في السهل ، حيث وشيت عنها الى الديك • في المدينة الكبرى كانت تهرب بين ابراج الاجراس والقباب

وكنت اطردها ، راكضا كالشحاذ على ارصفة الرخام ٠

في اعلى الطريق ، قرب غابة غار ، احطتهـا ببراقعها المجمعة ، واحسست قليلا بجسدها الرحب ٠ الفجر والطفـل وقعا الى اسفل الغابة ٠

عند اليقظة كان الظهر ٠

(٨) حرب Guerre

طفلا ، بعض السماوات ارهفت بصري : كل الطبـــاع اظهرت فروق سحنتي الدقيقة ٠ الظاهرات تأثرت ٠ ـ فـي الوقت الحاضر تغير الدقائق الابدي ولا نهائية الرياضيـات تطردني في هذا العالم حيث اكابد كل النجاحات المدنيـــة ، محترما من الطفولة الغريبة والمحبات الضخمة ٠ ـ افكـــر بحرب ، ذات حق او قوة ذات منطق غير متوقع للغاية ٠

هذا بسيط بمقدار جملة موسيقية ٠

(٩) صبا ـ ٢ Jeunesse

رجل ذو تركيب عادي ، الم يكن الجسد ثمرة معلقـــة في البستان ، يا للنهارات الطفلة ! الجسد كنز برغم الاغداق بسخاء ، آه الحب ، خطر وقوة النفس ؟ كان للارض سفـوح خصبة بالامراء والفنانين ، والمحتد والسلالة كانت تدفعنا الى الجرائم والمآثم : العالم ، ثروتك وخطرك ٠ لكن في الوقـت

الحاضر ، وقد استهلك هذا الجهد دأبه ، انت ، حساباتك ، انت ، نفادات صبرك ، ليست بعد سوى رقصك وصوتك ، غير المثبتين وغير المجبرين ابدا ، مع انهما بفعل حادث مزدوج من اختراع ونجاح دراية ، بالانسانية الاخوية والحذرة عبر الكون الخالي من الصور ، ــ القوة والحق يعكسان الرقص والصوت المقدرين في الوقت الحاضر فقط ·

(١٠) عبقرية Génie

انه المحبة والحاضر بما انه جعل البيت مفتوحا للشتاء المزبد ولضوضاء الصيف ، هو الذي طهر المشروبات والاطعمة ، هو الذي يكون سحر الامكنة الهاربة واللذة فوق البشرية للمحطات ·انه المحبة والمستقبل ، القوة والحب الذي نراه نحن ، واقفين في الغضبات والسآمات ، يمر في سماء العاصفة وبيارق النشوة ·

انه الحب ، مقياس كامل ومخترع من جديد ، حكمة مدهشة وغير متوقعة ، والابدية : آلة محبوبة من الخصال المحتومة · لقد ذعرنا جميعا لتنازله وتنازلنا : يا لمتعة صمتنا ، حمية ملكاتنا ، محبة انانية وشغف به ، هو الذي يحبنا مدى حياته اللانهائية ···

واننا لنسترجعه نحونا ويسافر ··· واذا ما العبادة رحلت ، دوت ، فان وعده يدوي : « الى الوراء هذه الخرافات ، هذه الاجساد القديمة ، هذه العائلات وهذه الاعمار · انه هذا العصر بالذات الذي غرق ! » ·

انه لن يذهب ، انه لن ينزل ثانية من السماء ، انه لن يحقق افتداء سخطات النساء وبهجات الرجال وكل هذه الخطيئة : لانه قد تم الامر ، بكونه هو موجودا ، وكونه محبوبا ٠

يا لانفاسه ، رؤوسه ، ركضاته : السرعة المرعبة لكمال الاشكال والفعل !

يا لخصوبة الروح ورحابة الكون !

جسده ! التحرر المنشود ، تحطم النعمة وقد تشابكت مع عنف جديد ! بصره ، بصره ! كل السجدات القديمة والاعباء مرفوعة في اثره ٠

يومه الغاء كل العذابات الرنانة والمتحركة في الموسيقى الاكثر حدة ٠

خطوته ! النزوحات الاضخم من الغزوات القديمة ٠

آه هو ونحن !الكبرياء الاكثر رفقا من المحبات الضائعة٠

يا للعالم ! والنشيد الصافي للتعاسات الجديدة !

لقد عرفنا جميعا واحبنا جميعا ٠ فلنعرف ، في ليل الشتاء هذا ، من لسان بحر الى لسان بحر ، من القطب الصاخب الى القصر، من الجمهور الى الشاطىء، من نظرات الى نظرات ، بقوى ومشاعر متعبة ، ان نناديه من بعيد وان نراه ، وان نعكسه ، وتحت طبقات المد والجزر وفي اعلى صحارى الثلج ، ان نتبع ابصاره ، انفاسه ، جسده ، يومه٠

فهرست

صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر

سلسلة اعلام الفكر العالمي

فرانز فانون
راسل
البير كامو
ماركوز
غيفارا
هيدجر
ماركس
فرويد
نيتشه
انجلز
ديكارت
هيجل
سارتر
اندريه مالرو
كافكا
بوشكين
بريخت
بيكيت
اراغون
متزيني
ميكيافيللي
كانط
هوغو

دافيد كوت
جون لويس
كونر كروز اوبراين
السدير ماكنتير
اندرو سنكلير
مارجوري جرين
سي٠ سبرنغ
اريك فروم
يانكو لافرين
غريس كارلتون
مارسيل بارجوني
رنيه سرو
فيليب ثودي
غيتان بيكون
تشارلز ازبورن
كيروتين واخرون
قالتر نبجامان
ناثان سكوت
عصام محفوظ
علي ادهم
الين فيدرين
اوفي شولتز
هنري غيمان

غوتــه
دستويفسكي
لوركا
لوكاش
غوركي
فيبر
روزا لكسمبورغ
جويس
داروين
تورغنيف
طاغــور
مایاكوفسكي
اندريه جيد
فوكنر
غوغول
اورويل
برودون
بودلير
رامبو
اناتول فرانس
اوسكار وايلد
غرامشي
اودن
برناردشو
كينز

بيتر بورنر
جاك مادول
ارمان غيبير ولويس بارو
جورج لختهايم
د٠ جليل كمال الدين
دونالد ماكري
دانيال غرين
جون غروس
اندريه كريسون
د ٠ محمد يونس
اوريت اصلان
د ٠ حياة شرارة
ج ٠ و ٠ ايرلاند
مايكل ملجيت
د ٠ محمد يونس
ريموند ويليامز
جورج غرفتش
لوك ديكون
سمير الحاج شاهين
جاك سوفيل

هــذا الكتاب

« العبقرية هي الطفولة المستعادة قصدا »

بودلير

نعم ان رامبو هو ذلك الطفل العاجز عن بلوغ مرحلة النضج والرجولة دون ان يفقد في الطريق خير جزء من نفسه ، وافضـــل ناحية من مواهبه ٠ ان النعمة التي اغدقتها عليــه الطبيعــة بسخاء هي اسطورة الطفولة ، نعمة الاستغراق كلية في نشوة الاحساس التي يـذوب فيها بشهوانية وصوفية ، ويعثر فيها للحظة خاطفة ، على الوهم بغبطة خالدة خارج نطاق الزمان والمكان ٠ نعم : وعلى حد تعبير جاك بريفيير :

ـ « ٠٠٠ لقد خلق رامبو ليستمر طفلا خلال الحياة ، طفلا بقلبه الطاهر والشرير ، ببراءته وطغيانه ٠٠٠ »

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

السعر